التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم



المجلد الرابع

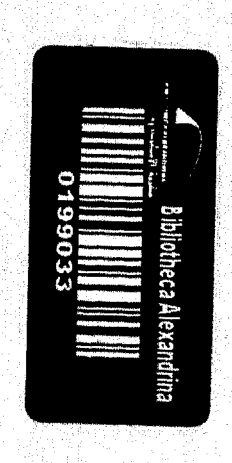
الدولة الإدريسية

تأليف

عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

1987 - 1407

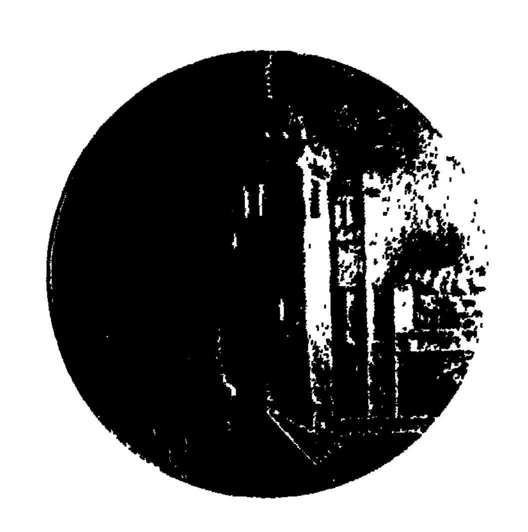


اهداءات متنوعة

DIFFERENT GIFTS

التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم



المجلد الرابع

الدولة الإدريسية

تأليف

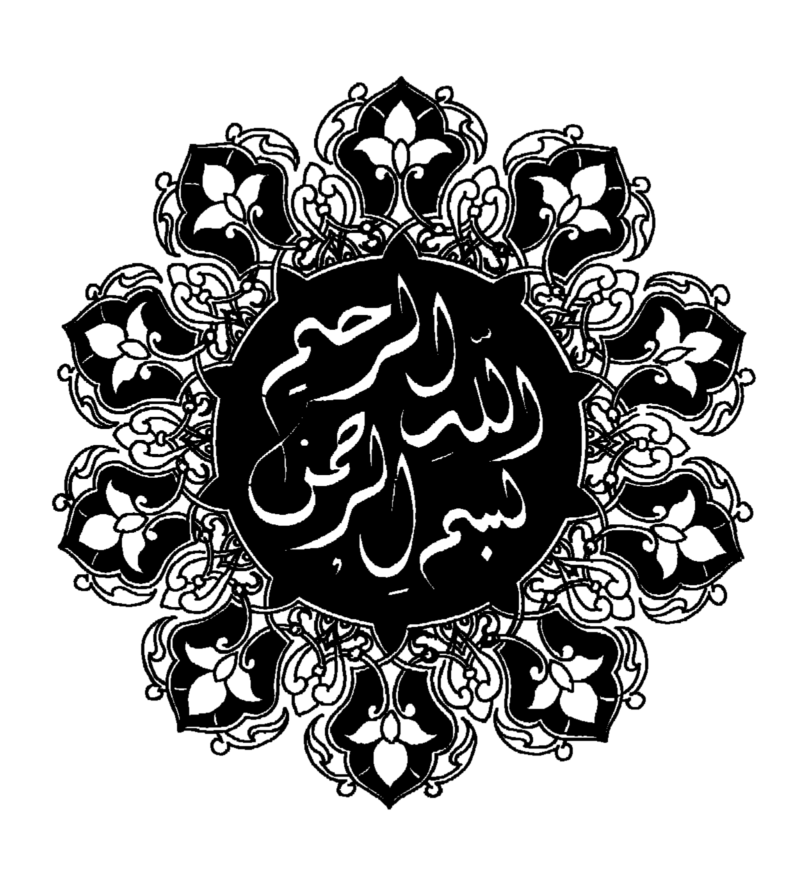
عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

1407 - 1987

صورة الغلاف

أقدم صومعة من نوعها في العالم الإسلامي كلّه هي التي بنيت سنة 344 = 955 من أخماس غنائم الروم وهي التي توجد إلى الآن بجامع القرويين في مدينة فاس...



عظمة الميثاق

وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ

صدق الله العظيم
سورة الأنفال - الآية 72

مقدم الإمام إدريس

- أصل الخلاف في المشرق
- وقعة فخ 8 ذي الحجة 169 = 10 يونيه 786
- عبور إدريس البحر الأحمر إلى إفريقيا
- مقامه في طنجة وتوجيه ندائه إلى المغاربة
- بيعة إدريس 172 = 788 واستقلال المغرب عن بغداد
- افتتاح تلمسان وأطراف السودان
- اغتيال الإمام من لدن الخلافة في بغداد !
- إدريس الثاني وتأسيس العاصمة : فاس
- خلافة محمد بن إدريس وتوزيعه المغرب على إخوته
- الآثار المعمارية والحضارية

مقدم الإمام إدريس

ظلت البيعة التي عُقِدت بمكة في أعقاب حكم بني أُمية، ونصت على أحقية محمد النفس الزكية بالخلافة، الأَسَاسَ الذي يرتكز عليه استمرار مناهضة الأَشراف الطالبيين للولاة العباسيين ولا سيما وقد حضر البيعة وباركها منذ البداية زعماء هؤلاء وفي صدرهم أبو العباس السفّاح وأبو جعفر المنصور، ولهذا فإن موقف بني العباس بعد انهيار الدولة الأَموية كان في نظر بني هاشم تنكراً للعهد يقتضي المعارضة السلمية أَحياناً والمواجهة المسلحة أحياناً أخرى !

أورد الإمام الفخر الرازي عند تفسير قوله تعالى : ﴿وأولوا الأَرحام بعضهم أولى ببعض﴾ ما يلي :

تمسك محمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كتابه إلى أبي جعفر المنصور بهذه الآيةِ في أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو عليّ بن أبي طالب، فقال في قوله تعالى : ﴿وأولوا الأَرحام بعضهم أولى ببعض﴾ : يدلُّ على ثبوت الولاية وليس في الآية شيء معيّن في ثبوت الأَولوية فوجب حمله على الكلّ إلاّ ما خصّه الدليل، وحينئذ يندرج فيه الإمامة، ولا يجوز أن يقال : إن أبا بكر كان من أولي الأَرحام لِما نقل أنه ـ عليه السلام ـ أعطاه سورة براءة ليبلغها إلى القوم، ثم بعث عليّاً خلفه وأمر بأن يكون المبلّغ هو عليّ، وقال : «لا يؤديها ألاّ رجل منّي» وذلك يدلُّ على أن أبا بكر ما كان منه، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية.

والجواب : إن صحت هذه الدلالة، أن العباس كان أولى بالإمامة لأنّه كان أقرب إلى رسول الله من علي، وبهذا الوجه أجاب أبو جعفر المنصور عنه.

وقد شهد الشرق نتيجةً لذلك اصطدامات بين هؤلاء وأولئك، وبين أنصار هذا الفريق وذلك الفريق، واحتدم النزاع عندما رَدَّدَ الإمَامَان مالك وأبو حنيفة قولتهما : «إن إمارة النفس الزكية أصحُّ من إمارة أبي جعفر المنصور» !

لهذا توجَّه المنصور بكل ثقله للإجهاز على منافسه الأول، تارة بالإغراء، وأُخرى بالتحذير، ولما أعجزه كل ذلك بعث بجيشٍ كثيف بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى... وهكذا استُشهد محمد النفس الزكية على مقربة من المدينة المنورة سنة 145 (762م) وتنفس المنصور الصّعداء حين وضع أَمامه رأس الشهيد ! وكان يعتقد أن دولة بني العباس قد استراحت إلى الأَبد.

بيد أنه لم يمض إلاّ زهاء عشرين عاماً حتى تعرضت دولة بني العباس لثورةٍ أُخرى تستهدف الاحقّية التي ما فتىء آل البيت يطالبون بها... إن الفكرة لم تمت باستشهاد النفس الزكية، وهكذا رأينا أهل المدينة المنورة يبايعون الحسين بن علي بن الحسن، وعبثاً حاول الخليفة تفشيل الحركة، وأمام تفاقم المقاومة الطالبية لجأ العباسيون إلى القمع... وعهد الخليفة لموسى الهادي بالمهمة إلى محمد بن سليمان أحد كبار قادته العسكريين، وزوده بكل ما يلزم من مال ورجال وعتاد، وكانت المعركة هذه المرة بضواحي مكّة على بعد ثلاثة أميال منها في المكان المعروف بفخّ، وقد أسهم فيها عدد مهم من أنصار الحسين وآل بيته وعلى رأسهم عمه الإمام إدريس... وأسفرت الإصطدامات عن استشهاد عدد من آل البيت كان على رأسهم الحسين...

وكانت هذه الحادثة التاريخية يوم السبت الثامن من ذي الحجة (يوم التروية) عام 169 (10 يونيه 786م).

ولقد استطاع الإمام إدريس بمساعدة مولاه راشد أن يجد مع حُجاج إفريقية مركباً عبر به البحر الأحمر إلى بلاد النُّوبة، ومن ثمة إلى مصر حيث تلقى مساعدة من الذين يعطفون على آل البيت، مكّنتْهُ من أخذ الطريق إلى برقة فالقيروان فمدينة الجدار : (تلمسان) فطنجة التي كانت يومئذ ـ على ما يقول صاحب روض القرطاس ـ قاعدةَ بلاد المغرب. لقد عرف الإسلام بهذا الإقليم قبل هذا التاريخ على ما أسلفنا... ولذلك لم يكن ذكر آل البيت غريباً عنه ولا بعيداً... بل إن وصول إدريس اقترن بالمسرات والأفراح، هناك في طنجة، أقام إدريس سنتين كاملتين 170 ـ 172 حيث اقترن ـ على ما يبدو ـ بزوجته التي كانت من أصل قوطِيّ وهنا أخذ يدعو لأخيه الإمام يحيى بن عبد الله الذي صمم على مواصلة الحركة التي ابتدأها الأشراف الطالبيون، بيد أن الاخبار لم تلبث أن وصلت إلى طنجة تُؤكّد غدْر العباسيين بالإمام يحيى بعد أن كان تلقى تأميناً على حياته من هارون الرشيد، وهنا قرر المولى إدريس أن يدعو لنفسه حيث وجّه دعوته المكتوبة إلى مختلف جهات المغرب بما في ذلك مدينة وليلة قاعدة المغرب الداخلية أيام الرومان.

هل كان لإدريس زوْجة قوطية غير كَنْزة ؟

«ووصل إدريس إلى موريطانيا فحظي فيها حظوة كبيرة حتى أنه حصل في قليل من الوقت لا على السلطة الزمنية فحسب ولكن على السلطة الروحية أيضاً واستقرّ في جبل زرهون على بعد نحو ثلاثين ميلاً من فاس وغدت موريطانيا كلها تدفع له الخراج ومات دون أن يترك ولداً وإنما ترك زوجته حاملاً، وهي قُوطية اعتنقت الإسلام، فوضعت ولداً سمي باسم أبيه إدريس...»

ابن الحسن الوزان : وصف إفريقيا

وقد وجد الإستجابة عند صاحبها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أَوْرَبة، أعظم القبائل البربرية بأساً وأشدّها شوكة آنئذ، وهكذا أسرى به إلى وليلة سنة مائة واثنتين وسبعين حيث استقبله إسحاق وأتباعه في فاتح ربيع الأول 172 =غشت 788).

لقد كان من أسباب استجابة المغاربة لإدريس أنهم عرفوه مضطهَداً فعملوا على أن يحققوا معه رغبة آل البيت في بعث الخلافة الإسلامية سِيّما بعد أن سمعوا دعوته التي عبر فيها عن كونه قائماً بدعوةٍ قُتِل أصحابها وأصبح متحمّلاً مسؤوليتها، وأنه لا يريد إلا تحقيق نهج آل البيت الذي هو السير على خطة الخلفاء الراشدين...[1]

دولة الأَدارسة 172 ـ 375 = 788 ـ 1018

لقد بويع إدريس يوم الجمعة رابع شهر رمضان 172 هـ 6 يبراير 789م فتمّ بذلك تنصيب أول ملك من الدولة الإدريسية.

ويتساءل هنا : هل ما إذا كان الإمام إدريس قد خرج عن الجماعة باقتطاعه للمغرب عن دولة الخلافة ؟ الواقع أن ذلك الاستقلال أفاد المغرب كثيراً لاسيما وأن مئال البلاد الإسلامية كان هو التجزئة، وخاصة في الأَقطار النائية عن بلاد العرب، مثل المغرب الذي كان يلزم أن تقوم به حكومة مغربية محلية لتطبعها بطابعِ العروبة الصميم بعد اعتناقها

---

1) علال الفاسي : المولى إدريس الأكبر، وثيقة تاريخية عن دعوته لم تنشر قط، ولم تعرف لدى الذين كتبوا عنه من المغاربة، مجلة التضامن ـ الرباط ـ العدد الثالث يبراير 1974 ـ مجلة الوثائق، المجموعة الأُولى 1396 ـ 1976 المطبعة الملكية ـ د. عبد الهادي التازي : إدريس الأكبر فاتح المغرب وثيقة تاريخية لم تنشر ولم تعرف لدى الذين كتبوا عنه من المغاربة، مجلة المناهل العدد 11 ربيع الأَول 1398 = مارس 1978.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه، وعاقبة السوء لمن عانده، ولا إله إلا الله المتفرد بالوحدانية الدال
على ذلك بما أظهر من عجيب حكمته، ولطف تدبيره، الذي لا يدرك إلا أعلامه، وصلى الله على محمد عبده
ورسوله، وخيرته من خلقه، أحبه واصطفاه، واختاره وارتضاه، صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين.
أما بعد فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية
ورفع المظالم، والأخذ بيد المظلوم، وإحياء السنة وإماتة البدعة، وإنفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد
واذكروا الله في ملوك غيروا، وللأمان خفروا، وعهد الله وميثاقه نقضوا، [illegible] وأذكركم الله
في أرامل احتقرت، وحدود عطلت، وفي دماء بغير حق سفكت، فقد نبذوا الكتاب والإسلام، فلم يبق
من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، واعلموا عباد الله أن مما أوجب الله على أهل طاعته المجاهدة
لأهل عداوته ومعصيته باليد واللسان، فباللسان الدعاء إلى الله بالموعظة الحسنة، والنصيحة والحض
على طاعة الله، والتوبة عن الذنوب بعد الإنابة والإقلاع والنزوع عما يكره الله، والتواصي بالحق والصبر
والرحمة والرفق [illegible] والتناهي عن معاصي الله كلها، والتعليم والتفقيه [illegible] بكتاب الله ورسوله حتى
تنفذ بصائرهم [illegible] فتكون [illegible] للجهاد [illegible]
وللظالمين مقاوما [illegible] على البغي والفساد [illegible] أظهروا [illegible] ونبذوا [illegible] طاعة ربهم [illegible]
أهل الجور عن ارتكاب [illegible] الله [illegible] معصية الله
[illegible] من عمل [illegible] الحق [illegible] أنصاره، فإن
فيما [illegible] النبي صلى الله عليه وآله [illegible] الله [illegible] وتكثيره إياهم بعد القلة
وإعزازهم بعد الذلة [illegible] قال الله عز وجل [illegible]
وقال [illegible] ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز [illegible] وأكثر حزبه
[illegible]
[illegible] وجاهدوا [illegible]
بريبة الله [illegible]
والاعتصام [illegible] كما قال عز وجل
إن تنصروا الله ينصركم [illegible] وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان، وقال إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي
وكما مدحهم وأثنى عليهم [illegible] كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون
عن المنكر وتؤمنون بالله، وقال عز وجل والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر [illegible] الإيمان [illegible] وأمر بالجهاد عليه والدعاء إليه
قال تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق
وفرض قتال المعاندين [illegible] في كتابه حتى يعودوا إليه
[illegible] فقال تعالى وإن طائفتان
من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله
فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل [illegible]
[illegible] ولا تعاونوا على الإثم والعدوان [illegible]
[illegible] الجبابرة في الآفاق شرقا وغربا، وأظهروا الفساد
وامتلأت الأرض ظلما وجورا، فليس للناس ملجأ ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء، فعسى أن تكونوا
معاشر إخواننا من البربر اليد المساعدة [illegible] الظلم والجور، وأنصار الكتاب والسنة، القائمين بحق المظلومين
من ذرية النبيين، فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين، ونصر الله مع النبيين، واعلموا معاشر
البربر أني أتيتكم، وأنا المظلوم الملهوف، الطريد الشريد، الخائف الموتور الذي كثر واتره، وقل ناصره، وقتل
إخوته وأبوه وجده وأهلوه، فأجيبوا داعي الله، فقد دعاكم إلى الله، فإن الله عز وجل يقول: ومن لا
يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء، أعاذنا الله وإياكم من الضلال، وهدانا
وإياكم إلى سبيل الرشاد، وأنا إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى
الله عليه [illegible] وعلي بن أبي طالب أبي، وحمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنة عماي،
وخديجة الصديقة وفاطمة بنت أسد الشفيقة جدتاي، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة
بنت الحسين سيدة ذراري النبيين أماي، والحسن والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواي، ومحمد وإبراهيم
ابنا عبد الله المهدي والزكي أخواي، فهذه دعوتي العادلة غير الجائرة، فمن أجابني فله ما لي وعليه ما علي، ومن أبى
فحظه أخطأ، وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة أني لم أسفك له دما، ولا استحللت محرما ولا مالا، واستشهدك يا
أكبر الشاهدين، واستشهد جبريل وميكائيل أني أول من أجاب وأناب، فلبيك اللهم لبيك مزجي السحاب، وهازم
الأحزاب، مصير الجبال سرابا، بعد أن كانت صما صلابا، أسألك النصر لولد نبيك، إنك على كل شيء قدير، والسلام
وصلى الله على محمد وآله وسلم

دعوة الإمام إدريس المرسلة إلى المغاربة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه، وعاقبة السوء لمن عانده، ولا إلاه إلا الله المتفرد بالوحدانية، الدالُّ على ذلك بما أظهر من عجيب حكمته، ولطف تدبيره، الذي لا يدرك إلا إعلامه، وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، أحبه واصطفاه، واختاره وارتضاه، صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين.

أما بعد فإني :

أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية، ورفع المظالم، والأخذ بيد المظلوم، وإحياء السنة وإماتة البدعة، وإنفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد، واذكروا الله في ملوكٍ غيروا، وللأمان خفروا، وعهد الله وميثاقه نقضوا، ولبني بيته قتلوا، وأذكركم الله في أرامل احتقرت، وحدود عطلت، وفي دماء بغير حق سفكت، فقد نبذوا الكتاب والإسلام، فلم يبق من الإسلام إلا إسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، واعلموا عباد الله أن مما أوجب الله على أهل طاعته، المجاهدة لأهل عداوته ومعصيته باليد وباللسان، فباللسان الدعاء إلى الله بالموعظة الحسنة، والنصيحة والحض على طاعة الله، والتوبة عن الذنوب بعد الإنابة والإقلاع والنزوع عما يكرهه الله، والتواصي بالحق والصدق، والصبر والرحمة والرفق، والتناهي عن معاصي الله كلها، والتعليم والتقديم لمن استجاب لله ورسوله حتى تنفذ بصائرهم وتكمل، وتجتمع كلمتهم وتنتظم، فإذا اجتمع منهم من يكون للفساد دافعاً، وللظالمين مقاوماً وعلى البغي والعدوان قاهراً، أظهروا دعوتهم، وندبوا العباد إلى طاعة ربهم، ودافعوا أهل الجور عن ارتكاب ما حرم الله عليهم، وحالوا بين أهل المعاصي وبين العمل بها، فإن في معصية الله تلفاً لمن ركبها، وإهلاكاً لمن عمل بها.

ولا يؤيسنكم من علو الحق اضطهاده وقلة أنصاره، فإن في ما بدا من وحدة النبي ﷺ والأنبياء الداعين إلى الله قبله، وتكثيره إياهم بعد القلة، وإعزازهم بعد الذلة، دليلاً بيناً، وبرهاناً واضحاً، قال الله عز وجل : **﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾** فنصر الله نبيه وكثر جنده، وأظهر حزبه، وأنجز وعده، جزاء من الله سبحانه وثواباً لفضله وصبره وإيثاره طاعة ربه ورأفته بعباده، ورحمته وحسن قيامه بالعدل والقسط في تربيتهم ومجاهدة أعدائهم وزهده فيهم، ورغبته فيما يريده الله، أعدائهم وزهده فيهم، ورغبته فيما يريده الله، ومواساته أصحابه، وسعة أخلاقه، كما أدبه الله، وأمر العباد باتباعه. وسلوك سبيله والاقتداء بهدايته، واقتفاء أثره، فإذا فعلوا ذلك أنجز لهم ما وعدهم. كما قال عز وجل : **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾**، قال تعالى : **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾**، وقال : **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي**

القربى، **وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾**، وكما مدحهم وأثنى عليهم، كما يقول : **﴿كنتم خير أُمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله﴾**، وقال عز وجل : **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾**، وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأضافه إلى الإيمان والإقرار لمعرفته، وأمر بالجهاد عليه، والدعاء إليه، قال تعالى : **﴿قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق﴾**، وفرض قتال المعاندين على الحق، والمعتدين عليه وعلى من آمن به وصدق بكتابه حتى يعود إليه ويفيء، كما فرض قتال من كفر به وصد عنه حتى يومن به ويعترف بشرائعه، قال تعالى : **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾**، فهذا عهد الله إليكم، وميثاقه عليكم، بالتعاون على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، فرضاً من الله واجباً، وحكماً لازماً، فأين عن الله تذهبون ؟ وأنى توفكون ؟.

وقد خانت جبابرة في الآفاق شرقاً وغرباً، وأظهروا الفساد وامتلأت الأرض ظلماً وجوراً، فليس للناس ملجأ ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء، فعسى أن تكونوا معاشر إخواننا من البربر اليد الحاصدة للظلم والجور، وأنصار الكتاب والسنة، القائمين بحق المظلومين من ذرية النبيئين، فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين، ونصر الله مع النبيئين، واعلموا **معاشر البربر أني أتيتكم، وأنا المظلوم الملهوف، الطريد الشريد، الخائف الموتور الذي كثر واتره، وقل ناصره، وقتل اخوته، وأبوه وجده، وأهلوه**، فأجيبوا داعي الله، فقد دعاكم إلى الله، فإن الله عز وجل يقول : **﴿ومن لا يجبّ داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء﴾**، أعاذنا الله وإياكم من الضلال، وهدانا وإياكم إلى سبيل الرشاد، **وأنا إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب**، عم رسول الله ﷺ، ورسول الله وعلي بن أبي طالب جداي، وحمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنة عماي، وخديجة الصديقة وفاطمة بنت أسد الشفيقة جدتاي، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت الحسين سيد ذراري النبيئين أُمّاي، والحسن والحسين إبنا رسول الله ﷺ أبواي، ومحمد وإبراهيم ابنا عبد الله المهدي والزاكي أخواي، **هذه دعوتي** العادلة غير الجائرة، فمن أجابني فله ما لي، وعليه ما علي، ومن أبى فحظّه أخطأ، وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة أني لم أسفك له دماً، ولا استحللت محرماً ولا مالا، وأستشهدك يا أكبر الشاهدين وأستشهد جبريل وميكائيل إني أول من أجاب وأناب، فلبيك اللهم لبيك مزجي السحاب، وهازم الأحزاب، مصيّر الجبال سراباً، بعد أن كانت صماً صلاباً، أسألك النصر لولد نبيك، إنك على كل شيء قدير، والسلام.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

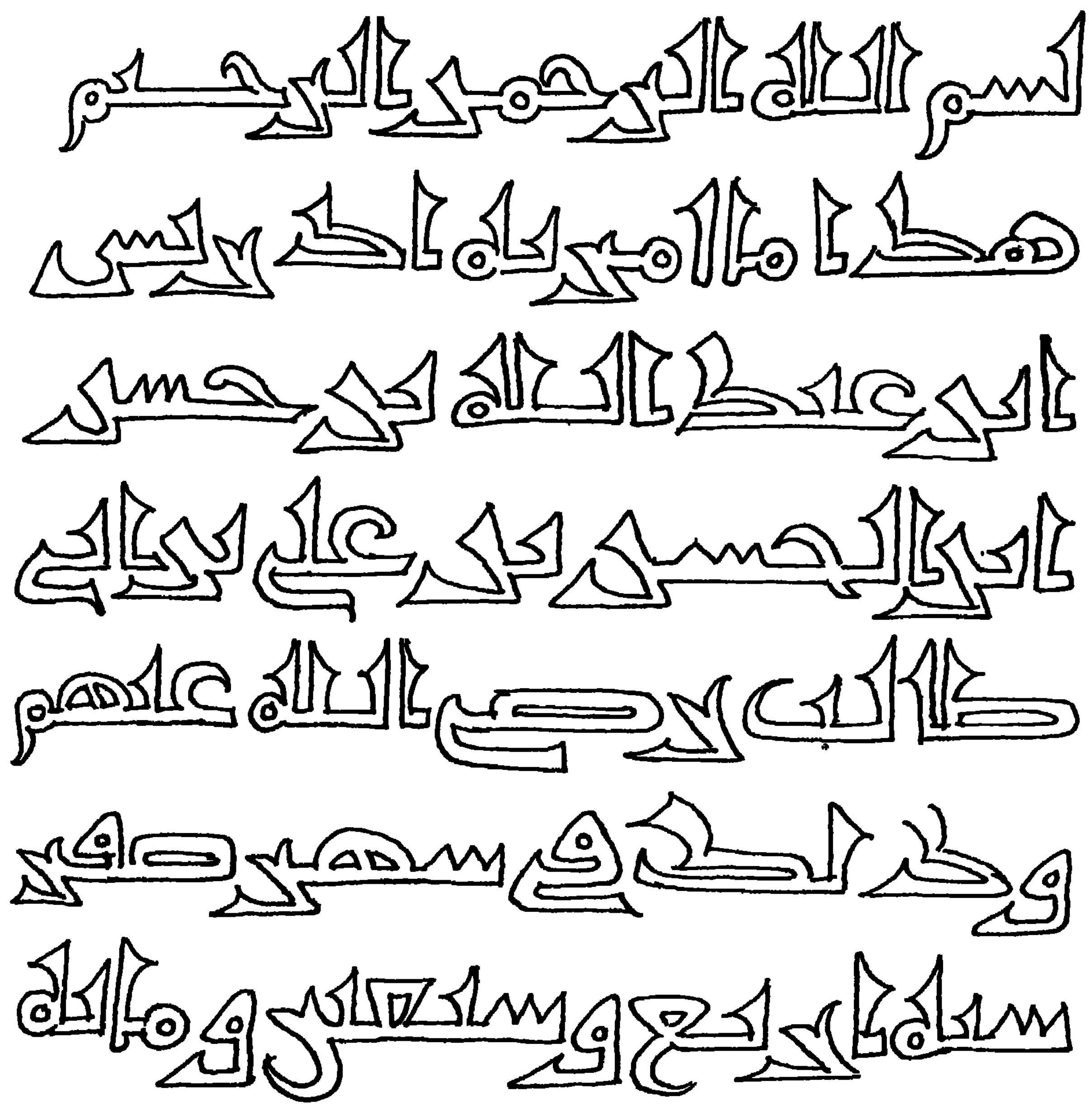
للإسلام... وإلا كان مصيرها مثل بلاد العجم والتركستان وغيرها من البلاد التي أسلمت ولم تتعرّب، وفي الحقيقة أنه تم، بفضل ولاية الأدارسة، القضاء على الدعاوي الباطلة والعقائد الزائفة والنحل والمذاهب الهدّامة، وكان هذا مبدأ توحيد المغرب ومنطلقَ استعرابه، ولولا ما استهدف له الأدارسة من فتن داخلية وخارجية لكان للمغرب الإدريسي شأن غير الذي كان له، ويكفي أن نعرف أن أعظم مركز إسلامي وعربي في إفريقيا كان هو جامع القرويين الذي أسس على عهد الأدارسة.(2)



ضريح إدريس الأكبر بزرهون

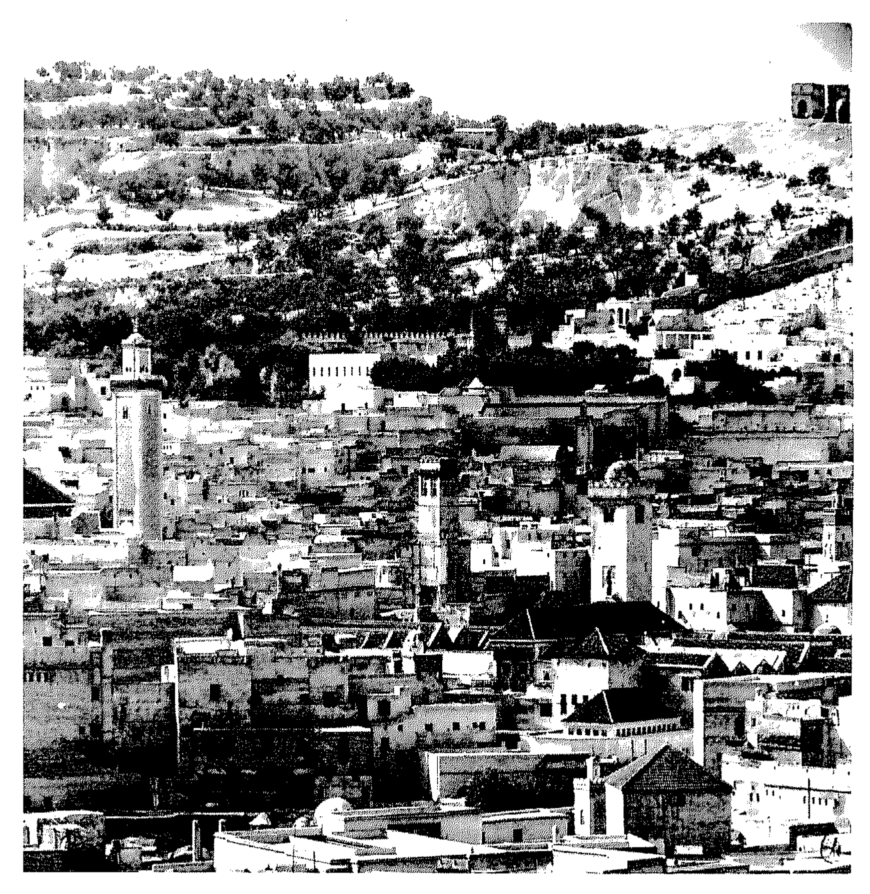
2) ناجي معروف : مدارس ما قبل النظامية، بغداد 1973 ص 3.

ولم يلبث إدريس أن قصد مدينة تلمسان حيث أسلم له المقادة أميرُها محمد بن خزر المغراوي وجميع مَن معه بتلمسان من قبائل زناتة، وهناك شيد الإمام مسجداً في صفر 174 = 790 وصنع فيه منبرا نقش عليه : «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة».



وثيقة تأسيس الأدارسة لمسجد تلمسان / نسخة خاصة

وقد فكر الإمام في إنشاء قاعدة تكون مفترقاً للطرق بين سهول الأطلس وبين تلمسان من جهة، وبين سواحل الريف وصحراء الجنوب من جهة أخرى... وبني فعلاً فيما بين 172 = 174 جانباً منها على الضفة الشرقية من مدينة فاس الحالية...[3]



قلب مدينة فاس حيث تلتقى عدوة الأندلس بعدوة القيروانيين

---

3) يرى ليفي بروفنصال ـ اعتماداً على حجج معقولة أن جانباً من مدينة فاس كان من تأسيس إدريس الأول بينما كان الجانب الثاني من تأسيس إدريس الثاني

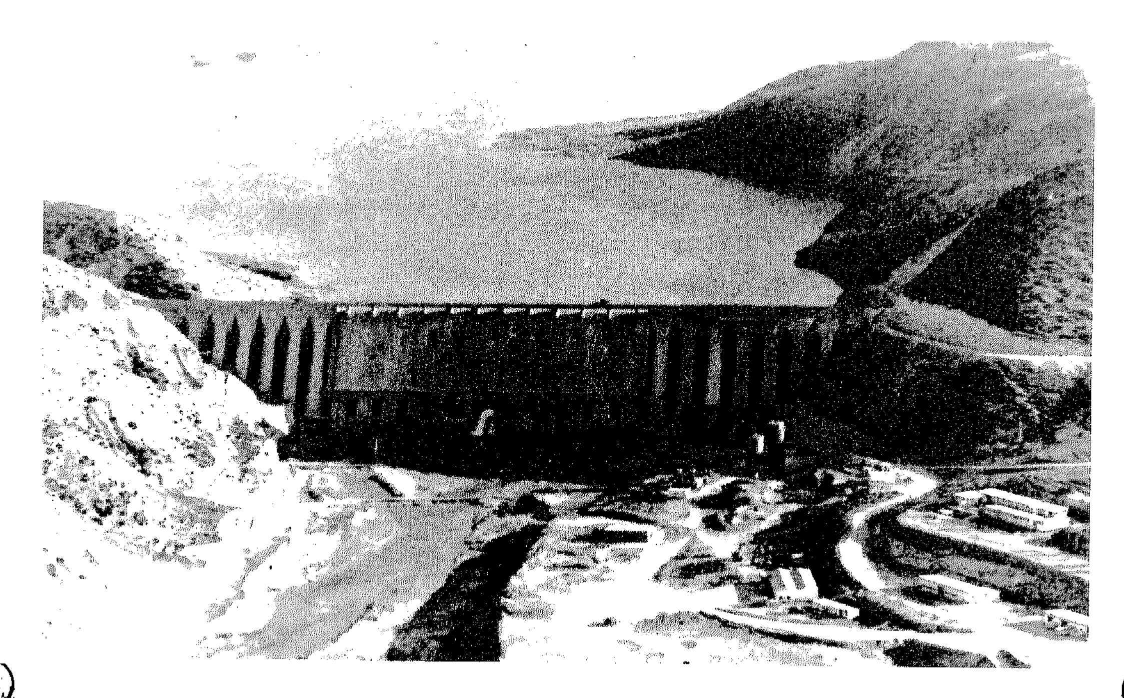
Levi-Provencal : La Fondation de Fès, in Annales de L'Institut d' Etudes Orientales (Faculté des Lettres de L' Université d' Alger) IV 1938, 23-53 Roger le Tourneaux : Fès avant le Protectorat 1949 p. 33.

د. التازي : تاريخ القرويين ج 1 ص 52.

حدود بلاد الأدارسة

ولبحر المغرب أخبار عجيبة فيما قرب منه من عمائر السودان وأقصى أرض المغرب، وقد ذكر ذوو العناية بشأن أخبار العالم أن أرض الحبشة وسائر السودان كلّها مسيرة سبع سنين، وأن أرض مصر جزء واحد من ستين جزءاً من أرض السودان وأن جزءاً من السودان جزء واحد من الأرض كلها، **والأرض مسيرة خمسمائة عام**، ثلثٌ عمران، وثلثٌ براري غير مسكونة، وثلثٌ بحار، **ويتصل أقاصي السودان العراة بآخر بلاد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من أرض المغرب.**

المسعودي : مروج الذهب I، 368



تخليداً لإدريس الأول بنى الملك الحسن الثاني سدّاً يحمل اسمه

حول المؤامرة التي دبّرها هارون الرشيد
للإمام إدريس الأول

...وكان ذلك في خلافة هارون الرشيد أمير المؤمنين، فوصله خبره فغمه ذلك، فشكا ذلك إلى يحيى ابن خالد، فقال له أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين. ثم أرسل إلى سليمان بن جرير الجزيري وكان رجلاً من ربيعة متكلما ممن يرى رأي اليزيدية متعصباً لآل أبي طالب، وكان جلدا شجاعاً أحد شياطين الإنس وكانت له إمامة في اليزيدية، وهوالذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن عبد الحكم حين ناظره في أمر الإمامة، ولذلك قصة طويلة، قال فأرغبه يحيى بن خالد في المال ووعده على نفسه وعن أمير المؤمنين بمواعد عظيمة، ودعاه إلى قتل إدريس، والتطف في أمره، فأجابه إلى ذلك، وأعطاه مالاً جزيلاً ودفع إليه قارورة فيها غالية مسمومة، ووجه معه رجلاً من ثقاته.

فانطلق سليمان مع صاحبه، فلم يزالا يتغلغلان في البلاد حتى وصلا إلى إدريس، وكان إدريس عالماً برياسة سليمان باليزيدية، فلما وصل إليه قال : إنما جئتك بنفسي وحملتها على ما حملتها عليه لمذهبي فيكم أهل البيت، فجئتك لا في حاجة إليك إلاّ لأنصرك بنفسي، فسُرَّ إدريس بقوله، وقبله أحسن قبول، فأحسن نزله وأكرم مثواه وأنس به، فكان سليمان يجلس في مجالس البربر ويُظهرالدعاء إلى ولد رسول الله ﷺ، ويحتج لأهل البيت كاحتجاجه بالعراق. فأعجب ذلك إدريس منه، ومكث عنده مدة، وهو يطلب الغرة فيه ويرتصد الفرصة في أمره، فدخل عليه سليمان ومعه القارورة، فلما انبسط إليه إدريس وأخلى له وجهه، قال له سليمان : جعلني الله فداك، هذه القارورة فيها غالية رفيعة أوصلتها معي، وأعلم أنه ليس ببلدك طيب فجئتك بها، ووضعها بين يديه، ففتحها إدريس وشمها وتخلّق بها... ثم انصرف سليمان إلى صاحبه وقال له : لم قُمْ، قد تم مرادنا لنا، وقد كان أعد فرسين فركباهما، وخرجا يطلبنان النجاة. فلما وصل السم إلى خياشيم إدريس، وتغلغل في دماغه سقط مغشياً عليه لا يعقل، ولا يدري من يختص به من أهله وحاشيته ما شأنه. قال فبعثوا إلى راشد فجاء مسرعاً وتشاغل في معالجته، وتحيّروا في أمره. وقطع سليمان مع صاحبه بلاداً كثيرةً في تلك المّدّة، قيل فبقي في غشيةٍ عامة نهاره وليله، تضرب عروقه حتى مات رضي الله عنه. فتبين لهم أمر سليمان بن جرير، قال فركب راشد في طلبه مع جماعة من أصحابه فأدركهما، فشد عليهما راشد، ففر صاحب سليمان ولم يغن شيئاً، فضرب راشد سليمان ثلاث ضربات بالسيف على وجهه ورأسه، كل ذلك لا يصيب مقتلاً، مع دفع سليمان عن نفسه، وعجز فرس راشد عن إدراكه. فلما رجع عنه راشد، نزل فعصب جراحاته، وسار حتى لحق بالمشرق. قال أبو الحسن النوفلي : فحدثني من رآه بالعراق بعد ذلك مكتع اليد.

عن كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول صفحة 195 ـ 196

ومن تلمسان كان المنطلق نحو آفاقٍ أخرى ثم نحو مصر على ما سنرى عند الحديث عن علاقات الأدارسة بالعباسيين لولا حادث الاغتيال المدبَّر من طرف الخليفة هارون الرشيد والذي استهدف حياة الإمام إدريس الأول في مهل ربيع الثاني 177هـ = 17 يوليه 783م.(4) وقد أجمع المغاربة على عدم الانفضاض من حول الأمل المتبقى لديهم والذي يتمثل في الحدث السعيد الذي كانت تنتظره زوجته السيدة كنزة، لقد أرادت العناية الإلاهية أن يتمّ الحدث يوم الإثنين الثالث من رجب عام 177 هـ = 14 اكتوبر 793م.

ومن تلمسان كان المنطلق نحو آفاقٍ أخرى، ثم نحو مصر لولا حادث الاغتيال المدبَّر من طرف الخليفة هارون الرشيد والذي استهدف حياة الإمام إدريس الأول في مهل ربيع الثاني 177هـ = 17 يوليه 783م. على ما سنرى عند الحديث عن علاقات الأدارسة بالعباسيين)(4).

وقد أجمع المغاربة على عدم الانفضاض من حول الأمل المتبقى لديهم والذي يتمثل في الحدث السعيد الذي كانت تنتظره زوجته السيدة كنزة، لقد أرادت العناية الإلاهية أن يتمّ الحدث يوم الإثنين الثالث من رجب عام 177هـ = 14 اكتوبر 793م.

لقد اكتسب الوليد إدريس الثاني قلوباً تهفو إلى رؤيته يَتبوَّأُ مكانة أبيه، وقد تضافرت جهود المربين الذين كانوا يسهرون على تثقيف الأمير وتدريبه، ولم يكتمل العاشرة من عمره حتىأُخذت له البَيْعة على نفس المنبر الذي بويع عليه والده بمدينة وليلي، وتم ذلك يوم الجمعة مهل شهر ربيع الأول سنة 186 هـ = 10 مارس 802م بالرغم من الدسائس الخارجية التي حيكت ضدّ عقد البيعة..!

---

4) يذكر صاحب كتاب رقم الحلل أن الذي قام باغتيال الإمام إدريس هو إبراهيم بن الأغلب علماً منه بأن الرشيد يغصُّ من مكانة إدريس في المغرب. ص 29.

وقـد وصلت أصـداء هـذه البيعـة إلى أقصى البـلاد، فـورد سنـة 189 = 805 على حـاضرة زرهون زهـاء خمسمـائـة فـارس من وفود العرب من بـلاد إفريقيـة ومن القَيْسيـة والأزد ومـدلـج وبني يحصب، ومن الأندلس مئـات الأسر من الـذين أجلاهم الحكم بن هشـام بن عبـد الرحمن في أعقـاب ثـورة الربض 13 رمضـان 202 = 25 مـارس 818، ولقـد ورد على إدريس عدة وفود من العراق وفارس[5] كذلك...

ثورة الربض

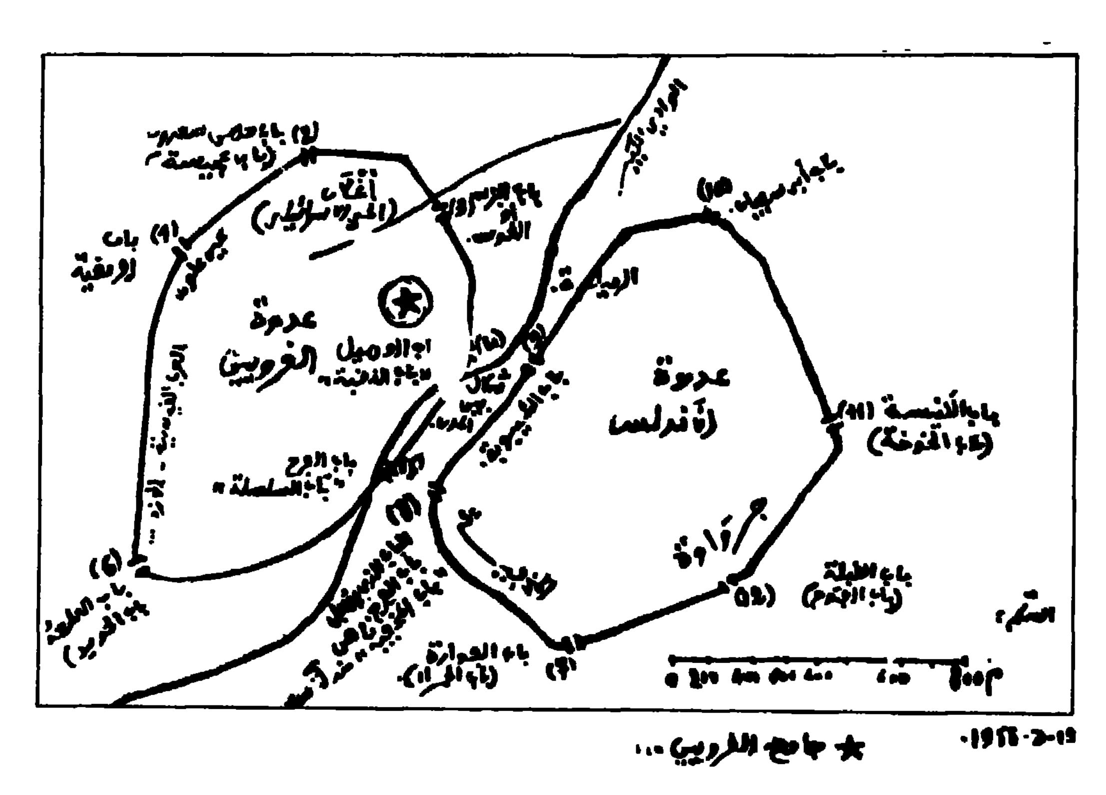
حـدث يـوم 13 رمضـان 202 = 25 مـارس 818 حـادث بسيـط أشعـل نيران الفتنة بين سكان الربض بقرطبة، فقد قتل أحدُ مماليك الامير الحَكم غلامـاً، فغلت مراجل غضب الربضيين وانفجرت براكين أحقادهم على الأمير الـذي كـان لـه معهم سوابق... وهنـا هبُّوا على مملـوك الأمير فقتلـوه وخرجـوا يهتفـون بخلـع الأمير... وتحصّن الأمـويـون وأتبـاعهم بـالقصر... وارتقى الحكم إلى السطـح وأظهر شجـاعـةً نـادرة فقـد دعـا ـ والقتـال على أشـدّه، على قـارورة من العطر فجـاءه بهـا الخـادم فأفرغها على رأسه ولم يملك الخادم نفسه أن سأله : وأيّةُ ساعة طيب هـذه ؟ فقـال له الحكم : أسكت لا أمّ لك، ومن أين يَعرف قاتلُ الحَكم رأسه من رأس غيره ؟».

وقد استخدم دهاءه وذكاءه فدبّر للثوار حيلةً جعلتهم يتراجعون... وهنـا تقفى أثرهم بعنف وأمر بهدم الربض ودكَّه حتى صار مزرعة... وهكـذا توزع أهل الرّبض على أطراف الـدنيـا فنزل منهم فريق بفـاس حيث أقـاموا بـالحي الـذي يحمـل إسم الأنـدلس إلى الآن... واتجـه فريق إلى الأسكنـدريـة قبـل أن ينـزلـوا في جـزيرة كريت حيث أسسوا لهم دولة إسلامية..!

---

5) روض القرطاس، طبعة الرباط ص 51.

وهكذا لم تمض خمس سنوان على «البيعة» حتى شعر الإمام الشابّ بالحاجة إلى بناء قاعدة لسكناه وسكنى خاصته ووجوه دولته تكون أولَ عاصمة إسلامية في المغرب الأَقصى... ولم يكن اختيار الإبن الصالح يقع إلاّ على نفس المكان الذي اختطّ فيه والده بالأَمس قاعدته المرتقبة، وهكذا أنشأ على الضفة الغربية من فاس جانباً آخر... وتم ذلك سنة 192 = 808 بالرغم من الدسائس الخارجية التي دبرت أيضاً لعرقلة تتميم مشروع إدريس الأوّل !



عدوة الأَندلس وعدوة القيروان بفاس

وحتى يشعر القيروانيُّون والأَندلسيون بأنهم في بيتهم ومحيطهم أطلقوا على عدوتَيْ المدينة اسم القَرويين والأَندلس، استحْضاراً لِتلك الأَوطان، على نحو ما فعل أصحاب.الإمام إدريس الأَول عندما أطلقوا اسم

(خَيْبَرْ) على ضاحيةٍ من ضواحي زرهون استحضاراً لخيْبرالتي لا تبعد عن مدينة الرسول.(6)

وقد شكّل وجود فاس بضفتيها الشرقية والغربية مركزاً اقتصادياً ممتازاً ازداد أهميةً بإشرافه على ممر تازة الذي يصل بين الشرق والغرب...

كما عرف المغرب ـ في عهد إدريس الأَصغر نماذج من العملة الوطنية التي سكّت سواء في وليلة أو طنجة أو العالية أو زقور أو تدغة أو تلمسان..(7)

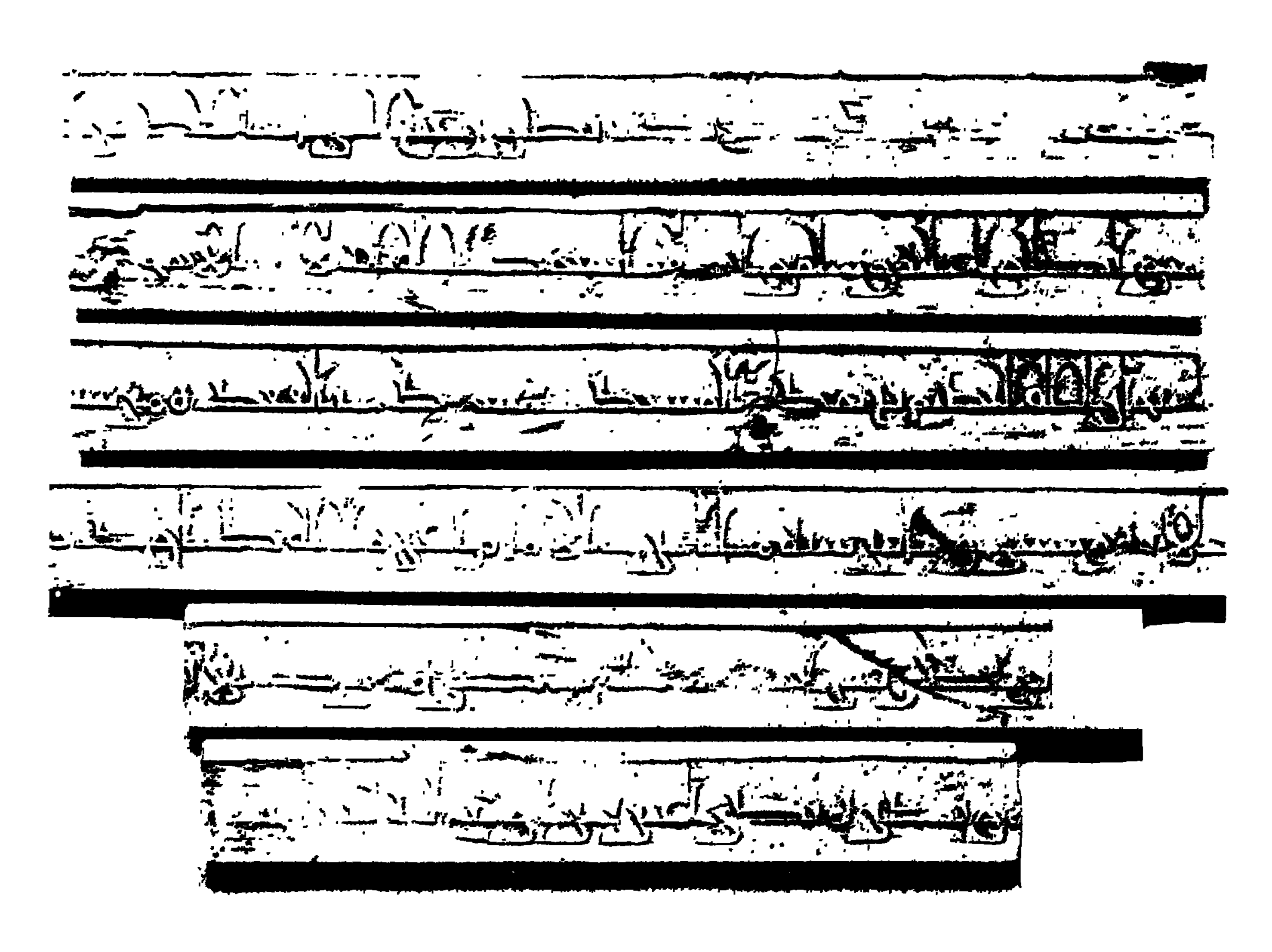
وتوفي المولى إدريس فترك عدة أولادٍ عَهِد من بينهم لمحمد الذي قَسّمَ المغرب بين إخوته بإشارة من جدته كنزة، بينما احتفظ هو بحاضرة فاس.

وقد كانت تلك التجزئة طالع شؤوم على البلاد، فتوالت الاختلافات والاشتباكات...

---

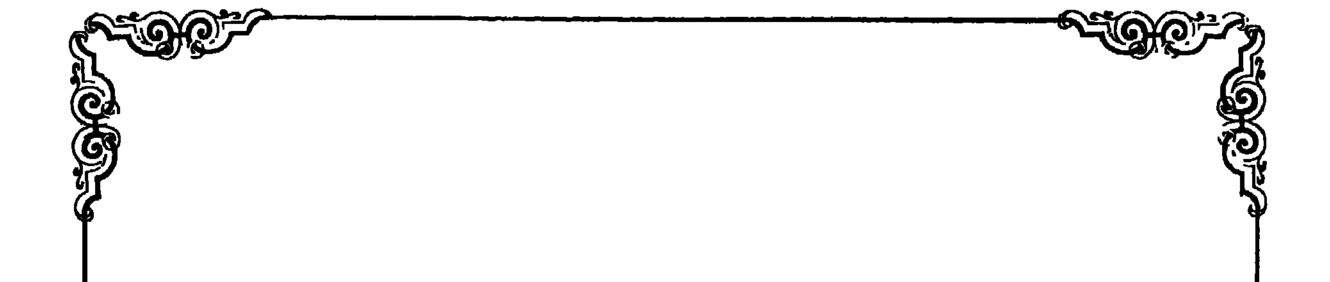
6) سجل المغرب الإسلامي منذ عصوره الأُولى عدداً كبيراً من مثل هذه التوأمات الطريفة، كان منها مدينة البصرة التي بناها الأَمير محمد بن إدريس شمال المغرب استحضاراً للبصرة التي استشهد على مقربة منها الإمام عليّ.... ومن هذه التوأمات : (بغداد) بفجيج شرقيّ المغرب، ومنها (القاهرة) لمدينةٍ بجانب سكساوة، ومنها (المهدية) التي أطلقها عبد المؤمن على رباط الفتح تذكاراً للنّصر العظيم الذي حققه في (المهدية) الشرقية سنة 555 = 1160 ضد النورمانديين، ومنها (طريانة) حارة بطالعة فاس، وهي اسم لحصن إشبيلية في الجنوب الغربي منها ـ التازي : مهدية المولى إسماعيل ثالثة مهديات للمغرب العربي، دعوة الحق، مايه 1963 ـ د. التازي : أقدم توأمةٍ عرفها التاريخ المغربي، مجلة وزارة الممثل الشخصي لجلالة الملك، مايه يونيه 1965 ـ الشيخ المختار السوسي : إيليغ ص 211.

7) دانييل أُوسْطاش : (الجامع في الدّراهم الإدريسية والدّراهم المعاصرة لها) إصدار بنك المغرب ـ الرباط 1970 ـ 1971.



أقدم خط كوفي عثر عليه منقوشاً في لوحة مدفونة بناصية البلاط الذي كان فيه المحراب القديم للقرويين الأولى.

ويرجع تاريخ هذا الخط إلى 263. أي إنه قبل الخط الكوفي المنقوش بمحراب مسجد قرطبة بإحدى وتسعين سنة.



النّص الكامل لما عثر عليه في اللّوحة المدفونة بناصية البلاط الذي كان فيه المحراب القديم للقرويين الأُولى في عهد الأَدارسة :

إن الله وملائكته يصلون على النبيّ، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليما شهد الله أنه لا إله إلا هو سبحان الله العظيم، بني هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتي سنة، مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله وأكرمه وكلأه ونصره نصرا عزيزاً، وفتح له فتحاً مبينا».

وتوجد هذه اللوحة اليوم محفوظة، على طولها (أربعة أمتار وسبعون سانتيما) في متحف فاس..

د. التازي : جامع القرويين، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1972، مجلد أول صفحة 47 - 48 - 52 - 53

وَلّى محمدٌ بن إدريس أخاه القاسم مدينة طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر ومدينة تطوان ومصمودة وما إلى ذلك من البلاد والقبائل...

وَوَلّى أخاه داود بلاد هوارة وبلاد تسول ومكناسة وجبال غياثة وتازة...

وَوَلّى أخاه عيسى على شالة وسلا وأزمور (أزقور ؟) وتامسنا وما إلى ذلك من القبائل.

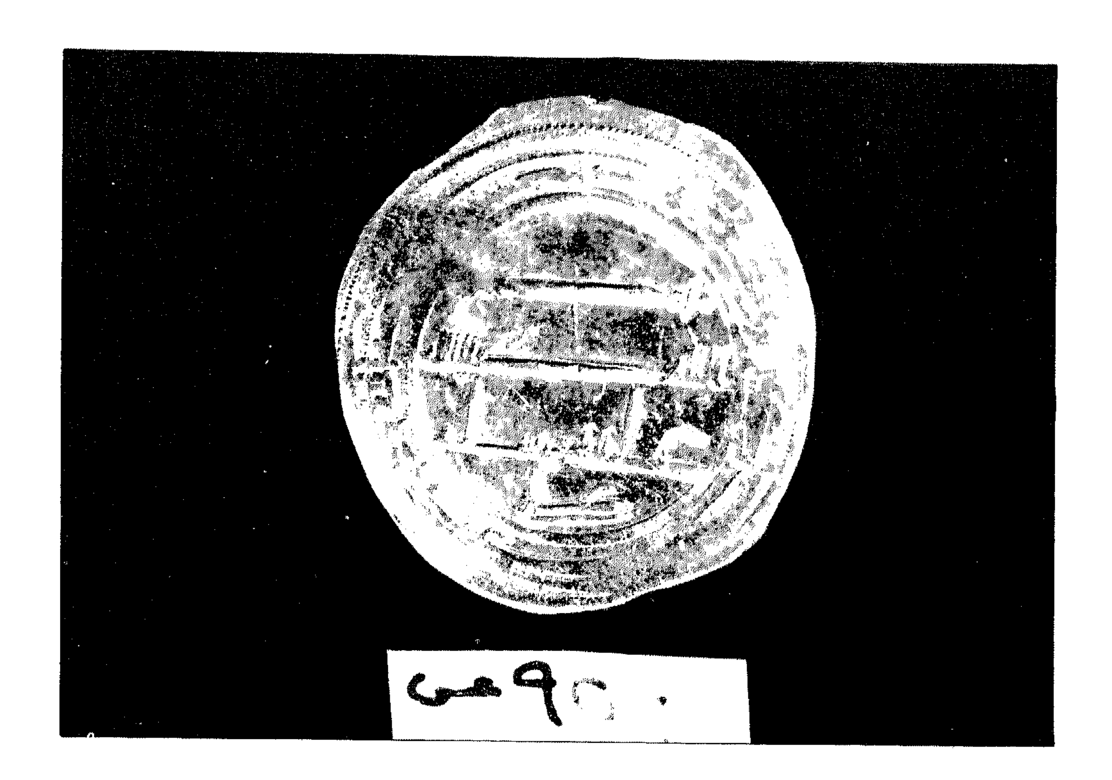
وَوَلّى أخاه يحيى مدينة البصرة ومدينة أصيلا ومدينة العرائش إلى بلاد ورغة...

وَوَلّى أخاه عمر مدينة تيكساس (وتدعه ؟) وبلاد غُمّارة وما والاها...

وَوَلّى أخاه عبد الله مدينة أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة والسوس...

وَوَلّى أخاه حمزة مدينة تلمسان وأعمالها... وأقام هو بمدينة فاس دار ملكهم...

ابن أبي زرع : الأنيس المطرب.





أقدم عملةٍ إدريسية هي التي ضربت في تدغة عام 172 = 789 وقد نقش على وجهها الأَول كلمة لا إلاه إلا / الله وحده / لا شريك له / .. بتدغة سنة اثنتين وسبعين ومائة.
بينما نقش على وجهها الثاني كلمة : محمد رسول / الله صلى الله / عليه وسلم.
على، مما أمر به إدريس بن عبد الله. جاء الحق إلخ...
توجد نسخةٌ واحدة من هذا الدرهم هي التي أثبتناها هنا شاكرين للمتحف العراقي في بغداد تفضله بهذا الرسم...

راجع كتاب الجامع في الدراهم الإدرسية
نقلم دانييل أوسطاش



نماذج من النقود الإدريسية عن كتاب أوسطاش

فاس في حديث أحد أبنائها...

لقد ورد إدريس على عين المكان ليختط شوارع العاصمة وأبوابها وجسورها، وقدّموا للإمام الشاب فأساً بديعةً مصنوعة من ذهبٍ وفضةٍ ليفتح بها أعمال التشييد والبناء... ورفع إدريس يديه إلى الله ضارعاً : «اللهم اجعلها دارَ علمٍ وفقه...».

لقد وضع إدريس الحجرة الأُولى للمدينة ولكأنما وضعها لحيٍّ جامعي دائم الحياة، تعاقب عليها كبار العلماء والفقهاء والأُدباء والأَطباء، وبلغ عدد الكراسي العلمية بها في بعض الأَحيان مائةً وأربعين كرسياً...

وضع إدريس الحجرة الأُولى للمدينة ولَكَأَنما وضعها لمركز ديني ظل على مرّ الزمن قِبلةً للمؤمنين يحجون إليها من مختلف الآفاقِ لتصفيةِ نفوسهم وتبيُّن طريق وِجهتهم... ولكأنما وضعها لقاعدةٍ سياسيةٍ ما انفكت صاحبةَ الحل والعقد في كلّ التطورات الهامة التي شهدتها الدولة، وما انفكّت تُسهم بالحظ الأَوفر في تسيير شؤون البلاد وتدبير أمورها في الداخل والخارج... ولكأنما وضعها لسوقٍ تجارية قصدها الناس بتُحفهم ونفائسهم وراحوا وهم أكثرَ ما يكونون كسباً وغبطة... ولكأنما وضعها لدارِ صناعةٍ تجلّى فيها جمال الذوق وسلامة المزاج.

لقد صاغ الهواةُ محاسنَها في نظمهم ونثرهم، كلٌّ التفت إلى ناحية، وكلٌّ أخذ بناصية، حتى لَيخيل إلى المرء أنه أمام «فاساتٍ» عديدةٍ وليست فاساً واحدة، وحتى بعض الذين روّحوا عن أنفسهم بما خُيل إليهم أنهم نالوا به منها، حتّى أولئك، كانوا يعكسون سُموّ قدرها وعلوّ مقامها، كانوا يشيدون بعُمق مخبرها وجمال مظهرها، أو بطيّها وزيّها، لقد عُني قوم بوفرةِ منابعها ومياهها، وتخللِ عيونها الصافية في المدارج والمنعطفات... وسُحِر قوم بالتميّز البيّن بين فصولها والتدرُّج اللّين بين وداع موسمٍ واستقبال آخر، هي في الشتاء غيرُها في الصيف، وهي في الخريف غيرُها في الربيع، فما تراه في هذه المناسبة من ألوانٍ زاهية، تُعوضه المناسبة الثانية بمفاتنَ غيرها... وقد سُحِر قوم آخرون بما احتضنته المدينة من مباهج الشرقِ والغرب، فعادوا يلتمسون فيها ما ضاع من ليالٍ في بغداد، وأيامٍ في إشبيلية، كلُّ زاويةٍ من زواياها، وكلُّ خليةٍ من خلاياها وجد فيها الهواة مادةً صالحة للحديث، وحتّى المقابر التي تسودها الكآبة، ويغشاها عادةً الشعور بالمصير، فإنها تكون في فاس مدعاةً لجولة ممتعة في تاريخ أولئك الرجالِ الذين زوّدوا هذه المدينة بالرُّوح التي ما انفكت ساريةً فيها عبْر الأَحقاب والدهور.

عن كتاب جامع القرويين للدكتور التازي
طبع بيروت 1972 المجلد الأَول صفحة 45



أسوار البصرة المغربية

مدينة البصرة ومدينة الأَقلام

وبين مدينة تُنَمَّس هذه وبين البصرة دون المرحلة على الظهر، والبصرة هـذه مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع، ولس لها مياه إلا من خـارجهـا من عيون عليها ساتين يسيرة مس شرقيها، ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى إفريقيـة وعيرهـا، ومن غلاتهم القمح والشعير والحـبوب ولهم مس ذلـك الكثير وهي حصبـة كنيرة الخير حسنـة الأَسـواق، والهـواء بهـا صحـح، وبهـا فـوم لهم حظر وميـل إلى السلامة والعلم، ولهم محاسن في خلقهم قـد عمت نسـاءهم ورجـالهم والغـالب عليهم حسن القدود والشطاط واعتـدال الخلق وحمـال الأَطراف... وبين البصرة والمـدينـة المعروفة بالأَفلام نحو 18 مبلا وهي مدينة أحدثها آل إدريس ولهـا سور منعهـا عن موسى ابن العافية...

ابن حوقل : ص 55 المسالك والممالك

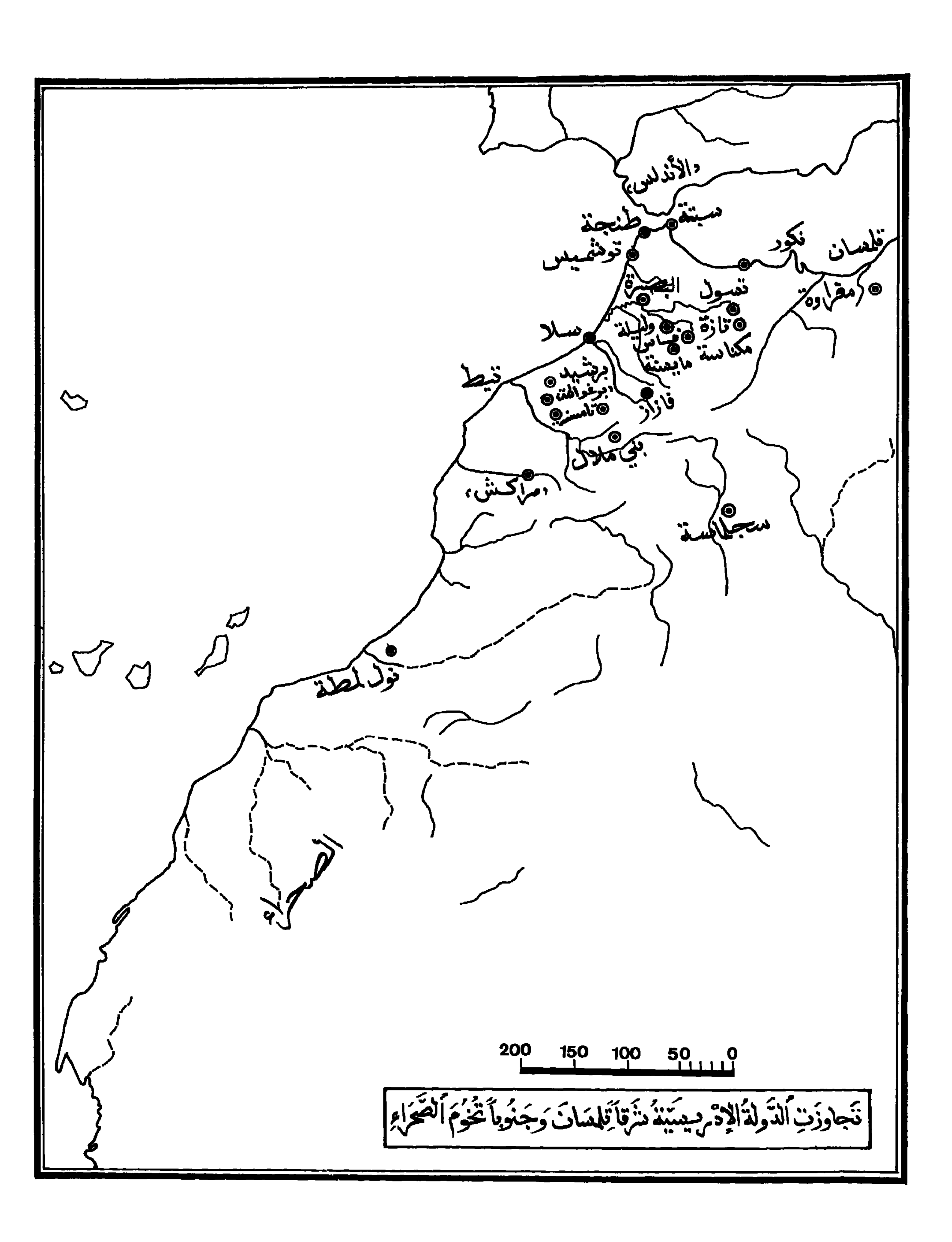
ومع ذلك فقد استمرت الدولة في طريق الإنشاء والتعمير هنا وهناك، وقد شيد الإمام عبد الله بن إدريس الذي عهد إليه بأغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة وسوس... شيَّد مدينة في سفح جبل باني على أبواب الصحراء المغربية حملت إسم تامدلت أو تامدّلت...[8] كما ظهر من بين الملوك الأَدارسة من أنشأ مدينة بالشمال أطلق عليها اسم البصرة، على ما رأينا من محمد بن إدريس.

وقد ظهر من بين الملوك الأَدارسة يحيى بن محمد بن إدريس الذي أشرف عام 245 = 859 على أعمال بناء جامع القرويين التي أسستها فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري والتي أصبحت فيما بعدُ الجامعةَ الكبرى التي استقطبت رجالَ العلم وقادة الفكر مشرقاً ومغرباً....

كما ظهر من بين إدريس آخرون عملوا ـ بالرغم من التدخلات الخارجية ـ على توطيد أسس الدولة الإدريسية في الوقت الذي وجهوا فيه عنايتهم الزائدة إلى بث الدين الإسلامي وتعريب البلاد، وهما أمران عظيمان بالنسبة لبلد يقع في أقصى طرفٍ من ديار العرب والإسلام...

وقد ظل الأُمراء الأَدارسة إلى آخر رمق من حياتهم يدافعون على كيان المغرب واستقلاله بشتى الوسائل التي يملكونها : العسكرية أحياناً والسياسة أحيانا، وهكذا نراهم يلجأون في أواخر أيامهم إلى قلعةٍ شمال المغرب أملاً في إعادة الكرة على الذين كانوا يريدون أن يجعلوا منهم مجرد ولاة لهم، سواء من العُبَيديين بالقيروان أو الأُمويين بالأَندلس... كما نرى آخر أميرٍ منهم، وهو الحسن بن كَنون، لا يتردد في مصانعة هذا الجانب أو ذاك غير مستسلم لليأس من انبعاث دولة إدريس، بل إننا نرى بعض عقبهم يتمكن، بعد مرور نحو ربع قرن من مصرع الأَمير الحسن، سنة 375 = 1018 من إنشاء دولة بني حمود على أنقاض الخلافة الأُموية بالأَندلس على ما سنرى...

8) البكري 308 Hesp. 1930 p. 59



تجاوزت الدولة الإدريسية شرقاً تلمسان وجنوباً تخوم الصحراء

العلاقات الخارجية للدولة الإدريسية

- □ علاقاتهم بالإمارات المجاورة : بنو صالح في نكُّور - بنو عصام بسبتة - بنو مدرار بسجلماسة - علاقاتهم بإمارة الرستميين في تاهرت.
- □ علاقاتهم بالخلافة العباسية.
- □ موقف بغداد من فتح إدريس لتلمسان.
- □ ردُّ فعل العباسيين بعد اتصال إدريس بأهل مصر
- □ اغتيال الإمام إدريس.

العلاقات الخارجية للدولة الإدريسية
دولة الأَدارسة والإمارات المجاورة

وقد كان للدولة الإدريسية ـ على ما احتف بها من ظروف وصروف ـ مواقف معينة على الصعيد الإفريقي، وسياسة محددة إزاء الأَندلس، وسلوكٌ معروفٌ مع خلفاء بغداد، فعلى الصعيد الإفريقي امتدت دولة إدريس الأَول ـ على ما أسلفنا ـ من المحيط إلى قلب المغرب الأَوسط، ولم يستثن من كل تلك المساحات سوى إمارات إسلامية صغيرة : إمارة بني صالح بنكُّور، وبني عصام بسبتة وبني مدرار بسجلماسة، وبني رستم بتاهرت، وسوى إمارة برغواطة بتامسنا التي كانوا يبيِّتون لها..!

وقد تميزت الصلات بين الأَدارسة وبين هذه الإمارات ـ باستثناء برغواطة ـ بأنها كانت على ما تقتضيه تقاليد الجوار نظراً لما عرفت به تلك الإمارات من تمسكٍ بأهداب الإسلام وتحاشيها عن الرغبة في تسلط بعضها على البعض الآخر.

وعندما اطمأن الإمام إدريس على الأَحوال في المغرب الأَقصى أخذ يخطط ليجعل له منفذاً على المشرق، ومن هنا اتّجه نحو تلمسان حيث تم الاتحاد مع أميرها كما أسلفنا.

وهناك في تلمسان وجد الإمام نفسه وجهاً لوجه مع إمارة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي أصبح على رأس أول إمارة استقلت عن بغداد في المغرب الأوسط.

ولم يكن يهم الإمام إدريس الأول من دولة الرستميين أن تبسط نفوذها على المنطقة التي كانت تحكم فيها بقدر ما كان يهمه أن يكون هدفها البعيد مما يتفق وهدفه هو، فقد أصبح بحكم الواقع جاراً لها ولابُدَّ حينئذ من أن يطمئن على رفاق الطريق...

ولهذا فإننا لا نستغرب حديث المؤرخين عن العلاقات الممتازة التي كانت للأدارسة بالرستميين بل عن المثالية الفذة في حسن الجوار، الأمر الذي استدعى تبادل الرأي وتبادل الزيارات بين الإمارتين الشقيقتين منذ أيامهما الأولى.

ويظهر أن قبيلة زناتة التي كانت تتحكم في أطراف المغرب الأوسط آنئذ لم تجد ما يبرر بقاء الدولة الرستمية مع ظهور الدولة الإدريسية، ولذلك نراها تعلن مناوءتها لتلك، باسطةً يدها لهذه، الأمر الذي دفع الرستميين إلى مواجهة الزناتيين أصحاب السيادة في البلاد، وبخاصة منهم بطنا مغراوة ويفرن، بالرغم من الروابط العائلية التي كانت تشدّ بعضهم إلى البعض الآخر، فنحن لا ننسى أن والدة عبد الوهاب بن رستم كانت من زناتة، من بطن بني يفرن كما أن زوجته من لواتة...

لكن بالرغم من وجود هذا العنصر القوي إلى جانب الأدارسة فإنهم ظلوا متشبثين بعهودهم للرستميين منذ البداية، وظلوا مع ذلك يحاولون حمل أنصارهم الزناتيين على تغيير موقفهم لما أنه لم تكن هناك مصلحة للأدارسة في مناهضة جيرانهم الذين كانوا يهيمنون على جلّ المرافق الاقتصادية في البلاد، إضافةً إلى أنهم ـ من ناحية أخرى ـ

حاجز «أمين» بين مملكتهم وبين إمارة الأغالبة عملاء العباسيين الطبيعيين، فكانت لهم الإمارة الرستمية بمثابة ما يسمى اليوم «بالمنطقة الفاصلة» التي تحميهم وتوفر لهم الأمن والاستقرار والعمل بمنأىً عن التهديدات.

وهكذا فعندما لحق الإمام إدريس بتلمسان لم تمس تلك الصلات الوثيقة التي ربطت الأدارسة بالرستميين، وقد ظهر جليا الحفاظ على تلك الوشائج عندما قام الإمام إدريس الثاني بزيارة تلمسان أواخر عام 198 = 814 عاقداً لابن عمه الإمام محمد بن سليمان على تلك الجهة، فإن العاهل الشاب لم يكْتف بما كان والده يتمسك به من التودد للرستميين ولكنه حث على أن تدعم تلك الصلات أكثر من ذي قبل نظراً لما كان يشعر به من اطمئنان لأولئك الذين كانوا يشاركونه أحاسيسه...[1]

☆ ☆ ☆

دولة الأدارسة والخلافة العباسية...

ظهرت بالمغرب منذ النصف الثاني للقرن الهجري الأول حركات تهدف إلى الاستقلال عن الخلافة في المشرق على ما أسلفنا...

وهكذا سمعنا عن إمارة بني صالح في نكور، ساحل البحر المتوسط منذ أيام الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96 = 705 ـ 715)، وسمعنا كذلك عن إمارة بني عصام التي استقلت بحكم سبتة عام 123 = 741، وسمعنا عن

1) استقصا 1 ر 172. التازي : دولة الأدارسة وإمارة الرستميين الكسروية ـ دعوة الحق، يناير 1972.

إمارة بني مدرار الخارجية التي قامت بسجلماسة عام 140 = 757، وسمعنا كذلك عن إمارة بني رستم الخارجية أيضا التي أنشئت في تاهرت عام 160 = 776، وسمعنا عن إمارة البرغواطيين «المارقة» التي أنشئت بتامسنا على شاطئ المحيط الأطلسي...

لكن كلّ هذه الإمارات لم تثر انتباه البلاط العباسي الذي كان يحتفظ بعلاقاته الطيبة مع بعضها، بينما كان يعتبر الآخر طُحْلباً يعوم على سطح الماء، قد يقترب وقد يبتعد، ولكنّه في كل الحالات عديم الطموح !

وعلى العكس من هذا، فقد اهتم بنو العباس أيَّما اهتمام بإمارة سادسة لم تكن نوازع قادتها على نحو نوازع الآخرين، وكان الأمر يتعلق بإمارة أحد بني هاشم إدريس ابن عبد الله الذي نجح في الفرار بنفسه في أعقاب وقعةٍ اصطدم فيها بنو العباس بآل أبي طالب..!

لقد ورد الإمام إدريس على «طنجة» في وقتٍ كان المغاربة يبحثون فيه عن قائدٍ لهم من آل البيت...

وبعد خمس سنوات فقط من وقعة فخّ الشهيرة بالحجاز استطاع فيها هذا اللاجىء السياسي أن ينجح، بمساعدة السكان، في إنشاء ممْلكةٍ مستقلة عن الخلافة، تأخذ طريقها في اتجاه مصر ! «إن تلسمان هي باب إفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار» على ما تردد ذكره في بلاط بني العباس.

لقد فقدت الخلافة بالأمس ولاية الأندلس عندما استطاع عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام أن يفلت من تعقب العباسيين ويلتجىء إلى بلاد المغرب سنة 136 = 753 ليعبر منها المتوسط ويكوّن له في

شبه الجزيرة الأندلسية دولة مستقلة ! لكن ذلك تم في ظروف قلقة كان فيها العباسيون في حالة سطوٍ على كيان بني أُمية، وأما إفلاتُ إدريس فقد تم في عز الدولة واستقرارها ! أما إدريس فهو من آل الإمام علي، ولابد أن مكاسبه ستفوق كلّ تصور...

التجأ عبد الرحمن الذي لقب بالداخل،إلى المغرب الأقصى وأقام حيناً بقبيلة مغيلة مختفيا عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطئ البحر المتوسط ولحق بمليلية وغيرها... وفي أواخر 136 = 753 بعث رسوله بدْر إلى الأندلس للاتصال بأنصار بني أمية... وقد نجح (بدر) في مهمته وعاد يحمل البشرى لعبد الرحمن الذي عبر البحر في ربيع الآخر 138 = 755، ومن ساحل غِساسة عبر عبد الرحمن إلى ألبيرة (Alvira)، إلى (المنكب) حيث أمسى سيد الأندلس... لقد كان من شعره ـ وقد رأى بروض الرصافة ـ نخلة فتية منفردة، فأثار منظرها لديه ذكرى النخيل في المشرق.

تبدَّتْ لنا وسط الرصافة لينةٌ تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

البيان المغرب 2، ص 45 ـ نفح الطيب ج 2، ص 64.

ولا شك أن الذي زاد في قلق الخليفة هارون الرشيد وتخوفه، ما بلغه عن طريق رجال أخباره من أصداء عن تلك الرسالة الخطيرة والهامّة التي بعث بها الإمام إدريس مع وفادة سرية، إلى أهل مصر يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت ويصف فيها التضحيات الغالية التي بذلوها في سبيل حقهم الشرعي ويطالبهم بتأييده ومساندته... لقد اقتنع الخليفة الرشيد أن الأدارسة لايفكرون فقط في فصل المغرب عن دار الخلافة الإسلامية والاكتفاء بزعامة إقليمية، وإنما كانوا يخططون لتوحيد الخلافة كلّها تحت قيادتهم !!

لقد كان الإمام إدريس بعث فعلاً إلى أهل مصر[2] رسالة يقول فيها داعيا إلى الألتفاف حول أهل البيت ما نصه :[3]

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فالحمد لله رب العالمين لا شريك لـه، الحي القيوم والسلام على جميع المرسلين وعلى من اتبعهم وآمن بهم أجمعين، أيها الناس إن الله بعث نبيّه محمداً ﷺ وآله وسلم بالنبوة، وخصه بالرسالة وحباه بالوحي، فصدع بأمر الله وأثبت محبته وأظهر دعوته، وان الله جل ثناؤه خصنا بولايته، وجعل فينا ميراثه ووعده فينا وعدٌ سعى له به، فقبضه إليه محموداً لاحجة لأحد على الله ولا على رسوله ﷺ فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين، فخلفه الله جل ثناؤه بأحسن الخلافة، وغذانا بنعمته صغاراً وأكرمنا بطاعته كباراً وجعلنا الدعاة إلى العدل القائمين بالقسط المجانبين للظلم، ولم نمل، إذ وقع الجور، طرفة عين من نصح نبيّنا والدعاء إلى سبيل ربنا جل ثناؤه، فكان مما خلفته أمته فينا أن سفكوا دماءنا، وانتهكوا حرمتنا وأيتموا صغيرنا وقتلوا كبيرنا وأثكلوا نساءنا وحملونا على الخشب وتهادوا رؤوسنا على الأطباق ! فلم نكل ولم نضعف بل نرى ذلك تحفة

---

2) د. التازي :(الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمغرب) مطبعة المعارف الجديدة، طبعة أولى 1404 = 1984 ص 26.

3) يظهر أن الرسالة بعثت عند معبره إلى تلمسان سنة 174 = 790، للسيد المصري الذي تعرف على إدريس وراشد وأضافهما عنده ورافقهما إلى برقة ولا يبعد أيضاً أن تكون الرسالة موجهة إلى والي مصر نفسه عليّ بن سليمان الهاشمي الذي كان تستّر على الإمام إدريس ومولاه راشد ورفيقهما. ابن أبي زرع روض القرطاس، نشر محمد الهاشمي الفيلالي، المطبعة الوطنية ج 1، ص 11 ـ 13 الرباط.

ادريس بن عبد الله سلام الله عليه في رسالته الى اهل مصر اذ يقول

بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فالحمد لله رب العالمين لا شريك له

الحي القيوم والسلام على جميع المرسلين وعلى من اتبعهم وامن بهم اجمعين

ايها الناس ان الله بعث نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالنبوة وخصه

بالرسالة وحباه بالوحي فصدع بامر الله واثبت حجته واظهر دعوته

وان الله جل ثناؤه خصنا بولايته وجعل فينا ميراثه ووعده فينا وعدا

سيفي له به فقبضه اليه محمودا لا حجة لاحد على الله ولا على رسوله

صلى الله عليه واله وسلم فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين فخلفنا الله جل

ثناؤه باحسن الخلف فغذانا بنعمته صغارا واكرمنا بطاعته كبارا و

جعلنا الدعاة الى العدل القائمين بالقسط المجانبين للظلم ولم نزل اذ وقع

الجور طرفة عين من نصحنا امتنا والدعا الى سبيل ربنا جل ثناؤه فكان

مما خلفته امته فينا ان سفكوا دماءنا واستهلكوا حرمتنا وايتموا صغيرنا

وقتلوا كبيرنا واثكلوا نساءنا وحملونا على الخشب وتهادوا رؤوسنا على

الاطباق فلم نكل ولم نضعف بل نرى ذلك تحفة من ربنا جل ثناؤه وكرامة

اكرمنا بها فمضت بذلك الدهور واشتملت عليه الامور وربى عليها

عليه الصغير وهرم عليه الكبير في كلام طويل ذكره عليه السلام

اللوحة 72 حرف (ب) من المخطوطة اليمنية التي حصل عليها الإيطاليون أثناء اتصالهم باليمين والتي زودني بها في بغداد السنيور أريوسطو بيرنارديني **Ariosto Bernadini**

من ربنا جل ثناؤه وكرامة أكرمنا بها فمضت بذلك الدهور، واستملت ؟ عليه الأمور، وربى منا عليه الصغير وهرم عليه الكبير...»[4]

وكان مما أرعب كذلك هارون الرشيد (170 ـ 193 = 786 ـ 809) التقرير اليائس الذي وصله من عامله على القيروان روح بن حاتم (173 = 790)، وكان الخليفة قد عهد إليه بمقاومة المغرب الإدريسي، كما أن مما فتح عينيه أيضا ما بلغه من الفضل بن روح (177 = 793) من أن الجيش تمرّد عليه عندما أعطاه الأمر بمقاتلة إدريس، وأن الناس في بلاد المغرب يتهيّبون النّيل من حفدة رسول الله !

كان هارون الرشيد يتلقف أخبار المغرب بمرارة زائدة وكان يشعر بأن هناك ضربات قاصمةً تستهدف كيان بني العباس، وعظم الأمر عليه واغتم غمّاً شديداً حتى لقد فكّر في المخاطرة بإرسال جيوش العراق إلى مجاهل هذه البلاد !

لقد اشتهر في التاريخ أن أمبراطورية الخليفة هارون الرشيد كانت تمتد شرقا وغربا بحيث يمكن القول، باصطلاح العصر الحديث، بأن الشمس لا تغرب على راية العباسيين !!

4) الجزء الثاني من سيرة الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم، مخطوط بميلانو مكتبة (Ambrosiana) رقم 15 ص 71 ـ 72، وقد حصلت على صورة من محل الشاهد في المخطوط بمساعدة السفارة الإيطالية ببغداد في أواخر الستينات... روض القرطاس ص 13/11 دكتور أحمد مختار العبادي : المغرب والوحدة الإسلامية : المحاضرة الأولى في حفل افتتاح السنة الأكاديمية لجامعة محمد الخامس، الرباط، يوم 20 اكتوبر 1961، مجلة التربية الوطنية، الرباط، مجلة تطوان د. أحمد مختار العبادي، د. محمد إبراهيم الكتاني : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام للوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب دار الكتاب ـ الدار البيضاء 1964 ـ ص 17 تعليق 2. التازي : تاريخ جامع القرويين طبعة دار الكتاب اللبناني ج، 44/43. التازي : إدريس الأكبر فاتح المغرب : وثيقة تاريخية لم تنشر ولم تعرف لدى الذين كتبوا عنه من المغاربة مجلة المناهل المغربية عدد 11، مارس 1978.

لقد حدث أن أُصيبت أرض العراق بجفافٍ توالى وطال، وظلت البلاد معه تعاني المتاعب والمصاعب، وذات يوم ظهرتْ سحابة كثيفة في سماء بغداد، وفرح النّاس وابتهجوا وصعد الخليفة هارون الرشيد إلى أعلى القصر ليتمتع بمنظر المطر يسقي الأَرض بعد طول غياب ! ولكنه ما لبث أن رأى السحابة تمضي في طريقها من دون أن تتفجر على سماء دجلة ! وحينئذ غضب الخليفة ! وتوجه إلى السحابة يخاطبها ساخراً : «أيتها السحابة، إذهبي أَنَّى شئت فإنَّ خراجك راجعٌ إلي !» يعني أنه مهما يكن المكان الذي ستنتهي إليه السحابة، فإنه تابع لهارون الرشيد وراجع إليه، ولابد أن يصله نصيبه من تلك السحابة، إما محاصيل وإما ضرائب !

وهكذا فإن هارون الرشيد عندما كان يخاطب السحابة بذلك، كان يشعر في قرارة نفسه بحسرة وأسى لأَنه كان يعلم أن هناك أُمةً واحدة من أمم دنياه بقيت خارجة عن نطاق حكمه ومنطقة نفوذه، ولم تكن هذه الأمة غير دولة المغرب الأَقصى التي استطاعت أن توطد لها حكماً في هذه الديار بعيداً عن هيمنة بغداد.[6]

ليست هذه مجرد أُسطورة للتفكُّه والتندر، ولكنها ترتكز على حقائق تاريخية روتْها بطون الكتب، أو لمْ نقرأ في مقدمة ابن خلدون عن لائحة الجهات التي كانت تبعث للخلافة العباسية بجباياتها وزكواتها من فارس وخراسان والسند وهمدان.... إلى الجزيرة وما يليها من أعمال الفُرات إلى فلسطين وبرقة وإفريقية... وليس من كلّ ذلك اسم المغرب ![7]

6) د. التازي : في تاريخ تازة، مجلة دعوة الحق، العدد 241، محرم 1405 = اكتوبر 1984 ص 50.

7) ابن خلدون : المقدمة، دار الكتاب اللبناني 1956 ص 320.

موارد بيت المال ببغداد أيام المامون

«... وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد سجلٌ بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون (تـ 218) من جميع النواحي، نقلته من جراب الدولة :

فارس : سبعة وعشرون ألف ألف درهم، ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة ومن الزّيت الأسود عشرون ألف رطل.

ومن الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات : أربعة وثلاثون ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس، ومن العسل إثنا عشر ألف زق، ومن البُزّاة عشرة ومن الأكسية عشرون.

ومن فلسطين : ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلاثمائة ألف رطل.

ومن برقة ألف ألف درهم مرتين.

ومن إفريقية ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البُسُط مائة وعشرون...».

ابن خلدون : المقدمة، طبعة دار الكتاب اللبناني ص 320 ـ 324.

من أجل كلّ ذلك لم نَستبعد المؤامرةَ الرخيصة التي أوعز بها جعفر البرمكي للخليفة هارون الرشيد، تلك المؤامرة التي استهدفت حياة الإمام إدريس الأكبر... وهكذا فكما أذعن الخليفة بالأمس القريب لفتوى أبي البحتري بالغدر بالإمام يحيى بن عبد الله أخي إدريس، أذعن اليوم للهاجس الأسود الذي خطر ببال الوزير يحيى بن خالد البرمكي !

وكان ذلك الهاجس يتلخص في إنفاذ عميلٍ منتحل للطب متظاهر بالسخط على النظام العباسي في بغداد، كان هدفه اغتيال الإمام إدريس ! وكانت تلك الوسيلة الوحيدة ـ في نظرهم ـ لاجتثاثِ أُصول هذه الدوحة التي كان يتصور هارون الرشيد ظلالها وفروعها وخمائلَها، ولم يخطر ببال الخليفة أنه بمبادرته تلك كان يُلفت أنظار الناس إلى أصالة آل أبي طالب، ويقوي من مكانة إدريس في المغرب ويظهرهم إمام الناس قاطبة على أنهم ضحايا ظلم وغدر...

مكانة البرامكة من هارون الرشيد !

حدّث إبراهيم بن المهدي قال : خلا جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك يوماً في منزله وحضر ندماؤه وكنت فيهم، فتضمخ بالخَلوق ولبس الحرير، وفعل بنا مثل ذلك، وتقدم إلى الحاجب بحفظ الباب إلاّ من عبد الملك بن نجران كاتبه، فوقع في أذن الحاجب عبد الملك دون ابن نجران، ومضى صدرٌ من النهار، وبلغ عبد الملك ابن صالح بن علي الهاشمي عمّ الرشيد مقام جعفر في منزله.. فلما وصل وجه الحاجب إليه أن قد حضر عبد الملك، فقال : يوذن له وهو يظن أنه كاتبه ! فدخل عبد الملك بن صالح في سواده ورُصافيته يرفل، على جلالته وورعه ونبيه قدره وأدبه، فلما رآه جعفر أسودَّ وجهه وعظّم ذلك وارتاع له، وكان عبد الملك لا يشرب النبيذ، وكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه لأنه كان يلتمس منادمته فيأبى عليه، فوقف عبد الملك على ما رأى من جعفر، فدعا غلامه فناوله سواده وعمامته وسيفه، وأقبل حتى وقف على باب المجلس الذي نحن فيه، فسلم وقال : «أشركونا في أمركم وافعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم ! فدنا منه خادم فألبسه الحرير وضمّخه بالخَلُوق، ثم جلس ودعا بطعام أكل ودعا بنبيذ فأتى برطل فشربه، وقال لجعفر : والله ما شربته قط قبل اليوم فليخفف عني ! فدعا برطلية فجعلت بين يديه، وجعل كلما فعل شيئا من ذلك سرى عن جعفر ! فلما أراد الانصراف، قال له جعفر : جعلني الله فداك، قد تطوّلت وساعدت، فسل حاجتك، فما تحيط مقدرتي بمكافأة ما كان منك اليوم، قال : إن في قلب أمير المومنين عليَّ هناة فاسأله الرضا عني، قال : قد رضي عنك أمير المومنين ! قال وعليَّ أربعة آلاف ألف درهم تقضى عني، قال : إنها لك من عندي حاضرة، ولكن اجعلها من مال أمير المومنين، فإنه أنبل لك وأحب إليك ! قال : وإبراهيم ولدي أُحب أن أشد ظهره بصهر من ولد الخلافة، قال : قد زوّجه أمير المومنين ابنته العالية ! قال وأحب أن يخفق على رأسه لواء ! قال : قد ولاّه أمير المؤمنين مصر ! وانصرف عبد الملك ونحن متعجبون من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان، وقلنا لعله أن يجاب إلى ما سأل من الحوائج فكيف التّزويج، هل يُطلق لجعفر أو لغيره ذلك ؟ فلما كان من الغد غدونا موقفنا على باب الرشيد، ودخل جعفر، فلم يلبث أن دعى أبو يوسف القاضي محمد بن الحسن وإبراهيم ابن عبد الملك ابن صالح ثم خرج إبراهيم والألوية بين يديه، وقد خلع عليه، وزُوّج العالية ابنة الرشيد وكتب سجلُه على مصر... قال إبراهيم ابن المهدي : فوالله ما أدرى أيُهم أكرم وأعجب فعلا، ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المساعدةِ وشرب الخمر وغير ذلك وكان رجل جد وتعفف ووقار وناموس، أم إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم، أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر عليه ؟.

عن المستجاد من فعلات الأجواد لأبي علي التنوخي
تحقيق محمد كرد علي ـ 1970 ـ دمشق ص 153 ـ 156.

لقد تم تسميم الإمام ـ على ما قلنا ـ عن طريق قارورة ذكر له أنها تحتوي على عطور بغداد !(8)

وقد ظل اسم سليمان ابن جرير الشماخ الذي قام بعملية تسميم الإمام، مقترناً بكل معاني الضعة والخسة واستمرت ظلاله الكئيبة مخيمةً على الساحة المغربية ردحاً من الزمان.

ونعتقد أنه لولا ذلك التصرف الأهوج الذي أودى بحياة الإمام إدريس لأمكن للأيام أن تعمل على تضميد الجروح التي خلّفها الظلم السياسي الذي لحق السادة الأشراف في مساقط رؤوسهم... ولأمكنها أن تساعد على نسيان القمع الرهيب الذي لقوه في (فخّ) من طرف القائد العسكري محمد ابن سليمان... لأمكن أن نجد الأدارسة في لقاءٍ لاحقٍ مع خلافة بغداد، ولأمكن بالتالي أن لاتتردّى العلاقات بين جناحَيْ المغرب والمشرق، وأن تتكيَّف ـ نتيجةً لذلك ـ الصلات بين الإمارات الحاكمة بديار المغرب والأندلس...

نريد أن نقول : إن إصرار الخلفاء في بغداد على مضايقة الأدارسة كان مما أعطى العلاقات بين الدولة الإدريسية من جهة وبين الإمارات الإفريقية ودولة بني أُمية من جهة أخرى، أعطاها طابعاً خاصاً عرفنا عنه في الفصول السابقة واللاّحقة...



---

8) أهديت لي وأنا سفير لبلادي ببغداد، أُطروحة طريفة كتبها الطالب العراقي : (شعلان) وهي تدور حول «العطور البغدادية» التي صُدرت إلى المغرب كان في جملة ما جاء في تقديمها : «إنها عطور أرجو أن تعتبروا أن بغداد بريئة منها» !!

سفارة هارون الرشيد لدى شارلمان وعلاقتها بالغرب الإسلامي

- سفارة هارون الرشيد لدى شارلمان وعلاقتها بالغرب الإسلامي.
- العداء بين العباسيين في بغداد وبين الأمويين في قرطبة.
- العداء بين المسيحيين في بيزنطة والمسيحيين في روما.
- التقارب البيزنطي الأموي...
- التقارب الفرنجي العباسي...
- استقبال شارلمان للثوار على حكام قرطبة...
- سفارة هارون الرشيد لدى شارلمان الأولى والثانية.
- سفارة الأدارسة لدى شارلمان ؟

سفارة هارون الرشيد لدى شارلمان وعلاقتها بالغرب الإسلامي

وبما أن بلاد المغرب كانت بالنسبة للخلفاء العباسيين داخلةً ضمن مخططهم الرامي للاستيلاء على هذه المنطقة، فإنه من المفيد ـ على ما يبدو لي ـ أن نفتح صفحةً أُخرى لنقرأ فيها عن المحاولات التي كان البلاط العباسي يقوم بها ـ على المستوى الدولي ـ من أجل مساعدته، بالأقل، على تطويق حركات المناهضين له...

ولكي نقف على هذه المحاولات ينبغي أن نستعرض أمامنا صورة للوضع السياسي العالمي في بداية العهد الإدريسي :

لقد ساعد وضع الخليفة المنصور (136 ـ 158 = 574 ـ 775) في الشرق ووضع الملك بيبين[1] (Pépin) (751 ـ 768)، والد شارلمان : في الغرب، ساعد على تجزئة العالم آنئذ إلى «معسكرين» إذا شئت أن تقول، فمن جهةٍ كانت الصلة بين الدولتين المسيحيتين : البيزنطية في القسطنطينية، والفرنجية في رومة، كان عدائية، كما كانت الصلة بين الخلافة العباسية بالشرق وبين الدولة الأُموية بالأندلس ودولة بني إدريس والمغرب عدائية كذلك...

---

1) كان بيبين الملقب بالقصير (Le Bref) حاجباً في الأصل لبلاد الملك شيلديريك (Cheldéric) فلاحظ ضعف الملك وأرسل وفداً إلى البابا يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكا، أهو حامل لقب بدون قوة أو صاحب قوة بدون لقب، ولما كان البابا حينئذ راغباً في قيام دولة قوية في الغرب يعتمد عليها في مقارعة القسطنطينية عاصمة البيزنطيين التي كانت خارجةً عن كنيسة روما فقد أجاب بيبين بما شجعه على خلع شيلديريك، وهكذا انتقل الملك إلى البيت الذي سمى بعد ذلك بالبيت الكارولينجي... (Caroligien). دكتور خدوري : الصلات الدبلوماطيقية بين هارون الرشيد وشارلمان، بغداد 1939، ص 15.

هـذا ومن نـاحيـة أُخرى نجـد أن كـلاً من الـدولتين البيـزنطيـة والعباسية في احتكاكٍ سيـاسي مستمر فقـد ورث العبـاسيون النزاع الـذي كان يصدم في معظم الأَحيان الفرس مع البيزنطيين...[2] كمـا نجـد الأَمر كذلك بالنسبـة لـدول الغرب الإسلامي التي كـانت في حـالـة نزاعٍ سيـاسي دائم مع أُمة الأَفرنج.

- كتاب أمان وصلح أصدره عبد الرحمن الداخل لجيرانه نصارى قشتالة :

بسم الله الرحمن الرحيم كتاب أمان الملك العظيم عبـد الرحمن، للبطـارقـة والرهبـان والأَعيـان والنصـارى والأنـدلسيين أهـل قشتـالـة ومن تبعهم من سـائر البلدان. كتاب أمان وسلام. وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقيـة من الـذهب وعشرة آلاف رطل من الفضـة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغـال، مع ألف درع وألف بيضـة ومثلهـا من الرمـاح، في كل عام إلى خمس سنين.

كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة.

محمـد مـاهر حمـادة : الوثـائق السيـاسيـة والإداريـة في الأَندلس وشمال إفريقية، بيروت 1400 = 1980 ج 7 ص 134.

---

2) بالرغم من ذلك الاحتكاك المتوالي نرى أن العلاقات بين بيزنطة وبغداد عرفت ظروفـاً خف فيهـا التـوتر بين الجـانبين، الأَمر الـذي يفسره تبـادل بعض السفـارات بعـد هـذا التاريخ، وهكذا سجلنا سفـارة راحت للبلاط البيزنطي أيـام جعفر المتوكل بن المعتصم عام 246 كانت برئاسة نصر بن الأَزهر كمـا سجلنـا بعثـة الأُمبراطور قسطنطين السـابع إلى الخليفـة المقتـدر (295 ـ 320) التي استعـد لهـا في بغـداد. وانتظر سفيرهـا في (تكريت) حيث نزل السفير في (دار صاعد) الخاصة بكبار الضيوف. البغـدادي : تـاريخ بغـداد 1، ص 101 ـ الصـابىء رسوم دار الخلافـة : نشر ميخـائيل عواد ص 11 ; EL Hijji : Andalusian Diplomatic Relation p. 123

وهذا ما جعل العباسيين في الشرق يمدون أيدهم للفرنج في أوربا، وجعل الأُمويين في الغرب يمدون أيديهم للبيزنطيين ليعين كلٌ الآخر على الدولة التي تجاوره..!

وفي هذا النطاق بعث (بيبّين) سنة 765 = 148 سفارة إلى بغداد، حيث ردّت بغداد بإرسال بعض السفراء إلى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام وقضوا ردحاً من الزمان في البلاط الفرنجي بمدينة (ميتز Metz) على ماتذكره الروايات الفرنجية...(3)

وفي هذا النطاق أيضا فكر زعماء الثورة ضد عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأُموية بالأندلس، بقيادة سليمان الكلبي (أو الأعرابي) في لقاء شارلمان في ربيع 777م = 160 هـ وكان يومئذ يقيم بلاطه في مدينة بادِرْبورن (Paderborn) من أعمال وِسْتْفاليا (شمال غربي ألمانيا)... فهناك وفد عليه سليمان وصحبه وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن..! وتعهد شارلمان بمعاونة الأعرابي، وبأن يسلمه برشلونة أو سرقسطة... وتضيف الرواية اللاّتينية إلى هذا أنه كان مع الأعرابي ولد ليوسف الفهري حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك إلى إسقاط عبد الرحمن...(4)

---

3) (Reinaud : Invasion des Sarrazins en France p. 89-92
عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس 1، ص 168.

4) أخبار مجموعة ص 113/112 - ابن الأثير ج 6، ص 21/5 - ابن خلدون ج 4 ص 124 ويراجع مؤلف الأُستاذ :
Ramôn Nendndez pidal : la Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (España) Calpe, Madrid 1959 p. 179-180
شكيب أرسلان : الحلل السندسية، طبعة 1936 ج 2، ص 166 - 167 - -131 - 132.



اللقاء الذي تمَّ بين شارلمان وسليمان الأعرابي عام 160 = 777

لقد لبَّى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم، وهكذا بدأت العلائق تنتظم بين الزعماء المتمردين على حكومة قرطبة، وبين الفرنج، وكان أولئك يرمون إلى الاستقلال بما في أيديهم تحت حماية الفرنج، بينماكان هؤلاء يرمون إلى تعضيد روح الثورة والخلاف في إسبانيا الإسلامية، وهكذا ظلت سياسة التدخل في شؤون المسلمين بالجزيرة أصلاً من أُصول السياسة الفرنجية !

ولم تكن الخلافة العباسية في المشرق بعيدةً عن تأييد سياسة التشغيب على مناوئيهم في الغرب الإسلامي، فقد سمعنا عن عبور ابن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي البحرَ من إفريقيا إلى الأَندلس ونزوله بساحل تدمير (مرسية) شرقي الأَندلس ودعائه للخليفة العباسي سنة 161 = 778 وسعْيه إلى التفاهم مع زعيم الثورة في الشمال سليمان

الكلبي (الأعرابي) والتحالف معه...[5] بل أن هذا مما، قد يفسّر لنا عمل بعض المغاربة في صف الجيش العباسي لتطويع المتمردين في آسيا...

وهكذا كانت لشارلمان مع الرشيد مكاتبات و «سفارات» تحدثت عنها طائفةٌ من المصادر التاريخية ولم يكن غريبا أن يجد الخليفة العباسي ـ وهو يبسط حكمه على جمهورٍ كبير من النصارى، وفي أرضه يقع قبر السيد المسيح، وسيلةً للتفاهم مع أمبراطور الفرنج وحامي النصرانية وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة في مقابلة رفق الخليفة برعاياه إضافة إلى «الكون على بال» من البيزنطيين ..!

ومع أن الروايات الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه العلائق بين ملك الفرنج والخليفة العباسي فإن في تفاصيل الرواية الفرنجية وفي طبيعة الحوادث التي كان يجتازها الشرق والغرب يومئذٍ ما يحمل على اعتقاد صحتها...

المغاربة في جيش المعتصم ؟

ورد في رسالة الأفشين (أحد كبار قواد جيش المعتصم)، وكان يُسمّي المجوسية «الدّين الأبيض» رَفَعها إلى المازيار (أمير طبرستان الذي تمرد على الخلافة العباسية) :

«إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير (بابك)، فأما (بابك) فإنه بحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن ولاه فيما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والترك، والعربي بمنزلة الكلب إطرح له كسرةً واضرب رأسه بالدبوس، وهؤلاء الذئاب (المغاربة) إنما هم أكلة رأس، ولا ولاد الشياطين (الترك) فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم، ثم تجول عليهم الخيل جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم».

مجلة آفاق عربية، عدد 5 السنة السادسة ـ يناير 1981

---

5) عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس 1، ص 182 ـ 183.

وقد وقع الغزْو الفرنجي لشمال إسبانيا في عهد الحَكَم بن هشام بين سنتي 181 و 185 أي في أواسط عهد هارون الرشيد 170 - 193، والواقع أن في اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسي وامبراطور الفرنج ما يبرر مثل تلك الاتصالات...

وهكذا بعث الخليفة هارون الرشيد سنة 184 = 801 سفارة هامة إلى إيكس لاشابيل (Aix-La-chapelle) للاجتماع بالأمبراطور شارلمان، اختار كبار أعضائها من شخصية مشرقية وشخصيةإفريقية... كانت الأُولى أحد رجال ثقته من أهل فارس، وكانت الثانية تمثل - على ما يبدو - إبراهيم بن الأَغلب 140 - 196 = 757 - 811 أمير القيروان، وقد تلاقيا في مكان مّا قبل أن يلتحقا فعلاً ببلاط الأمبراطور.

وقد أجمعت المصادر التي تحدثت عن هذه السفارة على أن الهدف من هذه البعثة هو تشجيع شارلمان على خصوم الخليفة الذين يوجدون على حوض البحر المتوسط... وإن في حضور هذه المحادثات من طرف ممثلين عن الأَغالبة الذين عرفوا بمناوأتهم المستمرة للأَدارسة(6) ما يؤكد اهتمام بني العباس بأمر ظهور الدولة الإدريسية بالمغرب.

وقد ذكر أن في جملة الأَخبار التي حملتها السفارة البغدادية إلى الأمبراطور عودة إسحاق ترجمان سفارة شارلمان السابقة، ومعه فيل

---

6) بذل إبراهيم بن الأَغلب مساعيه المتوالية من أجل تعثير مسيرة الأَدارسة عندما شعر بأن مصرع إدريس الأوّل لم يؤثر في مخططهم الرامي للاستئثار بحكم المغرب، وهكذا عمل بإيعاز من بني العباس على الدس لراشد بقصد إرباك بيعة الإمام الصغير... كما دس كذلك لإثارة الفتن عندما علم بعزم إدريس الأَزهر على بناء العاصمة الجديدة بالرغم من تدخل إدريس لديه أن يستكفيه على ناحيته مذكراً له بقرابته من رسول الله. روض القرطاس 1، ص 32 - ابن الخطيب القسم الثالث من كتاب أعمال الأَعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق د. العبادي وذ. الكتاني، ص 14 196.

ضخم أهداه هارون الرشيد لشارلمان، وكان الفيل يحمل اسم «أبي العباس» !

دخول المذهب المالكي إلى الأندلس
في بداية عهد هشام...

أهم حدث سجل في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل (172 ـ 180 = 789 ـ 796 هو دخول المذهب المالكي إلى الأندلس، فقد كانوا يتبعون مذهب الإمام الأوزاعي الشامي (تـ 157) وكان تلميذه في الأندلس الفقيه صعصعة بن سلام الشامي صاحب الصلاة بقرطبة وقاضيها (تـ 192) وهو الذي غرس صحن المسجد بالأشجار...

وقد كان أولَ من أدخل المذهب المالكي في الأندلس أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف **بشطبون**، وكان قد رحل إلى المشرق في بداية عهد هشام بن عبد الرحمن هذا، بعد عام واحد من إمارته، وذهب إلى المدينة حيث أخذ عن مالك، وسأله مالك بن أنس عن هشام فأخبره عن مذاهبه وحسن سيرته، فقال مالك : «ليت الله زيّن موسمنا بمثله !»

ولعلَّ من الطريف أن نعرف أن سفارة هارون الرشيد إلى شارلمان عرفت طريقها إلى الأمبراطور شارلمان عبْر ساحل ديار المغرب لتلتحق ببيزة مصحوبةً بضابطٍ عن والي إفريقية... وبعد هذا رأينا هذا الوالي أيضا يبعث من قرطاج إلى الأمبراطور شارلمان، كهدية، بقَايَا من رفات القديس سيبريان (Syprien). إضافةً إلى هذا نذكر أن الفيل الذي أهداه الخليفة هارون الرشيد إلى الأمبراطور سيق عن طريق البر إلى بلاد المغرب، حيث نقل إلى ميناء بورطو فينيري (Porto Venerė)...[7]

وقد تبعث هذه السفارة المشرقية سفارةً أُخرى عام 191 = 807 وهي التي قدم فيها هارون الرشيد للأمبراطور ساعة مائية رفيعة.[8]

---

7) De mas Latrie : L'Afrique Septentrionale 1886 p. 20

8) خدوري : الصلات الدبلوماطيقية بين هارون الرشيد وشارلمان 1931 ـ بغداد.

وإذْ عرفنا عن المحاولات التي قام بها الشرق الإسلامي للتشويش على الغرب الإسلامي بمساعدة ملوك الفرنج، نفتح صفحة أُخرى من التاريخ الأَندلسي لنقف على جانب من ردود الفعل الصادرة عن الأَندلس، بمساعدة ملوك بيزنطة، وهذه الوثائق ولو أن تاريخها يتأخر زهاء أربع وثلاثين سنة إلا أنها تنص على أن التعاون بين الجانبين البيزنطي والأَندلسي كان قائماً، كما تتحدث ـ وهذا مهم ـ عن النقمة التي تنزل بالعباسيين والدائرة التي تحل عليهم من أهل المغرب.

لقد كانت بيزنطة ـ وهي خصيمة الدولة العباسية في المشرق ـ تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهُمِها مع حكومة قرطبة الإسلامية، إلى بعض النتائج العملية في مقاومة الخصم المشترك، وهكذا ففي سنة 840 = 225 وفد على عبد الرحمن بن الحكم في قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الأمبراطور تيوفيلوس (Theophilus) يدعى قرطيوس، ومعه كتاب وهدايا فاستقبله عبد الرحمن بن الحكم بحفاوة وكان القيصر يتوجه في كتابه إلى أمير الأَندلس باسم الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين الأَوائل من خلفاء بين أُمية وقياصرة بيزنطة، ويشكو مُرَّ الشكوى من أَفعال الخليفة المامون (عبد الله بن هارون) وأخي المعتصم وعبثهما في أراضيه، ويشير إليهما في كتابه بابن مراجل وابن ماردة[9] تحقيراً وازدراء، كما يشكو إليه من استيلاء أبي حفص البلوطي وعصبته الأَندلسية على جزيرة أقريطش (كريت) وهي من أملاكه، ويطلب إليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما، ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق ويستنهض همته لاسترداده! ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية وزوال سلطانها ويعده بنصرته في ذلك المشروع على نحو ما سيصل الخليفة عبد الرحمن الناصر من الأُمراء المغاربة عندما كانوا يغرونه باسترجاع ملك أجداده...

9) ابن مراجل هي أم المامون وماردة أم المعتصم وكلتاهما جارية وأم ولد.

وقد ردّ عبد الرحمن بن الحكم على سفارة تيوفيلوس بمثلها وبعث كاتبه وصديقه الشاعر يحيى بن الحكم البكري الجياني، الملقب بـ «الغَزَال» لجماله، بعثه إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب مصحوبين بكتاب وهدية إلى الأمبراطور... وسار الغَزَال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطي إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية)، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلةٍ بحرية شاقة... وهناك استقبل الأمبراطور السفير الأندلسي بحفاوة، حيث قدم له الغزال كتاب عبد الرحمن وهديته. ويردُّ عبد الرحمن في كتابه على ما جاء في كتاب الأمبراطور تفصيلا، ويشير إلى المامون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة... ونظراً لأهمية الكتاب وصلته بإفريقية والمغرب، بل واعتبارا لكون عبد الرحمن الناصر كان في وقت من الأوقات ملكاً على بلادنا كذلك، فإننا نورد نصه الكامل نقلا عن كتاب «الإسلام في المغرب والأندلس» :(10)

إلى ثيوفلس.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه الذي كان عليهِ مَن مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا، وإرسال

10) ورد هذا الخطاب بنصه كاملا مع تفاصيل السفارة في مخطوطة ابن حيان ص 163/161، ونشر الأستاذ بروفنصال قصة هذه السفارة باللغة الفرنسية، ومعها نص الخطاب بالعربية في فصل خاص من المجلد الثاني عشر من مجموعة (Bizantion) التي تصدر في بروكسيل بعنوان (un échange d'Ambassades entre Cordoue et byzance IXe Siècle) وترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم - سلسلة الألف كتاب كتاب رقم 89. عبد الجليل عبد الرضا الراشد : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس، مطبوعات مكتبة النهضة بالرياض 1389 - 1969 ص 180/179. المقتبس لابن حيان، تحقيق د. محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت 1393 = 1973، ص 434/433.د عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي بيروت 1976 ص 229 الخ،
عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس 1، ص 279 - 280.

قرطيوس رسولك إلينا لتجديد تلك المودة وترتيب تلك المصادقة، وتسأل أن ينعقد بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به، ونتواصل له، ونبعث رسلا من عندنا إليك، ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ودعوت إليه، لتثبّت بقدومهم عليك مودتنا وتتم به صداقتنا وفهمنا ما ذكرته من أمر الخليفة[11] مروان رضي الله عنه، ومن وشائج قرابتنا منه، وآسيت لما استلب من سلطانه، واستبيح من حرمه، واستحل من دمه، وما كان من الفاجر أبي جعفر تربه الله، وجراءته على الله واغتراره به وانتهاكه لمحارمه، والله قد أحصى عليه ذلك، فآسفه منه، فهو لا محالة يجاز به جزاء سعيه.

ثم الذي ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراجل وابن ماردة أخيه بعده من إلحادهما في نحلتهما، وإساءتهما لسيرتهما، ورغبتهما في رعيتهما وشدة وطأتهما عليهم، واستحلالهما دماءهم وأموالهم، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم وانقطاع مدة سلطانهم، وتأذّن الله برد دولتنا، وسلطان آبائنا الذين نبأت عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل وأوجب لهم الإجماع وحازه إليهم البرهان، والذي حضضت عليه من الخروج إليهم وطلب الثأر منهم، ووعدته من نصرتك لنا، بما ينصر الصديق صديقه، ومن يعلم هواه فيه ومودته له، وما عطفت عليه من أمر أبي حفص[12] ومن معه من جالبة بلدنا وغَلَبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك، وخضوعهم لابن ماردة ودخولهم في طاعته، وما سألت من أهل

11) البغدادي : تاريخ بغداد 1، ص 101 ـ الصابي : رسوم دار الخلافة نشر ميخائيل عواد ص 11 ـ ابن الفراء : كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ص 20 ـ 45 ـ 46 ـ 52 ـ 182.

12) الإشارة إلى أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي الذي سار مع طائفة من الأندلسيين ـ في أعقاب وقعة الربض ـ إلى جزيرة اقريطش (كريت) وافتتحوها ونزلوا بها 212 = 827 وأسسوا بها دولة صغيرة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة 350 = 961.

الإنكار لذلك والأنفة منه، وحكيت عن أُمراء إفريقية في نزعهم عن ابن ماردة وخلافهم عليه واستثقالهم لدولته،[13] وكل ما حكيت من ذلك وقصصته في كتابك، فقد قرأناه، وأما ما رغبت من مودتنا، وأحببته من مصادقتنا وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه مما كان عليه أولوك لأَولينا، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا وأن نتمسك من ذلك بما كان عليه سلفنا، وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به ويتماضون عليه، ويحفظه بعضهم لبعض ويشدون أيديهم به.

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله فإن الله تعالى أحب أنْ يكرمه بما انتهك من حرمته، ونكث من بيعته ويسوقه إلى رحمته وأن يشقى بذلك من ركبه منه، ويخزيه ويعذبه عليه.

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر في تعذيبه للعباد، وظلمه وجرأته على الله وانتهاكه لمحارمه، فإن الله قد أخذه بذنبه واستدركه ببغيه وصيره من عذابه ونكاله إلى ما لا انقطاع له ولا تخلص منه جزاء بما اجترح، وكذلك حكم الله في أهل معصيته وأولي الاجتراء والافتراء عليه.

وأما ما ذكرت في أمر الخبيث ابن ماردة وحضضت عليه من الخروج إلى ما قِبَله وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله، وزوال سلطانهم وما حضر من وقت رجوع دولتنا، وأزف من حيث ارتجاع سلطاننا فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ونستنجز موعوده إيانا،

---

13) معلومات جد هامة عن بني الأغلب واستثقالهم للخلفاء في بغداد رغم تظاهرهم بالتبعية لهم وهو ما تعرب عنه بعض تصرفات الأغالبة تجاه بغداد.

ونمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قِبَلنا، من أهل شامنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا وما لم نزل نسمع ونعترف أن النقمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا فيقطع الله دابرهم ويستأصل شافتهم إن شاء الله تعالى.

وأما ما ذكرته من أمر أبي حفص الأندلسي، ومن صار معه من أهل بلدنا في خضوعهم لابن ماردة ودخولهم في طاعته، وما سألت من النظر في أمورهم والإنكار لفعلهم فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم، وليسوا في بلدنا ولا بتربتنا فنغير عليهم، ونكفيك مؤنتهم، وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة لمأمنهم من بلاده، ودنو ناحيتهم من ناحيته، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم، ولا تصعب عن نكايتهم، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك، وإذ ترى مكانهم به من موضعك، وان الله بحوله وقوته وفضله ومنته لرادٌ إلينا سلطاننا بالمشرق، وما كان تحت أيدي آبائنا منه نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا ولك واستقامة لطاعتنا وطاعتك، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما دعوت إليه، وحضضت عليه بما يعرفه الصّديق لصديقه وذو المودة لأهل مودته، ولم يضع لك عندنا ما رعيته من حقنا وقمت به من حفظنا.

وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعن كل ما يحب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحي من قِبَلنا، فاكتبْ إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا، والذي يجب عليك من سائر خبركْ ومتعة عافيتك لننظر فيما ينصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله».

رسالة جوابية من عبد الرحمن الأوسط إلى أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة :

أرسل الأمير عبد الرحمن جيشاً وأسطولاً قويين سنة 235 هـ لمحاربة أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة لشدة عبثهما وأذاهما، فأنكى الجيش بأهل الجزيرتين. فأرسل إليه أهلها يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين فأجابهم بكتاب فيما يلي فصول منه :

أما بعد : فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم وإصابتهم ما أصاب منكم من ذراريكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم، وما أشفيتم عليه من الهلاك، وسألتم التدارك لأمركم. وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة والطاعة والنصيحة للمسلمين والكف عن مكروههم، والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم، ورجونا فيما عوقبتم به صلاحكم وقمعكم عن العود إلى مثل الذي كنتم عليه، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته.

البيان المغرب لابن عذاري 89/2.

وقد أدى السفير الغزال مهمته أحسن أداء، وسحر البلاط البيزنطي بكياسته وظرفه وبديع صفاته، وقد قدّمه الأمبراطور إلى زوجته الأمبراطورة تيودورا (Tyeodora) وإلى ولده الأمير ميخائيل الذي تولى العرش فيما بعد، فسحره الأمير الفتى بلطفه وبارع خلاله، وأعجب بالأمبراطورة التي أنست به واستراحت إلى أحاديثه، على نحو ما تحدث به التاريخ أثناء سفارةٍ لاحقة سنة 230 = 845 قام بها نفس السفير الغَزَال إلى (دار مرشة) كما يسميها الإدريسي أو بلاد المجوس كما

نقرأ عند المؤرخين الآخرين، حيث كانت للغزال مع الملكة (تود) زوجة الملك هوريك مجالس ومقامات كانت نهايةً في الطرافة...[14]

سفارة للأَدارسة لدى شارلمان ؟

لقد ردد بعض المؤلفين الحديث عن وجود سفارة أرسلت من لدن أميرٍ من الأُمراء الأَدارسة بفاس إلى بلاط الأمبراطور شارلمان في بداية القرن التاسع الميلادي : حوالي سنة 184 هجرية.[15]

---

14) حكى أبو الخطاب ابن دحية في كتاب المطرب أن الغزال أرسل إلى بلاد المجوس وهو يقارب الخمسين سنة وقد خطه الشيب، لكنه كان مجمتع الأشد، فسألته زوجته الملك يوماً عن سنه، فقال مداعبا لها : عشرون سنة، فقالت : وما هذا الشيب ؟ فقال : وما تنكرين من هذا ؟ ألم تر قطّ مهراً ينتج وهو أشهب ؟ فأعجبت بقوله..!
وحكى ابن حيان في المقتبس أن الغزال توجه إلى ملك الروم فأعجبه حديثه... وكان يوما جالسا عنده. وإذا بزوجة الملك قد خرجت وهي كالشمس الطالعة فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها... فأنكر الملك ذلك على الغزال وأمر الترجمان بتنبيهه، فقال له الغزال : عرِّفه أنني قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه..! فتزايدت حظوته عند الملك وسرت الملكة بقوله، وذات مرةٍ سألته بواسطة الترجمان - عن السبب الذي دعا المسلمين إلى الختان وتجشّم المكروه فيه وتغيير خلق الله مع خلوّه من الفائدة، فقال للترجمان : عرِّفها أن فيه أكبر الفائدة وذلك أن الغصن إذا زبر قوى واشتد وغلظ، وما دام لا يفعل به ذلك لا يزال ضعيفا ! فضحكت وفطنت لتعريضه !!
المقري : نفح الطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت م 2، ص 255/254.

15) حول مجموع هذه المسألة راجع كُورطوا (C. Courtois) في (Reliques) ص 80 وما بعدها وهو يحيل على كَويزو (Guizot) وبيرتز (Pertz) ودُوم كِينتان (Dom Quentin) الذين شاطروا كورطوا في هذه الأُطروحة، كذلك أُنظر شارلز دو لارُونسيير (Charles de la Roncière) في بحثه بعنوان : البعثة الفرنسية الأُولى بالمغرب، المنشور في : (Le Correspondant 1901) مجلد 171 ص 1136، كذلك تاريخ البحرية ص 81.

وحقيقةً فإن هناك فقرة من «الحوليات الملكية» (Annales Royales) لسنة 801 تشير[16] إلى أنه في الوقت الذي كانت توجد فيه بالبلاط الأمبراطوري لشارلمان، سفارة الخليفة هارون الرشيد، السالفة الذكر، كان يوجد أيضا مبعوث من الأمير إبراهيم الذي ورد من أقصى إفريقيا، من إمارة فوساطو (Fossato).

هناك بعض المؤرخين من أمثال كَويزو (Guizot) وبِّيرتز (Pertz) وشارلز دو لارُونسيير (Ch. de Laroncière) يرون أن في الاستطاعة ترجمة كلمة فوساطو بعبارة فاس... من غير أن يأخذوا بعين الاعتبار إسم «إبراهيم» وهكذا انتهوا إلى أن القصد إلى بعثة واردة عن أمير من أُمراء الأدارسة.

وقد علق جيزيل شوفان (Gesèle Chovin)[17] بأن اسم «إبراهيم» كان ينبغي أن يستوقف أُولئك الأساتذة ويصرفهم عن ذلك التفسير الذي أخذوه بكل سهولة وكلّ استرواح..! فإن العاهل الذي كان يحكم بفاس عام 801م هو إدريس الثاني نجل مولاي إدريس الأول مؤسس الدولة، ولم يكن قد وصل سنّ الرشد بعد، فقد كان ما يزال طفلاً من إحدى عشرة سنة، حيث كانت الحكومة المغربية تساس من لدن راشد، وهكذا فإنه لا يوجد هناك أي تقارب بين اسم «إبراهيم» ولا اسم إدريس ولا راشد... ومن ثمت فإن المقصود، على ما يقول شوفان، هو إبراهيم الأغلبي الذي كان يحكم إفريقية (تونس) آنذاك، ويعترف شوفان بأنه ليس في الاستطاعة، والحالة هذه، تحديد وتعريف مدينة فوساطوم (Fossatum)...

---

16) انظر هذه الحوليات سنة 801 نشر كورْزي (Annales reiii – Kurze, Hanovre 1895, p. 116.) - راجع كورطوا السابق الذكر ص 31.

17) Aperçu sur les relations de la France avec le Maroc dés origines ala fin du Moyen ages. Hesp. 1957 T.X LIV 3e – 4.tr. p. 249 – 298.

وينتهي، بالرغم من هذا الإشكال، إلى أن الظاهر هو قصد إبراهيم الأول رئيس دولة الأغالبة (800 ـ 812)...

ويتلخص شوڤان إلى القول بأن العلاقات بين شارلمان وبين المغاربة لم تتجاوز إفريقية بالمعنى القديم، الأمر الذي يعني أنه لم تكن هناك صلةٌ بين فرنسا والمغرب على ذلك العهد...

ويظهر لي بالرغم من وجاهة ما قاله شوڤان، أنه كانت هناك للأدارسة الأولين طموحات للاتصال بما وراء حدود مملكتهم على ذلك العهد، الأمر الذي يؤكده ما تحدثنا عنه سابقاً من إرسال خطابات إلى حكام مصر لاستجلابهم إليهم...

ولمَ لا يكون القصد باسم «إبراهيم»، كما نطقت به الحوالات الملكية، إلى شخصٍ يحمل هذا الإسم، وربّما كان ذميّاً عهد إليه بالمهمة، أي بالاتصال بشارلمان عن الأدارسة، إسوةً بمن اتصلوا بالأمبراطور من جهات أُخرى..؟ أما عن سن إدريس الثاني فإننا نذكر أن الدولة كانت تسير على شتى الأصعدة دون ما مشكل... ثم لم لا يكون القصد بكلمة فوساطو إلى فاس، سيما ونحن نعلم أنها أي فاس كانت تعني آنذاك دار القَيْطون أي الفُسْطاط.(18)

---

18) ابن تاويت : دولة الرستميين : صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد، مجلد 1 ـ 1957، ص 105 ـ الحسن بن محمد الوزان : وصف إفريقيا، ترجمة د. عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود، ص 566 Heso. 1957 p. 203
جريدة لوموند الباريزية، عدد 8 ـ 9 ـ يونيه 1964.

علاقات المغرب بالعُبيديين

- □ طمع العُبيديين في المغرب أيام الإمام يحيى ابن إدريس.
- □ عقد الصلح ومبادئه.
- □ نفي الإمام يحيى للمهدية !
- □ مقاومة الأمير الحسن لابن أبي العافية.
- □ الالتجاء إلى قلعة حجر النسر.
- □ إنقلاب ابن أبي العافية على العُبيديين وانضمامه للأُمويين..!
- □ مقاومة العُبيديين لانفصال ابن أبي العافية وتدخل الأُمويين...
- □ أَقدم صومعة في العالم الإسلامي هي التي بنيت في فاس من أَخماس غنائم الرُّوم وتوجد إلى الآن !
- □ أخذ أمير فاس (ابن أَبي بكر) وأمير سجلماسة بن واسول أسيرَيْن .
- □ مثولهما، داخل أقفاص خشبية، أمام المعز وتقريعهما..!
- □ وفود رهائن جوهر مع ابن واسول وابن أَبي بكر...
- □ الحسن بن كَنون يفلت من الأُمويين إلى مصر ليعود للمغرب وهو في صف الفاطميين...

علاقات المغرب بالعُبَيْديين

لقد صدَّقت الأيام أن بني إدريس كانوا على حقّ عندما اختاروا بناء علاقتهم مع بني رستم على أساس الودّ وحسن الجوار، فقد كان هؤلاء فعلاً بمثابة «المِجنّ» الذي يحميهم من تطلعات حكام الشرق، وهكذا نرى أنه عندما استسلمت دولة بني الأغلب سنة 296 = 908 أمام المدّ العُبيدي الشيعي الذي استقل عن بني العباس، وعندما اختفت دولة بني رستم من تاهرت... توجه العُبَيديون بأنظارهم إلى دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وطمعوا جَيِّداً في مداخلتهم والقضاء عليهم بطريقةٍ أو بأخرى، وكان في أبرز ما شجع مِن هذه الرغبة فيهم، علمهم أن بني إدريس ينتمون إلى آل البيت وأن وجودهم في المغرب كان نتيجةً لاضطهاد العباسيين للعلويين في المشرق.

وقد أدرك الأدارسة بدورهم مدى قوة ونفوذ عُبَيد الله المهدي مؤسس الدولة الجديدة وقائدها... وكان على رأس مملكة بني إدريس الأمير يحيى ابن إدريس بن عمر بن إدريس، «أعلاهم قدراً وصيتاً وأطيبهم ذكراً ووقتاً وأقواهم سلطاناً وأوسعهم ملكاً وأكثرهم عدلاً، وأغزرهم فضلاً» على ما يقوله المؤرخون، وكان إلى جانب هذا فقيهاً حافظاً للحديث ذا فصاحة وبيان، بطلاً شجاعاً ذا صلاح ووَرعٍ ودين، قال علي النوفلي : كان يشهد مجلس يحيى هذا، العلماء والشعراء، وكان أبو أحمد الشافعي من جلسائه، وممن يتكلم عنده في العلم، وكان ينسخ له عددٌ من الوراقين...[1]

1) ابن أبي زرع : روض القرطاس، طبعة الرباط، ص 115 ـ 116 د. عبد الهادي التازي الإلمام بمن وافق حكمه للمغرب استهلال المائة عام، ص 16. مطبعة فضالة، المحمدية.

ولم يكن غريباً أن يبعث عبيد الله المهدي - مباشرةً بعد تلقبه بالخليفة وأمير المؤمنين أواخر القرن الثالث الهجري : ربيع الثاني 297 = يناير 910 - بقائده على إفريقية مصالة بن حبوس سنة 305 = 917 لتركيع يحيى بن إدريس الذي حاول عبثاً أن يدافع المغيرين على بلاده... وهكذا لم يكن أمامه غير اختيار واحد : عقد الصلح مع العبيديين على أساس مبدأين اثنين : دفع تعويضات مالية من جهة، والكتابة بالبَيْعة إلى عُبَيْد الله من جهة أخرى !!

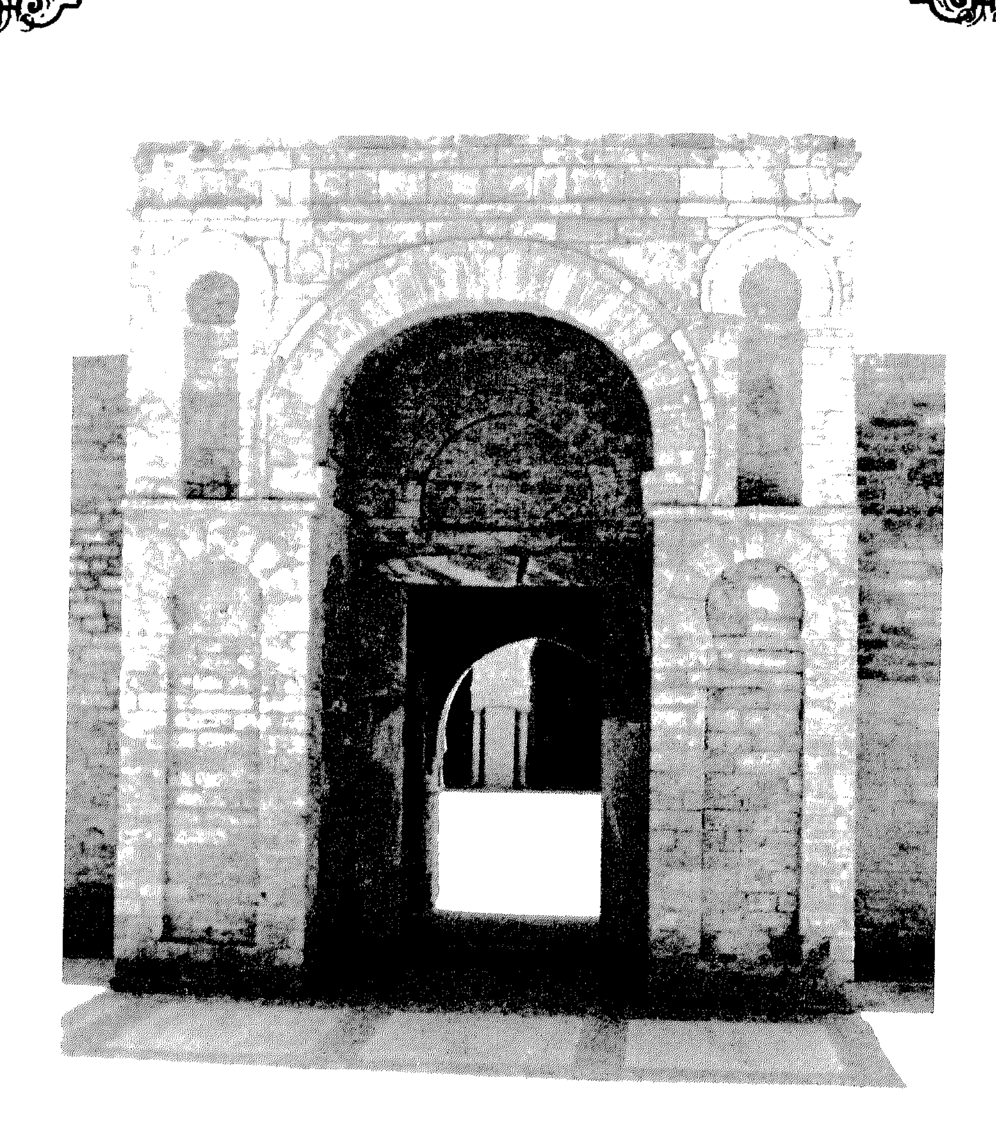
وقد كان في صدر ما تحقق نتيجةً لهذا الصلح، أن استجاب والي المدينة سنة 307 = 919 لرغبة الفقهاء والعلماء في نقل الخطبة إلى جامع القرويين عوضاً عن مسجد الشُّرفاء، وهكذا صنع الوالي «المنبر» الذي ترددت على عتباته دعوة العُبيديين لأَول مرة في تاريخ مدينة فاس !(2)

ويتأكد أن تخوّفِ العُبيديين من الأَدارسة كان من الدَّرجة بحيث طغى على ثقتهم في مصالحة الأَمير يحيى - وهو على ما عرفنا - لقد كانوا يريدون - أكثر من دفع الأَتاوات وأكثر من عقد البيعات - أن يستولوا على العاصمة فاس ! وبهذا نفسر عودة القائد مصالة من جديد للمغرب، ولَمّا تمض خمس سنوات على مقْدمه الأَول، ليختلق ما يبرر له إقصاء الإمام يحيى عن فاس وتولية ريحان المكناسي عليها !

---

2) كنت في تأليفي عن جامع القرويين استظهرتُ أن سبب نقل الخطبة من مسجد الأَدارسة إلى مسجد القرويين هو فقط سعة هذا الجامع وضيق مسجد الشرفاء، ويتأكد لدى اليوم أن الباعث كان سياسياً صرفاً.

الجزنائي : زهرة الآس، طبعة الجزائر ص 35 - 36، د. التازي : تاريخ القرويين ج 1، 49 - 58.



المهدية

وأما المهدية فمدينة كبيرة أحدثها المهدي بالله وسماها بهذا الإسم، وهي في نحر البحر وتحول إليها من رقادة القيروان في سنة 308، وهي من القيروان على مرحلتين فرضة لما والاها من البلاد، كثيرة التجارة حسنة السور منيعة، وذلك أن لها سوراً من حجارة ولها بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبه ولا نظير... كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور حسنة الحمامات والخانات طيبة الداخل حسنة الخارج.

ابن حوقل : المسالك والممالك ص 49/48.

وبالرغم من المصير المحزن الذي استهدف له يحيى حيث رأينا العُبيديين ينكبونه قبل أن يدركه أجله في المهدية، بالرغم من ذلك، فإن بني إدريس لم يرضوا بالاستسلام حيث قام فيهم الأمير الحسن (المعروف بالحجام) بن محمد ابن القاسم ابن إدريس، بطرد ريحان عميل مصالة بل والتصدي سنة 311 = 923 لموسى ابن أبي العافية الذي كان قد أصبح محلّ ثقة مصالة، حيث هزمه الحسن شر هزيمة... وكالأمير يحيى، فإن الحسن ذهب ضحية دفاعه عن استقلال مملكته... وهكذا احتلّ ابن آبي العافية مكانه بفاس سنة 331 = 925 وكذا تازة وطنجة والبصرة ! وهنا تقلّص ملك الأدارسة، ومع ذلك فإنهم لم ييأسوا وسلكوا بأجمعهم إلى قلعة حَجَر النسر، جاعلين منها قاعدتهم، ومتربصين الفرصة...

انقلاب ابن أبي العافية على العُبيديين !

وقد أُصيب العُبيديون بخيبةٍ مريرة عندما بلغهم أن عميلهم موسى ابن أبي العافية الذي استعملوه لضرب مملكة بني إدريس وتطويع المغرب للعُبيديين قد انقلب إلى مبايعة أمير المؤمنين الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله صاحب الأندلس..![3] ولذلك نراهم يشنّونها

3) كان عبد الرحمن أول من تسمى بأمير المؤمنين وتلقب بلقب الخلفاء على ما سنرى دامت أيامه نحواً من خمسين سنة، كان كثيرا الجهاد بنفسه حتى أوطأ عساكر المسلمين في بلاد الأفرنج ما لم يطأه أحد في أيام سالفيه، ووردت عليه السفارات والهدايا من معظم جهات الدنيا : روما، القسطنطينية وقد خلق، بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي، وكان من تسامحه أن دعا إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين، كان يقظاً صارماً. اتّصل به أن ابنه عبد الملك مَتَّ نفسه إلى الخِلافة لما جعل ولاية العهد لأخيه الحكم، وتبعه قوم، فقبض عليهم وقتل الجميع سنة 339 = 951.
العبر 4، 137 ـ 144 ـ روض القرطاس ص 128 تعليق 1.

حرباً شعواء على ابن أبي العافيـة... قاتلوه أواخر أيام عُبَيْد الله سنـة 321 = 933 ثم أيام أبي القاسم سنـة 323 = 935 بقصد إخضاع المغرب أمام نفوذهم، وكان يساعدهم أحياناً في كل تلك الحروب ضد ابن أبي العافية، بعض بني إدريس الذين ذاقوا الأمرَّين من قمعه وظلمه !!

وقد تمكن القائد ميسور الذي أرسل سنة 322 = 934 من قبل القائم بأمر الله أبي القاسم، تمكّن من قهر الأمير أحمد بن أبي بكر عامِل موسى ابن أبي العافية على مدينـة فاس، بعد حصارها المحكم... وبالرغم من تقدم العامل بالهدايا العظيمة والمال الجسيم للقائد ميسور فإنه لم يرقّ من حاله ! وبعث به للمهدية حيث بقي أسيراً إلى عام 341 = 952.

وقد قبل أهل فاس بعد هذا أن يكتبوا ببيعتهم إلى أبي القاسم... وأن ينقشوا اسمه في سكّتهم ويخطبوا له على منابرهم، وإضافةً إلى هذا فقد صالحوا القائد ميسور على أن أعطوه ستة آلاف دينار كما أعطوه إقطاعاً ولبوداً وقرباً للماء وأثاثاً، ولكنهم لم يقبلوا أن يُفرض عليهم عامل غير المقدم حسن بن قاسم اللواتي الذي وقع اختيارهم عليه...(4)

وفي الوقت الذي صالحت فاس حكام إفريقية نرى أن الأدارسة الذين كانوا تطوعوا في الحروب الجارية ضد ابن أبي العافيـة... والذين استرجعوا من جديد أكثر ما كان بيد موسى بن أبي العافيـة... نراهم يصالحون بدورهم العُبَيـديين ويعِدون بالقيام بالدعوة إلى أبي القاسم محمد القائم بأمر الله... وكان ممن تولى رئاسة ذلك فيهم الأمير قاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بقنُّون الذي اتخذ من (حَجَر النسر) مسكناً له...

بيد أن هذا النصر الذي حقَّقه العُبَيـديون لم يلبث أن تعرض للخطر مراراً وتكراراً عندما كانت جيوش عبد الرحمن الناصر تنطلق من

---

4) روض القرطاس، طبعة الرباط، 1، 124 ـ 125.

قاعدتها سبتة لتلحق أفدح الأضرار بالعُبيديين وحلفائهم الأدارسة كذلك، وإذا كان أولئك في إفريقية يملكون قوة الصمود فإن القاسم كَنون، وقلعته على مرمى حجرة من الأمويين، أرغم سنة 332 = 943 على مصالحة عبد الرحمن الناصر...

ويظهر أن الأمير أبا العيش أحمد الملقب بالفاضل بن القاسم كَنون الذي تولّى بعد وفاة والده سنة 337 = 949، والذي كان حافظاً للسِّيَر عالماً بتواريخ الملوك وأيامِ الناس وأنسابِ القبائل، كان معجباً بأمير المؤمنين الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، فقد كانت أخبار جهاده في النصارى ببلاد الأفرنج متداولةً بين الناس إضافةً إلى الضغط الذي مارسه عبد الرحمن الناصر على الأمير أبي العيش للتمكن من طنجة وسبتة،[5] لأجل كل ذلك نراه يجدد دعوة والده لمقاطعة العُبَيدين في جميع بلاده والتشيع لبني مروان مكتفياً بالبصرة المغربية قاعدة له.

ولما لم تكن هذه الأحداث مما يروق العُبيديين فقد جهز المعز لدين الله أبو تميم معد ابن إسماعيل جيشاً عظيماً جعل عليه سنة 347 = 958 قائده جوهر الرُّومي الصقلي الذي التحم في حرب ضارية بيعلي اليفرني أمير بني يفرن وحليف الناصر في بلاد العدوة... وانتهى الالتحام في تاهرت إلى تحقيق نصرٍ آخر في سجلماسة حيث قضى جوهر على محمد بن الفتح بن مدرار الخارجي الصفري الذي ادعى الخلافة هو الآخر وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله وضرب السكّة ونقش عليها اسمه...[6]

ومن هناك إلى العاصمة فاس التي قبض فيها من جديد على أحمد ابن أبي بكر الزناتي أميرها من قبل الناصر الأموي، ودخل جوهر

---

5) القرطاس، طبعة الرباط 1، ص 129.

6) روض القرطاس، طبعة الرباط، 1، 133.

المدينة ضحوة يوم الخميس 20 رمضان 349 = 13 نونبر 960 بعد أن نكبتْ المدينة في عدد من أشياخها وحماتها ومعالمها... وبعد أن استمع بآذانه إلى اسم العُبَيديين يتردد على منبر جامع القرويين الذي صنعه العُبَيديون منذ 307 = 919، وسار، بعد فاس، يتقفى آثار أنصار بني مروان قبل أن يعود إلى سيده المعز لدين الله وبصحبته أمير فاس أحمد ابن أَبي بكر الزناتي وأمير سجلماسة محمد بن واسول مع مساعِديهما الأَقربين، داخل أقفاص من خشب، على ظهور الجمال وعلى رؤوسهم قلانس من لبد مستطيلة منبَّتة بالقرون حيث طيف بهم في أسواق القيروان قبل أن يركعوا أمام المعز لدين الله في المهدية..!

إن من المفيد بالنسبة للذين يتتبعون تفاصيلَ العلاقات بين المغرب والعُبيديين أن يرجعوا أيضا إلى المصادر الشيعية التي تتحدث عن تلك الصلات... ولا نرى أكثر دقةً لأَداء صورة عن بعض تلك الصّلات من أن نورد هنا الإفادات المعاصرة التي وردت في كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان بن محمد (تـ 363). حول هذا الموضوع :[7]

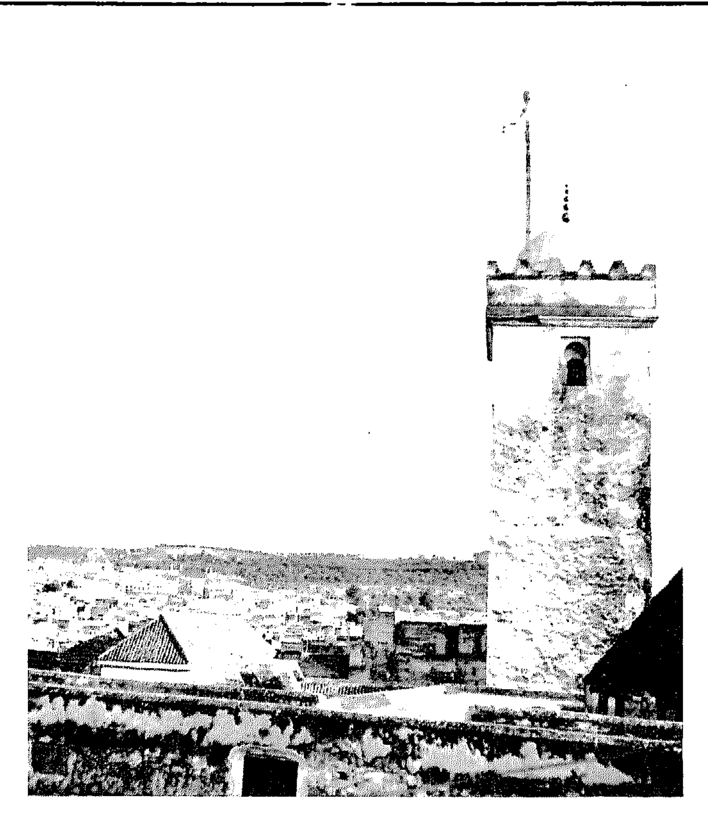
قال : وذكر (ابن المعز لدين الله) ﷺ[8] أحمدَ بنَ بكر المتغلب بإحدى مدينتي فاس[9] (322 = 934) وما كان منه قديماً من ذلك إلى أن

---

7) نشر الكتاب بتحقيق الأَساتذة : الحبيب الفقى، إبراهيم شبّوح، محمد اليعلاوي، نشر الجامعة التونسية : كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1978 ص 385 ـ 458 ـ 483 ـ 491.

8) هكذا يسترضون عن أيمَّتهم !!

9) هو أحمد بن أبي بكر بن سهل الجذامي أمير فاس للناصر الأُموي، أُسر مرة أُولى سنة 322 = 934 في مستهلّ مدة القائم العُبيدي أسرهُ ميسور الفتى وبعث به إلى إفريقية، وكان أميراً على عدوة القرويين في مدينة فاس حسب ما يقوله ابن حيان في المقتبس وهو الذي يروي خبره مع ميسور الفتى في رسالة بعث بها موسى بن أبي العافية وهو «وليّه القائم بدعوته» إلى عبد الرحمن الناصر على ما سنرى في العلاقات المغربية الأَندلسية، وتذكره المصادر الشيعية باسم (بكر) بينما يسمّى في مصادرنا بأبي بكر...



جامور منارة القرويين
خمس تفاحات تختم بهلال يعلوه سيف الإمام إدريس مائلاً لِجهة القبلة

أقدم صومعة من نوعها في العالم الإسلامي كلّه

هي التي بُنيت في فاس **من أخماس غنائم الرُّوم** وتوجد إلى الآن ! «...فكتب (أحمد بن أبى بكر الزناتي) إلى أمير المؤمنين يستأدنه في إصلاح مسجد القرويين وإتقانه والزيادة فيه، فأذِن له بذلك، وبعث له بمال كثير من أخماس غنائم الروم، وأمره أن يصرفه في بنائها فأصلح جامع القرويين وزاد فيها من ناحية المشرق وناحية المغرب والجوف، وهدم صومعته القديمة التي كانت فوق العنزه وبنى الصومعة التي بها الآن... وجعل بابها من جهه القبلة وكتب عليها في مربعة بالجص وحشّاه باللازورد :

«بسم الله الرحمن الرحيم الملك الواحد القهار، هذا ما أمر به أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي سعيد عثمان بن سعيد الزناتي هداه الله ووفقه، ابتغاء ثواب الله تعالى وجزيل إحسانه». وابتدأ العمل في هذه الصومعة في يوم الاثنين غرة رجب من سنة **أربع وأربعين وثلاثمائة**، وفرغ من بنائها ونشييدها في شهر ربيع الآخر سنة **خمس وأربعين وثلاثمائة...** وركّب في أعلى المنار خمس تفاحات مموهةَ بالذهب بهلال يعلوه سيف الإمام إدريس بن إدريس الذي بَنَى المدينة...

د. التازي : جامع القرويين 1 , ص 56 ـ 57

أمكن الله (عز وجل) القائم بأمر الله ﷺ منه، وأُتِيَ به أَسيراً إليه فأمر باعتقاله فاعتقل باقي مدة القائم ﷺ، ثم منَّ عليه المنصور - عم (عليه السلام) - وأطلق سبيلَه فعاد إلى تغلّبه وفسقه، وخلع طاعة الأَئمة من عنقه، ودعا إلى الفَسَقة بني أُمية، وأظهر اللّعن على منبره على الأئمة لعنه الله وأخزاه، وخرجت عساكر المعز ﷺ إلى الصّقع الذي هو به فأجاب كلٌّ من فيه وأَناب إلى الطاعات سواه، فإنّه أصرّ وتمادى على غيِّه وأحاطت العساكر المؤيدة وجنود الله ووليّه به.

قال المعز ﷺ يوماً وقد ذكره وهو في هذا الحال : لقد رأيت البارحة عدوّ الله وكأني أُتيت به فأمرت بقتله، فجعل يسترحمني، فقلت : والله لو وجدتك تحت أستار الكعبة لم أفلتْك ولقتلتك ! فجعل يراجعني كالمحتج عليَّ في قولي هذا ويقول : وما يوجب قتلي تحت أستار الكعبة ؟ فقلت : أقل ما يوجب، مراجعتك أَياي هذه ! فأسمع قائلاً يقول من خلفي ولم أره : أحسنت والله، أصبت أصاب الله بك المراشد ! والله مراجعته إياك توجب قتله لعنه الله ! فالتفتُّ فإذا الذي يقول ذلك المنصور بالله رضي الله عنه، فلم يكن بين هذا اليوم الذي حدثنا بهذا الحديث فيه وبين اليوم الذي فتح الله فيه فاس عليه وأقدره على اللّعين ابن بكر وأخذه أسيراً ألاَّ أَقلُّ من عشرة أَيام...

المعزّ يعاتب ابن أبي بكر وابن واسول !

قال القاضي النعمان : وكان هذا العبد (جوهر) قد أمكنه الله من محمد بن واسول المدعي إمامة المسلمين والمتسمّى بأمير المؤمنين، ومن ابن بكر صاحب مدينة فاس الغامط نعمته، الكافر إحسانه وكانا

يومئذ معتقلين في سقيفة القصر، وكان وصولهما في آخر شعبان،[10] وظن الناس أن سيقتلا إذا وصلا. فلما أُبقيا قيل : إنهما يوم الفطر يقتلان، فلما انصرف ﷺ ودخل إلى دَاخل قصره، أحضرهما إليه، فقال لهما : أيهما كان أحسن لكما ؟ أن تكونا اليوم في مثل حالكما هذه بمعصيتكما وعداوتكما، أو تكونا اليوم في جملة أوليائنا ومن أَئتمَّ بنا، فتقضيان فرض ربكما معنا، أو حيث كنتما على طاعتنا التي افترضها الله ـ تعالى ـ عليكما وعلى سائر خلقه، وأنتما وادعان سالمان آمنان ؟ فلم يفهم عنه ابن واسول ما قاله، وأظن الخوف والذعر غلب عليه، قال : بل الذي نحن فيه يا مولانا أفضل !! فتبسم أمير المؤمنين لما علم أنه لم يفهم عنه، وأظن البائس إنما ظن أنه خاطبه بمثل ما خاطبه قبل ذلك، فإنه ﷺ قال له قبل ذلك في يوم أحضره إليه : والله إنك في حالك هذه التي أنت فيها ـ وإن كنت في الأَسْر والوثاق ـ لأَفضل مما كنتَ فيه من معصية الله بتخطيك إلى ما تخطيتَ إليه، وتسمِّيك بما تسميت به، وإن كرهت ما أنت إليه فيه، فقال : هو كما قال أمير المؤمنين ﷺ، فأحسبه ظن أن الخطاب الذي خاطبه به أمير المؤمنين ﷺ في هذا المقام كذلك كان.

فأعرض عنه ﷺ لما رآه لم يفهم قوله، وعطف علي بن بكر فقال : أَنت يابن بكر أمكننا الله منك وأنت على غيك، فمنَّنا عليك، وأطلقناك من أسرك، وصرفناك إلى بلدك، فما رعيتَ الإحسان، بل غمطت النِّعم وتغلبت على البلاد دوننا ودعوت إلى غيْرنا، وتقول فيما انتهى منك إلينا : هؤلاء الفواطم ـ تعني الذين بناحيتك ـ تسترضي أحدهم بقُلَّة من نبِيذ وأترجَّتَيْن تهدي ذلك إليه، وتعني أنا نحن لا نرضى منك إلا

---

10) من سنة 959/348 وذكر شعبان هنا غريب لأَن حصار فاس انتهى اليوم 20 رمضان من هذه السنة وأحمد بن بكر كان أميراً وقتها.

بالكثير، فلو عقلت لعلمتَ أن الراضي منك بما وصفتَ، مثلُك في الحال أو دونك، وليتك أقمت لنا ظاهراً أو كنت واصلتنا بأترجّة لعلّك كنت تستميلنا بها كما زعمت أنك استملْت من استملْته، ولكنك نابذتنا وصارمتنا، ثم صارت عساكرنا إليك فأظهرت أنك على الطاعة وغلّقت دونهم أبواب مدينتك، ولم تخرج إلى عبْدنا : قائد عسكرنا، وسألك أن تبعث بابنك ليكون عندنا، فأومات إلى أسود بين يديك، وقلت لرسولي إليك : لو سألني شعرةً من رأس هذا الأسود ما أعطيته إياها ! وتقاتل عسكرنا، وتقتل أولياءنا ثم تكتب إلينا أنه كانت بينك وبين القائد هَيْنمَة، وتسألنا أن نُحِلّك محلّ الأَولياء عندنا، أَفَتَرَى لو أنك أسخطت بعض نسائك بعض السخط فقابلتها بمثل هذا الذي قابلتنا به أكانت راضية منك به ؟ فأيّانا يا شقيّ تقابل بمثل هذه المقابلة وعلينا تجترئ بمثل هذه الجرأة ؟

يقول له ﷺ : مثل هذا قولَ مغضب والرمح بيده يُديرهُ فيها وسنانُه من قِبَل الفاسق ابن بكر، فظن كثير ممن حضر أنه سيرسله إليه ! حتى لقد تنحّى من كان واقفاً إلى جانبه، فأسكت الخائب ودهش، وأكثر ما قدر أن يقول يا مولاي، أنا عبدك وقد أخطأت..! ثم عطف عليهما فقال : ما كنتما فاعلين بمن حل عندكما محلّكما عندي لو أن الله أقدر كل واحد منكما عليه كما أقدرني عليكما ؟ فسكتا، فنظر إلى ابن واسول فقال : قُلْ ـ واللهُ الشاهد على ما في قلبك ـ ما كنت صانعاً في ذلك ؟

فقال : ومَن أنا حتى أَشبَّه بعبد من عبيد أمير المؤمنين ﷺ فكيف به في شيء من فعله ؟

ثم بعد محاورة بين أمير المؤمنين وبين ابن واسول عندما تنحّى هذا الأخير حتى لا يصيبه بول الفرس... دخل أمير المؤمنين من باب

الخاصة إلى داخل قصره وقد نصبت الموائد للناس وصَرَف القيِّمُ على الطعام ابنَ واسول وابن بكر إلى حجرة وقرب إليهما مائدة فاكلاَ وصُرفا إلى مكانهما...

وتحدث الناس بما كان من أمير المؤمنين إليهما، وقال لي بعضهم : ما ظَنَنَّا إلاّ أَنَّ ابن بكر سيُقتل !!

قلت : فلو قتل الآن أليس قد مضى بما فيه واستراح مما هو بسبيله، وإن كان صائراً إلى غضب الله، ولكن في متعتنا بالنظر إليه وإشهاده مثل هذه المشاهد وتقريعه بمثل هذا التقريع إلى أن يرى وليٌّ الله فيه رأيه، أفضل البغية والمأمول.

وفود رهائن جوهر من المغرب مع ابن واسول بن بكر

قال : ولما قفل الجيش المنصور من أرض المغرب بعد أن أظفر الله تعالى وليَّه بابن واسول المدعى الإمامة، وابن بكر الناكث المتغلّب بفاس، وبعد أن فتحها الله تعالى على وليه وما والاها من أرض المغرب أخذ قائدُ ذلك الجيش أبناءَ جميع وجوه أهل المغرب ورؤسائهم رهائن عنده، وقدم بهم وبكل وجه كان بذلك الصقع ممن يطاع به ويخاف جانبه، وجاء فيهم بجماعة من الحَسَنيين الذين تناسلوا من ولد إدريس وتآمّروا في القبائل وادعوا الملك، فلما وصلوا إلى الحضرة أمر أمير المؤمنين ﷺ بإنزالهم، وكَسَاهم ووصلهم وحملهم وأجرى عليهم النزل الواسع، فأقاموا على ذلك، ثم منّ عليهم بتسريحهم وإطلاقهم إلى بلدانهم وأمر لهم بصلات وخلع وحملان، وبعث معهم إلى آبائهم وأكابر أهاليهم بكُسىً وصلات وسرج مغرقة.

وأمر بإدخالهم في حين خروجهم ليودعوه فصُفُّوا بين يديه وأدنى الحَسَنيين منهم وأمرهم بالجلوس، ثم قال للجميع : قد علمتهم ما كان من إحساننا إليكم وفضلنا عليكم وعفونا وصفحنا عما سلف من أُموركم، وقد سرحناكم لما اتصل بنا من شهرتكم وما خلّفتموه وراءكم في سراحكم وشوق بعضكم لبعض، فآثرنا إسعافكم بذلك والمنّ به عليكم فاعرفوا ذلك وتلقوه بالشكر وحميد السعي وحسن الطاعة تتعرفوا منا المزيد عنكم ويتصل فضلنا لديكم ومعروفنا عندكم، وليعلم من أدنى

السمك يهدى حيا من المغرب إلى المشرق !

هناك حادثة رواها المؤرخون لها أكثر من دلالة...

فهم يتحدثون عن أن القائد جوهر انتهى في إحدى حملاته على المغرب إلى المحيط الأطلسي، ولكي يبرهن لأسياده العُبيديين الشيعة على أنه وصل إلى الأطراف القاصية للمغرب صاد من سمك المحيط وجعله في قلال الماء وأرسله إلى مولاه المعز لدين الله معد بن إسماعيل العبيدي...

ترى كيف كان نظام البريد ؟ ترى كيف كان الحكام يتعطشون لكسب موقع قدم على شط المحيط ؟!

إلينا بالنسب منكم أن ذلك إنما يتوسل به من اعتصم بالطاعة وتمسك بها، فأما من عصى أولياء الله وخالفهم فقد انقطع نسبه منهم كما قطع الله تعالى نسب ابن نوح منه لما عصاه، ولولا أن الله افترض الطاعة لنا على كافة خلقه، وقرنها بطاعته وطاعة رسوله، وجعلها ديناً تعبد العباد به، وأقامنا لإقامة دينه، لما عبأنا بما أطاع منكم ولا من عصى، ولكنا إنما نريد بذلك إقامة ما أمرنا الله تعالى به من إقامة دينه. ولو أن هذا الفاسق ابن بكر أطاعنا ما بخِلْنا عليه بفاس وما هو أعظم منها، وما لذلك

عندنا ولا للدنيا بأسرها من خطبٍ نبتغيه ممن تغلب، ولا نقيم أنفسنا لمحاربته لولا ما افترض الله (تعالى) علينا من ذلك واستخدمنا له، ولو سلم ذلك إلينا الفاسق ومن تمسك به وأطاعه على معصيتنا لما عرضوا أنفسهم للتلف وحرمهم للانتهاك، وإن كان ما جبلنا الله عليه من الصلح والمرحمة منعنا من انتهاكها ـ وقد عرضوها للانتهاك، ومن سفك دمائهم وهلاكهم عن آخرهم... وقد استهدفوا بها للسفك وبأنفسهم للهلاك... ولكنا عفونا عند المقدرة وصفحنا بما جبلنا الله (تعالى) عليه من الصفح والمرحمة، وأبقينا على من بقي منهم، ومن أقدرنا الله تعالى عليه من جميعهم وصُنّا حَرَمهم وعففنا عن دمائهم، وما لهذا الفاسق الذي أقدرنا الله تعالى عليه، بعد الذي كان منه من مناصبتنا وحربنا بعد عفونا قديماً عنه وإحساننا إليه، من المقدار ما يوجب عُقلتَه وإبقاءه إلا لما أردنا أن يديم الله (تعالى) به حسرته من كونه في الأَسْر، وينظره إلى فضل الله علينا وعلى من ننيله إياه ممن رأينا المنَّ عليه والإحسان إليه منكم ومن أمثالكم ممن آثر طاعتنا والتسليم لأَمرنا وأنابَ إلينا ولم يصرَّ على معصيتنا ! فيعلم أن الله (تعالى) لو أراد به خيراً لوفقه إلى ذلك وقدره له، فنال من فضلنا وإحساننا ما قد نال غيره، ففي ذلك ما ينكي الله به صدره ويديم له حسرته وأسفه، فينال من أَليم عذابه ـ جل ثناؤه ـ في دنياه صدراً مما أعدَّه له قبل مصيره إلى أليم عذابه الدائم، والخلود في خزيه اللازم !

إنا والله ما نبتغي من طاعتكم لنا وتسليمكم لأَمرنا وإنابتكم وإنابة غيركم إلينا عزّاً إلى عزّنا نستفيده، ولا عَرَضاً من أعراض الدنيا نستزيده، ولقد خوَّلَنا الله (تعالى) من ذلك وملَّكنا وأعطانا بفضله علينا وإحسانه إلينا مالا نتعاطى أن نقوم بشكره، ولا تمتد أعيننا إلا غيره استقلالاً لِما خوَّلنا الله (تعالى) وأعطانا من جزيل كرائمه وأفضل علائقه، وأعزنا به من عز سلطان حقه، وأمجدنا من مجد شرف دينه،

إصدارات المغرب إلى المشرق...

وأما القيروان فأعظم مدينة بالمغرب وأكثرها وأعظمها تجراً وأموالاً، وأحسنها منازل وأسواقاً، وبها ديوان جميع المغرب وإليها تجبى أموالها وفيها دار سلطانها، وسمعت أبا الحسن بن أبي علي الداعي صاحب بيت المال في سنة 334 هـ يقول : دخل من مال المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه عن خراج وعشر وصدقات ومراعٍ وجوالٍ ومراصد وما يؤخذ من عمل الأندلس وبلد الروم فيعشر على سواحل البحر **وما يخرج عن القيروان إلى الفسطاط** فوق سبع مائة ألف ألف دينار، ودون الثمان مائة ألف ألف دينار، قالوا : ولو بسط يده لجاءت أضعف ذلك... وسمعت هذه الحكاية واللفظ بعينه وصيغته من زيادة الله أبي مضر ابن عبد الله صاحب الخراج في سنة 340 وكأنهما تفاوضاه وعِلمَا وجوه ذلك...

فأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولّدات الحسان التي استولدهنّ بنو العباس... وولدن غير سلطان عظيم كسلاّمة البربرية أم أبي جعفر عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وقراطيس أم أبي جعفر هارون الواثق بن المعتصم وقَتُول أم أبي منصور محمد القاهر ابن المعتضد... وغير ما ذكرت من ملوك المشرق وأمرائه.

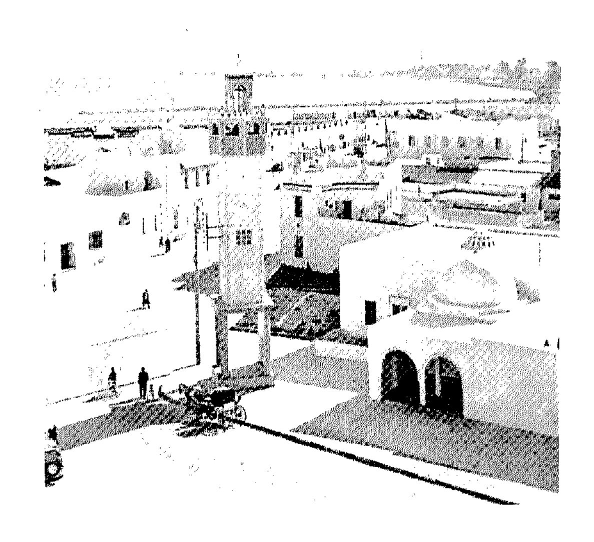
ومما يجهز من المغرب الغِلمان الروم الحِسَان والعنبر والحرير والأكسية الصوف الرفيعة والدنية والجباب الصوف والأنطاع والحديد والرصاص والزئبق والخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة، ولهم الخيل النفيسة من البراذين والرجال الجلد من البربر.

فأما أسعارهم على تنائي مدنهم وديارهم فعلى غاية الرخص في الأطعمة والأغذية والأشربة واللحمان... وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي **لا تدانيها في الكثرة إبل العرب** ولهم طاعة لمن ملكهم وثقفهم ونفار وقِمَاص ان أغفلهم وأهملهم...

وليس في بلدانهم من تعاطى الأمور المنكرة كالعيدان والطنابر والمعازف والنوائح والقيان والمخنثين والفسق الشنيع كالمشرق !

ابن حوقل : الممالك والمسالك ص 69 ـ 70

وما وصل من أَسبابنا بأسباب جدِّنا محمد نبيّه ﷺ، وأن جعلنا أئمة خلقه الذين لا يقبل منهم إلا من أقبل عليهم، ولا يرتضي إلا من ارتضاهم فما بعدما عندنا من فضله ونعمته فضل نعمةٍ ينبغي أن ننالها من أحد عباده، ولا فوق ما أعطانا من الشرف والمنزلة ما يؤمل أن نرتقي إليه بشيء نستزيده من قِبَل أحد من خلقه، بل قد أحوج الله جميع العباد إلينا دنياً وديناً، وله الحمد على ما خولنا وأعطانا ومنّ به علينا، ولكنا نُذْئب أنفسنا وأبداننا ونستعمل أولياءنا وننفق أموالنا فيما استعملنا الله فيه، واستخدمنا له، وأمرنا بإقامته من معالم دينه والذّب عنه وإقامة شرائعه، وإحياء ما أماته المبطلون من سنته وأحكامه، فنحن ندعو من أناب إلى ذلك ونحُضُّهم عليه، ونجاهد من عَنَد ذلك وَصَدف عنًّا فيه.



المهدية ـ تونس

فاعلموا ذلك منا وعرّفوه من تصيرون إليه، وإنكم لن تعدموا فضلاً من الله ومنا ما اعتصمتم بحبلنا وتولّيتمونا، ولن تفوتوا الله (تعالى) وتفوتونا إن صدفتم عن أمرنا وأصغيتم إلى عدونا، ويد الله العليا عليكم وعليهم وأيدينا، وعلى كلّ من عصانا وصدف عن أمرنا وعداً وعدنا إياه (تعالى) في كتابه، وواجباً أوجبه تبارك وتعالى في إيجابه إلى من عسى أن يميلوا عنا ومن يستبدلون بنا، ودعوة من يؤثرون على دعوتنا، وهي دعوة جدنا محمد ﷺ.

وطواغيت بني أُمية الذين مال نحوهم ودعا إليهم وأصغى إلى باطلهم هذا النذل ابن بكر واستبدلهم بنا هم عدوّ جدنا محمد ﷺ وحربه ولعناؤه وطرداؤه وحزب الشيطان وجنوده، ونحن حزب الله وحزبه - كما وعد - الغالبون وحزب رسول الله وذريته المطهرون، واللهِ ما تثبت أنفسهم الخسيسة ولا تتعاطى مقاومة فضلنا، ولا ينكرون، - وإن أبدو ما أبدوه من محاربتنا وعداوتنا - حقنا. وإن قلوبهم لتخافنا وجلودهم لتقشعر منا. ولو قُرّب جلد ميت منهم إلى جلد ميت منا لا قشعرّ منه، كما قد قيل : إن ذلك يعتري جلود بعض الحيوان إذا قرب من جلود بعض السباع ! وللذي جعله الله لنا من الهيبة في صدور عدوّنا والخوف، لهو أشد مما جعله الله - تعالى - في قلوب الحيوان للسباع لا محالة !

فمن ذا يعدلنا بالأرجاس من بني أُمية ومن هو في مثل حالهم، إلا من أعمى الله قلبه، وغلبت عليه شقوته وحَيْنه ؟ فاعرفوا فضل ما وفقكم الله (تعالى) إليه وحباكم به، وقوموا بفرضه وأشكروه على ما وهبكم منه، ومنّ عليكم من رضانا به، تستديموا نعمته بذلك، وتستزيدو فضله، أَما إني لم أقل ما قلته في نفسي تكبُّراً، ولا وصفت ما وصفته من فضل الله (تعالى) عندي فخراً، بل قلت اعترافاً بفضله علي، وشكراً لنعمته، وأنا أقل عباده عند نفسي تواضعاً لِعظمته وأذلهم لديها تذلّلاً وخضوعا لقدرته، واستعبر ﷺ وظهرت خشية الله على وجهه !

فقبّلوا الأرض بين يديه واعترفوا بفضله وشكروا له بما قدروا عليه وذكروا (أي الحَسَنيون) ما يعتقدونه وما يعلمونه ممن خلفوه من ورائهم من أوليائهم واعتقادهم طاعتَه وولايته، وودعوا، وانصرفوا.

☆ ☆ ☆

قال القاضي النعمان بن محمد :

سمعت الإمام المعز لدين الله، صلوات الله عليه ـ وقد أتاه فتح مدينة فاس بعد أن كان أكثرُ الناس يئسوا من ذلك لطول إقامة الجيوش عليها وهروب من هرب منهم عنها وقوة أهلها وكثرة الأطعمة فيها ووعر خنادقها وحصنها، فقال ﷺ : هذا من قول الله (عز وجل) : ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾. والله ما استيأس رسل الله من فضله ونصره إياهم : ولكنهم استيأسوا ممن خذلهم ولم يقم بواجب حق الله (تعالى) الذي افترضه في جهاد عدوهم فقطعوا من الخلق رجاءهم ووصلوه بالله ربهم، فآتاهم نصره الذي به وعدهم.

وقد كان المعز لدين الله ﷺ كلما ورد عليه من أمر فاس هذه أمرٌ يئس معه من يسمعه من فتحها، يقول ـ ونحن نسمعه في غير موطن ـ إذا أتى مثل هذا، ما أتوكل في أمرها وكلِّ أُموري إلا على الله لا شريك له، ولا أرجو غيره، وإني لواثق بفضله ونصره...

ثم قال ﷺ لما أتاه الفتح : والله إني لربما أريد أن أسأل الله تعالى في الزيادة من فضله فيما يكون من مثل هذا فاستحيى أن أسأله ذلك لكثرة ما أولاني منه، له الحمد لا شريك له، وإني لربما سألت الله (تعالى) طول البقاء لعدوى ليخزيه الله بذنوبه، ويرى ويسمع من صنع الله عندي ما ينكيه ويؤلمه !

ثم قال عليه السلام : أتدرون ما أردته بالكتاب الذي كتبته من قريب لأهل فاس هؤلاء الأشقياء ! وقد كان كتب لهم كتاباً بالأمان إن أنابوا وعرفنا به، فلما انتهى إليهم ردّوه فلم يقبلوه !

قلنا : الله ووليُّه أعلم.

قال : والله إن أردت بذلك إلاّ هلاكهم بإقامة حجة الله تعالى عليهم وإلا فقد علمت أنهم، متى جاءهم وهم يرون أنهم قوة من عساكرنا قد سئِمَتْ من المقام عليهم وانحل بعضها عنهم، وجاءهم مثل هذا من عندي... أنهم يدفعونه. فأردت أن أجعله ككتاب رسول الله ﷺ إلى صاحب فارس إذْ أتاه فمزقه فمزق الله تعالى ملكه، ! وككتاب المنصور بالله ﷺ إلى مخْلد اللعين وأصحابه وقد حاصرهم بقلعة كيانة، إذ كتب إليهم الأمان فردُّوا كتابه فأمكنه الله (تعالى) منهم في أقرب وقت، وكذلك أردت بكتابي الذي رأيتموه، وكان كما أردت ذلك بحمد الله ونعمته، ثم حمد الله (تعالى) بما هو أهله وشكر فضله بما قدر عليه وأمكنه».

☆ ☆ ☆

ولقد كان الأمير الحسن بن كَنون قد صانع العُبَيديين وبايعهم فيمن بايعهم عند حملة جوهر على المغرب، ولذلك فقد استبْقَوْه على قيد الحياة بل وعلى ما كان يتولاه ثقةً في عواطفه من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنهم كانوا يعرفون عن ضعفه سيما وعاصمته البصرة أقرب إلى الأُمويين منها إلى الفاطميين، والضرب في الميت حرام كما يقولون !

وقد صحَّ ما كانوا يتوقعونه فإن الحسن بالرغم من إظهار ميله لبني مروان بعد مغادرة القائد جوهر لبلاد المغرب أواخر سنة 349 = يبراير 961، عاد فانضم سنة 361 = 971 إلى حملة بُلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي التي استهدفت أيضا القضاء على دعوة بني مروان !

وكان هذا مما دفع بالعُبيديين إلى حماية ظهر الحسن الذي انتصر على جيش كثيف بعث به الحكم المستنصر[11] في شهر ربيع الأول 362 = 973 انتقاماً من خذلانه المتتابع لهم وممالأته المستمرة لأعدائهم...

وبعد مقتل عاملي فاس : ابن قشوش وابن ثعلبة من لدن بُلكين سنة 369 = 979 تشاء الأقدار أن يستسلم الحسن بن كَنون أمام حملةٍ لاحقة ما حقه، ويمسي لاجئاً في قرطبة قبل أن ينتقل لمصر ـ وقد أصبحت خاضعةً للعبيديين الفاطميين فيلتقي هناك بالأمير نزار بن معد الذي زوده سنة 373 = 983 بعهده على المغرب وأمر عامله على إفريقية بُلكين بأن يقدم المساعدة اللازمة لنصرة قضية الحسن على ما نذْكُره في العلاقات المغربية الأُموية...

وهكذا عاد الأمير الحسن إلى بلاده المغرب حيث استقبلته قبائل المغرب بالترحيب والتكريم، وهنا شرع في إظهار دعوته لصالح الفاطميين بمصر... الأمر الذي لم يرق طبعاً المنصور بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد بالله والقائم بملكه،[12] فبعث بابن عم الحسن : عسكلاجة الذي أخضع الحسن بن كَنون وجعل حدّاً لمملكة بني إدريس بالمغرب بعد معارك ضارية شهدتها عاصمة فاس نفسها حيث نجد عدوة القرويين منها تصر على مبايعة القيروان ردحاً من الزمان، بينما نجد

---

11) هو الحكم بن عبد الرحمن الملقب بالمستنصر وقد ولى الخلافة بعد أبيه سنة 350، وقد غزا الإسبان بنفسه كما كان الشأن في والده، وبادروا إلى عقد السلم معه، وتوالت وفودهم عليه طلباً لمحالفته... روض القرطاس طبعة الرباط 1، 134 ـ 135 ـ تعليق 1.

12) لقد سلمت الأميرةُ صُبْح أم المؤيد والوصية عليه، سلّمت هذا الحاجب مقاليد الأمور وفوضت إليه بعد وفاة الحَكَم، على ما سنرى.

عدوة الأندلس تستسلم عام 375 = 985 أمام عسكلاجة قائد الأندلس !!
وقد ظل الفاطميون معتمدين على ظهيرهم بإفريقية منصور بن بُلُقين بن زيري بن مناد... ثم على عمه أبي البهار بن زيري... قبل أن يستقلّ هؤلاء عن الفاطميين...

☆ ☆ ☆

كانت حياة حافلة بالأحداث في سبيل حفاظ المغاربة على كيانهم، وقد رأينا رؤيا عَيْن عملَهم المزدوج من أجل ذلك، سواء على صعيد السياسة أو ساحة المعركة، وتجاه دولتين عظيمتين كبيرتين تتسابقان على ألقاب الخلافة وتبذل كل منهما الجهد لتحقيق مكاسب أكثر من الأخرى على ما سنرى، وما كان حديثاً يفترى !

أبو عمران الفاسي (430 = 1038)

شخصية تنتمي لمدينة فاس كما نرى... ويتساءل حقاً عن الأسباب التي جعلته - في مثل تلك الظروف القلقة - يظهر في القيروان، وهل كان ضمن أبناء وجوه أهل فاس الذين أخذهم القائد جوهر معه صحبة ابن بكر أمير فاس ؟ أم إنه أبعد من العاصمة في ظرف من الظروف الصعبة من أجل مذهبه الذي لم يرق حاكماً من حكام فاس ؟ أم إنه اختار من تلقاء نفسه هذه الرحلة لنشر فكرة أو دعوة لرأي ؟ المهم أن نذكر أن أبا عمران لم يكن رجلاً عادياً... تدل على ذلك تنقلاته إلى قرطبة وإلى مكة وزيارته بغداد أواخر القرن الرابع الهجري... لقد كان الإمام الباقلاني يقول : لو رأى مالك أبا عمران الفاسي والقاضي عبد الوهاب لسرّ بها»... ونحن نقول إن ابن أبي عمران كان أكثر من فقيه، إنه ممذهب، إنه رجل سياسة، أفلم نسمع أنه كان وراء اختيار الأمير المعز بن باديس لمذهب أهل السنة الأمر الذي كان له أثره في الانفصال عن الفاطميين وتأسيس إمارة مستقلة ؟ أو لم نسمع عن تأثيره على يحيى الكَدالي وتدليله على تلميذه اللمطي حتى يأخذ بيد الذين أصبحوا فيما بعد يكونون دولة عظمى حملت في التاريخ اسم «دولة المرابطين»..



تمثال للأمير عبد الرحمان الداخل نصب في مدينة المنكب

الإمارات المغربية والخلافة بالأندلس

- ◻ سفارة الرستميين لدى عبد الرحمن الناصر جواباً عن سفارة أندلسية سابقة.
- ◻ سفارة بني مدرار لدى الأندلس محملة بالهدايا الغريبة.
- ◻ صلة الأغالبة بقرطبة وإرسال الرازي سفيراً عنهم للأندلس مصحوباً بالهدايا الرفيعة.
- ◻ وفادة من نكُّور بالأندلس.
- ◻ سفارة البرغواطيين لدى الحَكَم بن عبد الرحمن...

علاقات الإمارات المغربية بالأُمويين

لقد كشفت الأيام أن عملية الاغتيال التي دبرت للإمام إدريس بن عبد الله من لدن الخليفة هارون الرشيد، قوت من مركز بني إدريس في المغرب وأظهرتهم أمام الناس قاطبةً على أنَّهم ضحايا ظلم وغدر، ولهذا وجدنا المغاربة ـ كما أسلفنا ـ يُجمعون على عدم الإنفضاض من حول إدريس الثاني، كما وجدنا الأندلسيين من جهتهم ينظرون إلى الإمارة الإدريسية نظرة احترام وتقدير... سيما وهؤلاء يشاركونهم الشعور إزاء الذين يحكمون في المشرق..!

وإذا كان هذا هو الموقف الأندلسي بالنّسبة لإمارة بني إدريس وخاصة في بداية الأمر فإن الموقف بالنِّسبة للإمارات الأُخرى : «بنو صالح في نكُّور، وبنو عصام في سبتة، وبنو مدرار في سجلماسة، وبنو رستم في تاهرت، وإمارة البرغواطيين في تامسنا» أقول : كان الموقف بحاجة إلى تتبع، ذلك أن الأُمويين في الغرب الإسلامي كانوا يرهفون بأسماعهم لما يجري على الضفة الأُخرى من البحر المتوسط.

وهكذا شاهدنا لهم مواقف معينة إزاء تلك الإمارات المتناثرة في طول البلاد وعرضها طيلة قرنين كاملين. وإذا كانت بعض مصادر التاريخ التي نتوفر عليها اعتادت أن لا تعطي أهميةً كبرى للعلاقات الدولية فيما تقدمه للقراء... فإن المؤرخ ابن حيّان في كتابه المقتبس، تميَّز على العكس من ذلك بإبراز الصلات التي كانت تربط الأُمويين بغيرهم من الأُمم إن في الشّرق أو الغرب.

وهذه ظاهرة تدلّ وحدها على المستوى العالي الذي كانت تتميز به إفادات ابن حيان...

وقد لاحظ كلّ الذين اشتغلوا بنتاج المؤرخ الأندلسي أنه كان يُفيض إفاضةً واسعةً في أخبار الوفادات السفارات والاستقبالات التي تخصص عادةً للضُيُوف والرسل، الأمر الذي يعطينا فكرة عن المادة الوافرة التي كان يتوفر عليها إزاء هذا العنصر بالذات... فنحن لا ننسى أنه ابنُ موظف كبير في ديوان الملك، وأنه نتيجةً لذلك كان يعرف ماذا تعنيه صلات الدولة بالساحات الأخرى.

وهكذا نجد في مرويات ابن حيّان، سواء منها التي قرأناها في (المقتبس) أو في غيره مما نقل إلينا كشذراتٍ بواسطة مؤلفات أُخرى، نجد فيها أحاديث دقيقة عن أُروبا المسيحية وخاصة الممالك التي تتصل بالأراضي الإسلامية في الأندلس...

وبمثل تلك العناية الفائقة وجدناه يهتم بتاريخ العلاقات بين الأندلس وبين الإمارات المغربية... وسأظلّ إذن مديناً للمقتبس فيما حررته في كتابي هذا حول الموضوع وبخاصة الفترة التي تعالج علاقات المغرب بالإمارات والبلاد المجاورة...

☆ ☆ ☆

فإلى ابن حيان يرجع الفضل في بسط الحديث عن العلاقات الأُولى الأندلس الأُموية مع أئمة الإمارة الرستمية في تاهرت، بالضبط عندما نصب الخليفة عبد الرحمن الثاني...

لقد أفادنا ابن حيان أن هناك سفارةً تتألف من ثلاثة أشخاص كانوا بالصدفة أبناء لعبد الوهاب ابن رستم... هم عبد العزيز ودحيون وبهرام... الذين أرسلوا في وفادة إلى قرطبة عن تاهرت أو بالأحرى عن الإمام الذي كانت بيده السلطة هناك وهو الإمام عبد الوهاب...

لقد كان عبد الوهاب استقبل في تاهرت قبل هذا الوقت رسولاً عن قرطبة هو الأمير عبد الله بن الخليفة عبد الرحمن الأول، وهناك في

تاهرت بلغت عبد الله أخبار وفاة أخيه وتنصيب ابن أخيه الحكم بن هشام عام 180 = 776...

ومنذ هذا التاريخ وجدنا أن الإمام عبد الوهاب يعهد لأبنائه بأخذ طريق البحر ليُنشؤوا لهم علاقات في الأندلس مع الأمويين الذين كانت لجدودهم في الشام علاقات مع قادة الفرس السابقين.

والمهم أن نعرف هنا ان الخلافة في قرطبة خصصت استقبالاً حافلاً للأمراء الرستميين الثلاثة... وقد غمرتهم بالهدايا والتحف الفاخرة، قبل أن تأذن لهم في العودة إلى بلادهم حيث وجدوا أن الإمام عبد الوهاب تُوفي قبل بضعة شهور وأن الذي تولّى الأمر بعده كان هو ولده...

وبعد ولده هذا وجدنا الإمام أبا اليزن محمداً يسمّى رئيساً للدّولة الرستمية عام 254 = 868 ويصبح بمثابة ممثل للخليفة محمد بن عبد الرحمن، وبهذه الصفة كان أبو اليزن لا يقدم ولا يؤخّر في أُموره ومعضلاته ألاّ عن رأي وأمْر الخليفة الأُموي...

وعلى نحو هذه الصلات مع تاهرت وجدنا تعامل الأُمويين مع مملكة سجلماسة في واحات تافيلالت وكان يهيمن عليها ـ كما أسلفنا ـ بنو مدرار الذين كانت تربطهم صلة مصاهرة مع أُمراء بني رستم في تاهرت بالرغم من أن بني مدرار انتظروا بعض الوقت حتى أيام الخليفة محمد الأَول لكي يُحكِموا صلاتهم مع الأُمويين لما أنهم كانوا مرتبطين في بعض الظروف بالخلافة العباسية في بغداد !

وقد حمل المدراريون معهم إلى الأُمويين هدايا طريفة وكانت الزرافة من أغرب ما رفعه أمير سجلماسة الذي كان أوْصَل مُلوكِ العدوة بحبل الخليفة وأدومهم على مهاداته فكانت زرافته التي وجهها إلى الأَندلس ووصلت إلى الأُمير محمد بن عبد الرحمن حية، أولَ زرافة

دخلت الأندلس وعاينها أهلها، فصار لهم بها حديث إلى اليوم على حدّ تعبير ابن حيان..!

☆ ☆ ☆

وقد كان مما اهتم به ابن حيان في هذا الصدد أيضا روايته المفيدة عن المكاتبات والمداخلات التي أوجبت الأنس والملاطفة مع دولة الأغالبة وبالذات مع إبراهيم بن الأغلب.

وقد وصل إلى قرطبة في هذا الشأن مبعوث سام كان هو عميد الأسرة التي نبغ فيها الرازيّان الإثنان اللذان كانا من صدر المراجع التي استشارها المؤرخ ابن حيان.

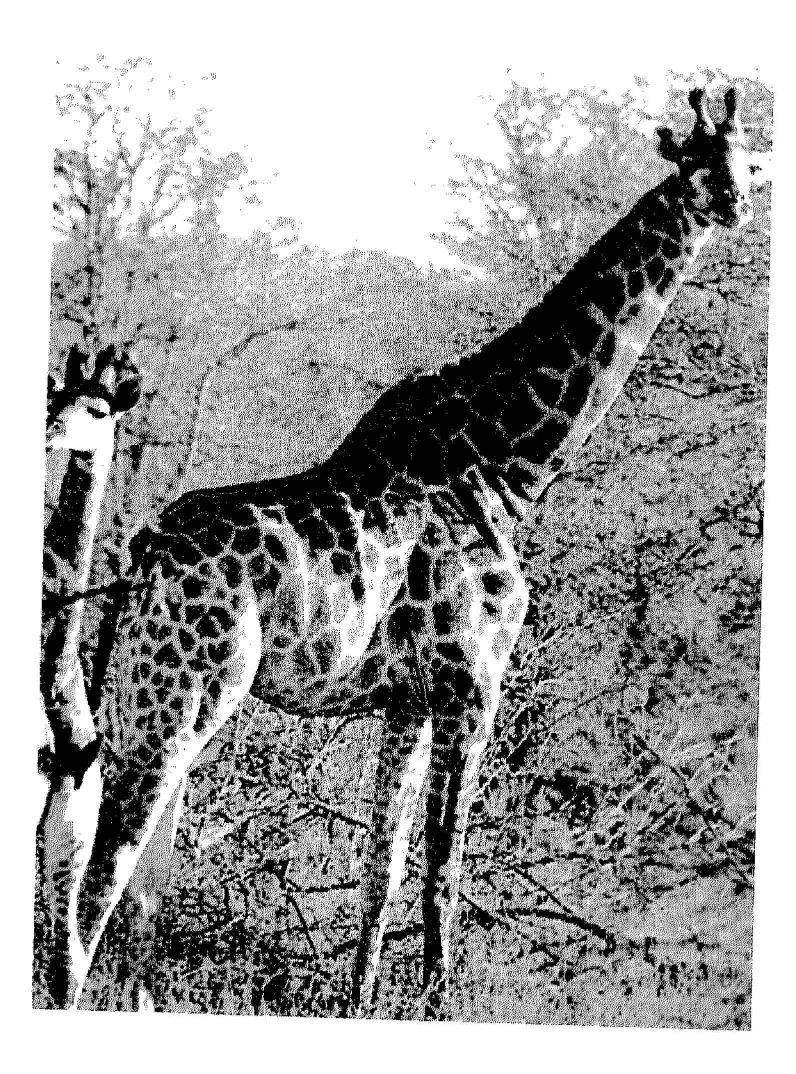
ويتعلق الأمر بوفادة محمد بن موسى الرازي التي لم نكن نعرف عنها شيئاً قبل أن يقدم لنا ابن حيان هذه المعلومات الطريفة.

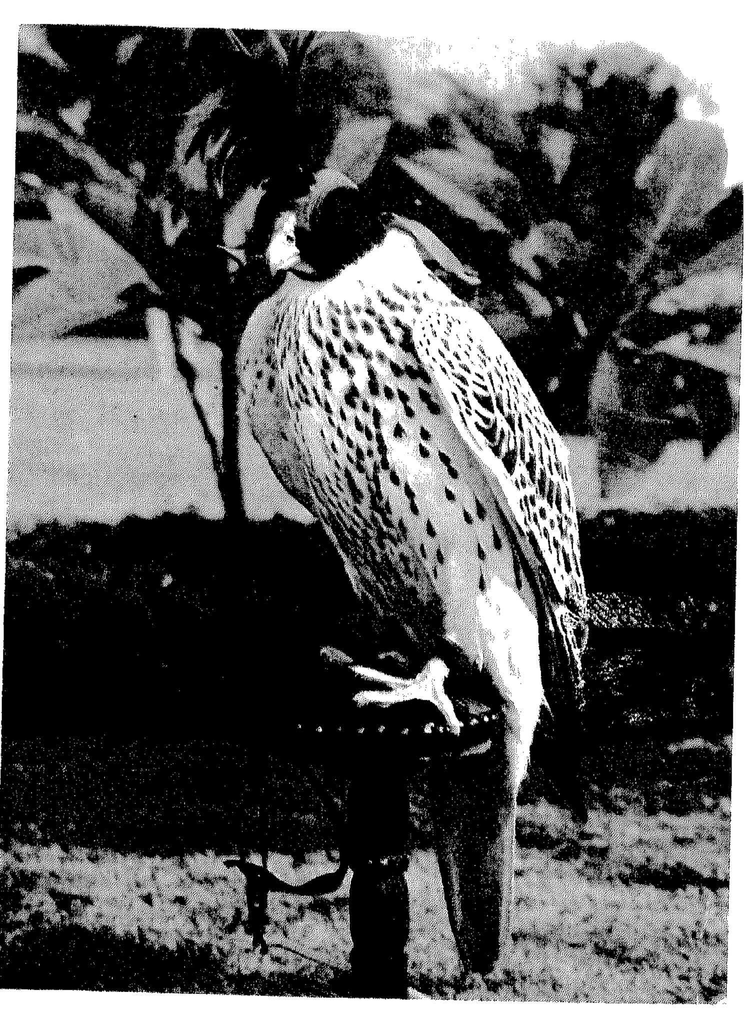
لقد وجدنا الرازي في قرطبة يحمل معه الهدايا الثمينة، من التي اعتاد الأمراء والملوك تبادلها، فيما بينهم، كإشاراتٍ دقيقةٍ ودلالات رقيقة على إبداء الرغبة في التفهم والتفاهم حيث وجدنا في صدر هذه الهدايا تَشْكيلة من الصقور التي يعرف عنها تاريخ الدبلوماسية الدولية الشيء الكثير.

لقد ذكر ابن حيان باللفظ الصريح أن الأمير محمد بن عبد الرحمن سُرَّ بهذه الهدايا وأجزل مكافأة الرازي عليها وأنزله لديه ألطفَ منزل، وأنه أي الرازي أدّى إليه سرّاً كان أودعه إياه إبراهيم ابن الأغلب أمير إفريقية لم يمْتر في صدقه، وسَفَر بينهما في الوُصلة سفارة خير يمتري بها كلٌّ منهما الاستفادةَ مما عند الآخر فأوثقها بينهما محكمة، واعتقد بها منهما أجزل المثوبة...[1]

---

1) المقتبس لابن حيان تحقيق د. محمود علي مكيّ، بيروت 1973 ص 266 ـ 267.





ويفيد ابن حيان أن الرازي هذا بعد أن غادر الأندلس ظل على اتصال بالمكاتبة مع الأمير بما يحتاج إليه هذا الأخير من أمور المشرق ويستعمله من أخبار ملوكها...

ومن المهم أن نلاحظ عودة الرازي إلى الأندلس مرة ثانية سنة إحدى وسبعين ومائتين حيث أهدى جاريةً يصفها ابن حيان بأنها رفيعة القدر مشرقية النشأة، رومية الجنس من تربية ملوكهم قارئة كاتبة نحوية لغوية أديبة بليغة تحفظ دواوين الشعر الجاهلي والمخضرم والأندلسي وتقرض من الشعر قطعاً حساناً وتحدق الغناء الرفيع بصوت بديعٍ أضحت بمجتمع خصالها نسيجةَ وحْدِها...

كانت هذه الجارية تذكّر في جارية إنتهت إلى الأمير ابن رزين قال عنها ابن حيان في تاريخه حسبما ينقله ابن عذاري عند ذكر ملوك شنتمرية : «إنه لم يُر في زمانهَا أخف منها روحاً ولا أسرع حركة ولا ألين عطافاً ولا أطيب صوتا ولا أحسن غناء ولا أجود كتابة ولا خطّاً ولا أبدع أدباً ولا أحضر شاهداً مع السّلامة في اللحن في كتبها وغنائها لمعرفتها التشريح وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان، وكانت محسنة في صناعة الثقاف والمجاولة بالتراس واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة، لم يسمع لها في ذلك بنظير ولا مثيل ولا عديل...».[2]

تعمدتُ نقل هذه الصور البديعة لمثل هذه الهدايا المغربية لأذكر بأن الأمير محمد بن عبد الرحمن ـ بإشارةٍ من بعض وزرائه ـ زهد في الجارية المشرقية..! لماذا ؟ لأنّ صدى حيلة اغتيال الإمام إدريس من طرف البلاط العباسي ما يزال يرنّ في رحاب الأندلس !! ولذلك فإن الخليفة يحتاط !!

---

2) ابن عذاري ج III ـ 308.

وإذا ما عرفنا عن تلك «المبادرة الجريئة» في ربط حلقة الإتّصال بالاغالبة وهم يوالون بغداد، عرفنا إذن الموقف الأندلسي من بقية الإمارات الأُخرى، ونعني مثلاً إمارة بني صالح التي اتخذت من نكُّور (المزَمَّة) عاصمةً لها...

لقد كان من بين الإمارات على هذا العهد ـ كما أسلفنا ـ إمارة بني صالح التي نجد لها هي الأُخرى علاقة مع الساحل الأندلسي.

لقد كان الأمير الذي يتولى الحكم في نكُّور على عهد الخليفة عبد الرحمن الثاني، كان يحمل اسم صالح بن سعيد ابن إدريس الذي وجدناه ـ قبل أن ينصب أميراً على الإقليم، في الساحة الأندلسية ـ مشاركاً في الجهاد إلى جانب الأمويين.

وكان مما سجله تاريخ هذه الإمارة ـ على ما أشرنا ـ استيلاء النورمان على عاصمتها عام 244 = 858، حيث ضبطناهم يقومون بعملية نهب واسعة ويأسرون النساء اللّاتي لم يكن غير الخليفة محمد بن عبد الرحمن أهلاً لافتدائهن وإرجاعهن إلى ذويهن... الأمر الذي كان له أكبر الأثر في كسب بني صالح، بل وتبيعتهم المطلقة لبني أُمية...[3]

☆ ☆ ☆

وبالإضافة إلى هذه الإمارة وجدنا برغواطة التي تنعت بالمروق والخروج عن الدين، كانت تحادّ المحيط الأطلسي، وكان لها شأن يذكر طيلة قرون...

هذه الإمارة أيضاً وجدنا لبني أُمية صلةً بها باعتبارها إحدى الإمارات التي يحتضنها المغرب.

---

3) المصدر السابق I ر 176 ـ 177.

ولا يظهر أن برغواطة دخلت في علاقات مع الأندلس منذ القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي ـ على نحو ما رأينا بالنّسبة لجلّ الإمارات الأخرى، فإن مثل تلك المبادرة كانت على ما استنتجه الأستاذ بروفنصال سابقة لأوانها وذلك لأنّ «نبيّهم» صالح بن طريف ـ بالرغم من أصله الإسباني، كان يعيش في الأندلس شبه ممقوتٍ منبوذ..!

ولهذا فقد كان علينا أن ننتظر شوال 352 = 963 لنشهد في قصر الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثاني سفارةً يرأسها أبو صالح زمُّور بن موسى بن هشام. وقد كان وصوله إلى قرطبة يوماً مشهوداً في التاريخ... لقد ورد أبو صالح زمور سفيراً عن صاحب برغواطة ابن منصور عيسى ابن أبي الأنصار عبد الله ابن أبي غُفَير، وكان الترجمان الذي يرافق السفير ويخبر بجميع ما يقول، هو أبو موسى عيسى بن داود على ما سلف...

وهكذا استمع الخليفة الحكم إلى السفير البرغواطي يتحدث عن طريف، أبي ملوكهم، على أنّه من ولد شمعون، وأنه كان من أصحاب مَيْسرة المطغري... فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه احتَلّ طريفٌ ببلد تامسنا... حيث خلّف السكان ـ بعد وفاته ـ ابنَه صالح الذي «تنبّأ» في قومه وشرع لهم ديانة خاصة بهم... وقد عهد صالح إلى ابنه إلياس بموالاة أمير الأندلس وكذلك كان يوصي جميعهم...[4]

---

4) البكري : المسالك والممالك، طبعة الجزائر 1857 ص 138 ـ 139.

سياسة الأُمويين الخارجية
إزاء الإمارات المغربية :
دولة الأَدارسة

- □ المجاملات والمواصلات.
- □ الاقتصار في البداية على تقصي الأخبار.
- □ صدى سيطرة العُبيديين على سجلماسة : باب الصحراء.
- □ محاولة العُبيديين تصديرَ المذهب إلى باقي القواعد المغربية.
- □ تهديد فاس !
- □ تسمية الناصر بأمير المؤمنين.
- □ القرار الأُموي الحاسم بالعبور إلى سبتة كرد فعل للتدخل العُبيدي.

سياسة الأُمويين الخارجية إزاء المغرب : دولة الأَدارسة

ومع كلّ تلك الإمارات تأتي إمارة بني إدريس التي واكبت في الواقع ميلاد إمارة بني أُمية...

وبالنظر لما تميزت به دولة الأَدارسة من رصيدٍ حافلٍ وتطور ذي بال في صلتها بالأَندلس... وما تبع تلك الصلة من مضاعفات سواء على الساحة المغربية أو الساحة الإفريقية فإننا سنعرض لذلك بتفصيلٍ اعتماداً دائما على ابن حيان...

ومع هذا فإنّنا نرى من المفيد أَن نؤكّد من الآن أن صلة ملوك الأَندلس بأُمراء العدوة جميعهم، كانت تتم بالمواصلات والمجاملات بالرغم من التباين الواضح الذي كان يتجلّى عندما نسمع أن بعض تلك الإمارات كان ينتسب لمذهب السنة، ولكن فيها من كان خارجي المذهب... فيها العربي وفيها البربري، بل إن في الإمارات من كان مارقاً انتحل لنفسه ديانة خاصة به..!

ومن المطرف أن نجد أن ابن حيان يحتفظ لنا في هذا الصدد بفقرة رائعة كانت في مستوى مركز المؤرخ القرطبي كشخصية سياسية...

لِنقرأْ هذه السطور من المقتبس التي تؤكّد أن السياسةلا تميّز في الوصول إلى أهدافها بين مذهب وآخر وبين جنس وآخر..!

«كان الأَمير محمد بن عبد الرحمن شديد التهمُّم بخبر الساحل والعدوة، مراعياً لما هناك من أخبار أعدائهم المسوِّدة متجسساً عن عمالهم، يتعرف عليهم من ملوك البربر الملقين إليه بالولاية كبني

مدرار ملوك سجلماسة، ومحمد بن أفلح بن رستم أمير تاهرت وغيرهم، فلا تزال رُسْله وكتبه تتردد إلى هذه الطوائف في البحث عن أخبار بني العباس بدار مملكتهم وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام ومصر وإفريقية، فلا يكاد يغيب عليه شيء من جلائلها.

تضاف إلى هذه الفقرة فقرة أُخرى تتحدث عن كثرة مواصلة الأمير المذكور لملوك العدوة وحرصه على استلطافهم ومواظبته لمتاحفتهم وتفننه في مكافأتهم على ما يرسلون إليه من هداياهم وتحفهم.. ويقول لوزرائه وخدمته : استدعوا مؤالفتهم بلطيف المخاطبة وأمتروا غريب هداياهم بفضل المكافأة...

وإذا كان ابن حيان اقتصر في تعليل تقرب بني أُمية للإمارات المغربية على رغبة الخليفة في تحسس أخبار المشرق، فإن الظاهر من سلوك الخلافة الأُموية، أنها أيضا كانت تتبع عن كثب أخبار بني إدريس عن طريق بني مدرارالذين يعادون الأدارسة عداء صارخاً على ما هو معروف...

وقد أمعن ابن حيان في التدليل على تجاهل الفروق المذهبية بالنسبة للأُمويين، عندما أبرز في معرض تقرب بني أُمية، وهم سُنَّة، للآخرين وهم خوارج، أبرز أنَّ ذلك التقارب تَمَّ بالرغم من المفارقة في المذهب إذ كان هذا خارجياً وذاك جَمَاعياً على حدّ تعبيره !

وقد كان من الممكن أن تستمر العلاقات بين الإمارات المغربية والإمارة الأندلسية على ما تحدثنا : من مسالمات ومجاملات، وتواصل وتبادل منافع لولا ظهور الدولة العُبيدية الشيعية سنة 297 = 910، وسيطرتُهَا على سجلماسة «غرة جبين الصحراء وقاعدة العرب والبربر»، كما سينعتها خطابٌ لأحد ملوك المغرب... هذه سجلماسة باب المغرب

إلى السودان التي قال عنها ابن حوقل وابن سعيد : إنهما رأيا صكّاً لأحد سكانها على آخر مبلغه أربعون ألف دينار !

ومن سجلماسة سطا العُبيديون على تاهرت قبل أن يكتسحوا سائر مواطن بني الأغلب بالقيروان...

لقد كتب عُبَيْد الله الشيعي إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول في طاعته والتديُّن بإمامته وكان في صدر الذين راسلهم صاحبُ إمارة نكُور العربية السنّية أبو سعيد بن صالح، وجاء في أسفل الكتاب قطعة شعرية كان منها أبيات التهديد هذه :

فإن تستقيموا أستقمْ لصلاحكم	وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدْلاً !
وأعلو بسيفي قاهراً لسيوفكم	وأدخلها عفواً وأملأها قتلا !

الأمر الذي أجاب عنه شاعر آل صالح... وهو رجل من شعراء الأندلس :

كذبت - وبيتِ الله - لا تحسن العدلا	ولا علم الرحمن من قولك الفضلا !
فما كنت إلا جاهلاً ومنافقاً	تمثل للجهال في السنة المثلا
وهمتنا العليا لدين محمدٍ	وقد جعل الرحمان همّتك السفلا !

بمثل هذا الكلام دشّن العُبَيديون تدخلهم في شؤون الإمارات المغربية، وخاصة منها التي تقع على شاطئ البحر المتوسط في مواجهة دولة بني أُمية بالأندلس ! لقد ظهر أنَّ الشيعة لا يرضون بغير تصدير مذهبهم إلى خارج رقعتهم ولا يطمحون - تحقيقاً لِذلك - لغير الإستيلاء على المسالك التجارية...

وهكذا وجدنا عُبَيْد الله الشيعي يأمر مصّالة ابن حبوس - أول ذي الحجة عام 304 هـ = 916 عامله على تاهرت - بالمسير إلى عاصمة إمارة

نكُّور لإنزال سعيد بن صالح حيث تغلّب مصّالة على المدينة وبعث برأس أميرها إلى مدينة القيروان قبيل أن تصبح (المهدية) عاصمة رسمية للدولة... وقد قَصَدَ بعض الأسرة المالكة إلى مالقة ـ عبْر المتوسط ـ حيث لقوا من الأمير عبد الرحمن الناصر كلّ تكريم وتأييد قبل أن يتمكّنوا من العودة إلى نكُّور حيث استمر عملهم على السنة والجماعة والتمسك بمذهب الإمام مالك...

عبد الرحمن يقضي على نبيّ غمارة !!

وفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ادعى أحدهم النبوّة بجبال غمارة، بجبل حاميم قريباً من تطوان، واجتمع إليه كثير من غمارة وأقروا بنبوته وشرع لهم شرائع وعبادات وصنع لهم قرآنا يتلوه عليهم بلسانه..! وكان يفرض على اتباعه أن يقولوا في ركوعهم : آمنت بحاميم ! وآمنت بتالية عمّة حاميم ! وكان (تالية) هذه كاهنة ساحرة وكانت له أُخت ثانية تحمل اسم (دَبُّو) على منوال الأُولى يستغيثون بها في الحروب والقحوط !! حرّم عليهم أكل البيض وأكل الرأس من كل حيوان ! فبعث إليه عبد الرحمن الناصر عسكراً فالتقوا به بقصر مصمودة من أحواز طنجة فقتلوه سنة خمس عشرة وثلاثمائة وقتلوا أتباعه وصلبوا شلْوه بالقصر المذكور، وبعثوا برأسه إلى الناصر بقرطبة ورجع من بقى من أتباعه إلى الإسلام...

الاستقصا 1، ص 192 ـ 193

ولم تقتصر تحركات الشيعة على تلك الجهات فقط، ولكنها امتدّت إلى مدينة فاس قاعدة بني إدريس حيث وجدناهم عام 305 = 918... يقتحمون المدينة التي كان على رأسها ـ كما أسلفنا ـ الأمير يحيى ابن إدريس بن عمر (يحيى الرابع) الذي كان مثلاً يحتذي لبني إدريس...

فلقد استطاع القائد مصالة المكناسي أن يخضع الأمير يحيى ويحصل على صكّ بيعته لعُبَيْد الله الشيعي بالعاصمة، بعد أن تضافرت عليه حبال المؤامرة والغدر !

ولابُدّ أن نتصور من الآن كيف بدأ الأدارسة يفكرون في الالتجاء نحو الشمال... كما ولابدّ أن ندرك من الآن لماذا أقدم الخليفة الناصر على اتخاذه قراراً بتلقيب نفسه بأمير المؤمنين ثم للعبور إلى سبتة ؟

لقد نقل ابن حيان أن سنة ستّ عشرة وثلاث مائة شاهدت استكمال الناصر لدين الله مرتبة الخلافة واستتمام ميسمها بتسميته بأمير المؤمنين، وخاصة بعد قضائه على بعض الدَّجَّالين حيث أُقيمت له الدعوة على المنبر الأَعظم في المسجد الجامع بحضرتِه قرطبة، بنطق صاحب الصلاة فيها القاضي أحمد بن بقيّ بن مخلد بن يزيد في خطبة الجمعة مستهلّ ذي الحجة 316 = 16 يناير 929.

أمير المؤمنين...

لبسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فأنا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا ويسّر على أيدينا إدراكه وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو آمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا، والحمد لله وليّ النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضّل علينا فيه ! وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذْ كلّ مدعوٍّ بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه، فأمرْ الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبَتك لنا عليه إن شاء الله والله وليّ المستعان، وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذي الحجة 316.

ابن عذاري : 2 ر 198

من هنا سنشاهد على الساحة المغربية سلسلةً من الانتفاضات والانتقاضات كان مما شجع على مضاعفتها دون شك اختلاف كلمة بني إدريس بعد ذلك القرار الطائش التي اتُّخذ من طرف الأَمير محمد بن إدريس بتوزيع أَقاليم المغرب الثمانية على إخوته..! فلقد تداول الحكم بين بني عمر صاحب الريف وبني محمد صاحب فاس وبني القاسم صاحب طنجة... إضافة إلى أبناء عمهم سليمان صاحب تلمسان ! وكان بنو إدريس يحلمون بمغرب مستقل عن «المعسكرين» العُبَيْدي والمرواني، ولكنهم، بتفكّكهم، وجدوا أنفسهم في حيرة بين أن يوالوا هؤلاء أو أولئك، وبين أن يلعبوا على الحبلين معاً من أجل الحفاظ على كيانهم... إن الموقف على كلّ حال لم يكن سهلاً بالنسبة إلى قومٍ يوجد وضعهم على ما قلنا، ومع ذلك فقد شهدنا صراعاً مريراً تجلّى أحياناً على الساحة الدبلوماسية بين الوفادات والسفارات، كما تجلّى جانباً آخر على ساحة القتال عندما تصطدم فئةٌ بأُخرى...

لقد وجدت مهديةٌ (تونس) وقرطبة (الأَندلس) معاً في ذلك التفرُّق ما عجل من جهة بتنحية بني إدريس، وما زاد من ناحيةٍ أُخرى في حدة المواجهة المسلحة بين العُبيديين والأُمويين...



الرائد الأول في عالم الطيران عباس بن فرناس (240 = 854) كان من أصل مغربي التحق بالأندلس، أجاد الشعر وبرع في الموسيقى وبرز في الكيمياء والهندسة، شارك في الوقعة الشهيرة بوادي سليط بين الخليفة محمد بن عبد الرحمن والملك أوردونيو الأول ـ **Ordonio I**

موقف الأَدارسة من احتلال سبتة

- الحملات الدبلوماسية المكثفة لاستجلاب الأَنصار.
- استدعاء الناصر للزعماء المغاربة لزيارة قرطبة.
- وقوف محمد بن خَزَر أمير زناتة إلى جانب الأُمويين ضد خصومهم في المهدية !.
- سفارة من ابن خزر تحمل الخطاب والهدايا للناصر...
- الأُمويون يهدون للأَمير المغربي رداءً مطرزاً يحمل اسمه الخاص !
- ابن خزر يصبح الحليف الأَول للأَندلس.
- دور السفير الأَندلسي ابن أبي عيسى في إحكام الصِّلات.
- توالي الخطابات على الخليفة الناصر :

منصور ابن سنان - موسى ابن أبي العافية - صالح بن سعيد أمير نكُّور.

موقف الأَدارسة من احتلال سبتة

لقد تمكنا، بفضل ابن حيان، وبفضل الذين نقلوا عن ابن حيان من الوقوف على أسماء عدد من السفراء والمبعوثين الذين كانوا يترددون على هاته الجهة أو تلك، مِمَّن كنا نجهل أسماءهم إلى اليوم !

فنحن أمام العشرات من السفراء، وأَمام ضِعفَيْ هذا العدد ممن اكتفى ابن حيان بالإشارة إليهم، ونحن من جهة أُخرى أمام عشرات الوثائق الهامة التي كانت تتمثل في شكل خطابات أو تعليمات أو بيْعات أو مكافآت أو تعْيينات...

لقد أَمدَّنا ابن حيان في هذا الصدد بأزيد من عشرين وثيقة تمتدّ عبر السنين الطوال التي شهدتها دولة بني أُمية وعاشتها الإمارات المغربية، كان جلّها أي الوثائق على مستوى القمة، وفيها الكثير ممن كان يتبادل بين العمال والولاة والوزراء فيما بينهم...

☆ ☆ ☆

لم تمض سنةٌ كاملة على أخذ البيعة للناصر كأَميرٍ للمؤمنين حتى تاقت همة الخليفة إلى استدعاء أكابر الأُمراء المغاربة إلى ولايته وثنْيه لهم عن ولاية عُبَيْد الله الشيعي المضلل على حدّ تعبير ابن حيان...

وهنا أُخذت التخطيطات لعبور بحر الزقاق، إلى البلد العريض، إلى العدوة المغربية... وبالدرجة الأُولى مدينة سبتة التي كانت إلى حدّ الآن بيد بني عصام الذي قدموا ولاءهُم منذ حين إلى بني إدريس...

ولكي يحقق الناصر هذا عاد ليبحث في ملفات أسلافه عن أصدقائه المغاربة بالأَمس ممَّن كانت للأُمويين صلة بهم أو آصرة، وابتدأت في صدر سنة 317 = 929 المخاطبات وحركات إرسال الوفود وتقديم الهدايا



ابن حيان كما تخيله رسام مغربي

إلى المضطهدين والموتورين من أبناء الإمارات المغربية التي أجهزت عليها حركة العُبيديين، وإلى غير هؤلاء ممن تعَشَّم فيهم الناصر أنهم يميلون إليه.

ولابُدَّ أن نجد في الناس من يستجيب، وفيهم من يستريب، وفيهم من يفضل أن يكون على حياد. لكن الناصر كان قد عقد العزم على التغلُّب على المصاعب والعراقيل... إنه لم يكن يهدف للهيمنة على المغرب لذاته، ولكنه ـ وهذا مهم ـ كان يريد أن يرجع إلى سابق أملٍ كان يداعب أيضاً إدريس الأَول، ألا وهو تصحيح الأَوضاع في ديار المشرق أو بالأَحرى استعادة الحكم المستلب !

وقد لقيت تلك المراسلات صداها في أرجاء العدوة المغربية حيث وجدنا في أسرع الذين بعثوا بأجوبة التأييد أمير زناتة محمد بن خزر الذي جنح إلى الناصر وصدف عن عُبيد الله الشيعي وبعث إلى الخليفة، إضافةً إلى هذا، بطائفة من أخبار خصمه في «المهدية» وحلفائه من غواة كتامة كما ينعتُهم الخطاب :

«...وقد كان، أعزّ الله أمير المؤمنين، وقت نزول اليهودي عبد الرحمان ولد الشيعي مبدل الإيمان، بالساحل لدينا، في نهضته الثقيلة، حلّ بحصن يدعى (مغرفة) من فتوح الخليفة الوليد بن عبد الملك رضي الله عنه، وهو وراثةً في أيدينا عنه رحمه الله أول الزمان متقن البنيان، اعتزَّ به لما عرف بشأنه، فجمع الأَيدي على هدمه، وبنى بخشبه وصخره حصناً منيفاً في الموضع المعروف بهندرج، شحنه بالرجال والعدة، وقدم عليهم الفاسق محمد بن مهدي وكان من أضلّ من صحبه من البربر وأشدهم شكيمة، فاستخرت الله كثيراً وزحفت إليه وإلى من معه من الغواة بعد أن قدمت الإعذار إليهم ثلاثاً فأصروا واستكبروا وخرجوا إلي لما قربت منهم على أميال من حصنهم، فشد عليهم الأَولياء كشدة رجل

أملاً في تحسُّن الحالة الاقتصادية للبلاد
كتاب وجهه الناصر إلى عماله يطلب منهم القيام بصلاة الاستسقاء :

حدث قحط شديد في الأندلس سنة 317 هـ فأمر الناصر عماله أن يستسقوا بالناس حسب ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد :

فإن الله عز وجل إذا بسط رزقه، وأغدق نعمته، وأجزل بركاته، أحب أن يشكر عليها، وإذا زواها وقبضها أحب أن يسألها، ويضرع إليه فيها. وهو الرزاق ذو القوة المتين، والتواب الرحيم الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد فأوجبت به الرغبة، عز وجهه فيه، والخشوع لعزته، والاستكانة له، والإلحاح في المسألة فيما احتبس به، والتوبة من الأعمال المنكرة التي توجب سخطه منه، وتبدل نقمته، وتستروحه رضاه تعالى جده. **وقد أمرنا الخطيب، فيما قبلنا بالإستسقاء في المسجد الجامع يوم الجمعة، والجمعة الثانية التي تليه، إن أبطأت** السقيا، والبروز يوم الاثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم، أو يأتي الله قبل ذلك بغيثه المغني عنه، ورحمته المنتظرة منه، المرجوة عنده. **فمر الخطيب** بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك، ويأخذ به من قبله **من المسلمين** وليحملهم بذلك المحمل، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى ضراعة من قد اعترف بذنبه، ورجا رحمة ربه. والله غفور رحيم، وهو المستعان لا شريك غيظ نفسه، ويشفي حنين صدره. وإياك أن تهون من أهل الريبة، وتتخطاهم إلى ذوي السلامة والأحوال الصالحة، فإن فرطت في أحد الأمرين أو كليهما فقد برىء الله منك، وأحل دمك ومالك، فاعلمه واعتد به إن شاء الله تعالى.

دولة الإسلام في الأندلس لعنان 708 ـ 710

واحد فولوا منهزمين نحو حصنهم والسيفُ يأخذ مأخذه منهم فاقتحمنا الحصن خلفهم فقتلنا من لاذ به منهم وسبينا ذراريهم وأحرقنا الحصن، فطهر الله الأرض من دنس الفاسقين وأخلى الناحية منهم فليس لهم اليوم في الساحل مكان منبسط ما خلا مدينة تاهرت، دار المشركين ومأوى الملحدين، وكان بها مأخذه بقدرة رب العالمين، وقتل الله بأيدينا في هذه الوقيعة محمد بن مهدي وولده في مائة رجل من رجال الشيعة لعنهم الله».(1)

ولم يقتصر الأمير ابن خزر على إرسال الخطاب ولكنه شفع ذلك بطائفةٍ من الهدايا الرفيعة التي أجاب عنها الخليفة بهدايا بالغة الغاية في التعبير والدلالة وخاصة بما صحبها من الكِسي التي طرّز عليها اسم الأمير ابن خزر على ما يُفصح عنه الخطاب الذي بعث به الخليفة جواباً عن رسالة ابن خزر...

ونرى من المفيد أن نقتبس هذه المقاطع أيضاً من ابن حيَّان :

«وأهدى محمد بن خزر... إلى الناصر لدين الله عشرة نجب مخصية عجيبة الخلق، متخيرة في جنسها، بسروجها وأرسانها وأزمّتها وأجلالها وأرجواناتها وقرابيسها، معلقاً عليها عشر دَرَقات من نفائس درق اللَّمط وعشرين ناقة حوامل عشاراً وغيرها، معها فحْل لها جليل الخلقة رفيع البنية، معها راعيها عبد أسود ماهر برعي الإبل بصير بأدواتها وثمانية عشر فرساً من جياد الخيل العربية، منها فرس أشقر خماسي أغر، مخضَّب الأَربع، وفرس أشهب خماسي، بأذنيه وطرف ذنبه وردة، وأربعة من عتاق الخيل، قيود للعيون بزَّت مقودات الناصر لدين الله ببراعة الحسن

1) ابن حيان : المقتبس، الجزء الخامس، نشره ف. شالميتا ـ ف. كورينطي م. صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة ـ مدريد، كلية الآداب بالرباط ص 260 ـ 267.

وغرابة الخلقة، فلم يكن لها في جميع خيل ركابه، على كثرتها، أشباه لها. آثرها على جميع الهدية، وقرن بذلك من غريب الحيوان ببلد الأندلس أسدين ضاريين مع سبَّاع يسوسهما وأربع نعائم».

فأضعف الناصر لدين الله مكافأة محمد بن خزر على هديته هذه بما عجَل مكافأته به من هداياه النفيسة من الملابس السنية والكُسي المرتفعة والحلي الفخمة والطرائف العجيبة.

وكان الذي اختصه به في تطريزه لما اصطنعه من خاص لهديَّته هذه من الملابس، في طرازه الخاص باسم محمد بن خزر، أعظم قدراً من ذلك، إذ كان شيئاً لم يتقدم لملك قبله إلى وليّ من أوليائه، فقد اعتدّ به عليه الناصر لدين الله لإنافة قدر المنزلة في الجواب النافذ إليه، إذ قال في فصل منه جرَّده آخر الكتاب :

(... ولما حللتَ من حُسن رأي أمير المؤمنين المحلَّ الذي حللتَه، ونزلتَ من نفسه المكان الذي نَزَلْتَه، ذهب ألاَّ يهاديك من لبوسك إلاَّ بما استعمله لنفسه في طرازه الخاص على اسمك، وهذا أمرٌ لم يفعله من تقدَّم من الأعاظم بالمشرق والمغرب بأحد قرّب وعظَّم محلَّه، فخصَّك من ذلك بعشر قطع مختلفة الأجناس مما استعمل لكسوته الخاصة من عتيق الخز العُبَيْدي وغريبه وبديعه في التأليف والصنعة مطرَّزة باسمك لم يُعمل قط مثلها في طُرْزِ بني العباس ولا غيرهم، وهذا مما يبْقى لك فَخْرُه ويخلُد لك ولعقبك سناؤه وذكره، ما بقيت لكم باقية وثواب الله خيْر عقبَى).

وكانت عدة قطع الثياب الرفيعة المختلفة الأجناس في هذه الهدية خمسين قطعةً فائقة القيم، ومع ذلك سيف صارم إفرنجي الجنس، محلًى بفضة مذهبة منقشة في غِمد سَفَن حوت، بنعل، وغاشية فضة خالصة منقّشين بفتائل كبار مزيَّنة بالذهب إفرنجية، ترامسها من جنس صنعتها، عددها أربع وعشرون تُرمُسه، في شراك مكسو بديباج تُستَريّ

أَخضر، ومهماز ذهب، محبب الأَعمدة منظوم الأَطراف بلألىء كبار ومنطقة ذهب في صنعة حزام شراك صينيّ عراقي، منظوم بلأَلىء كبار حوالي ترامسها وعند طرقها، عدد الترامس أربعة وعشرون ترمسة، بطَرَف مزيّن، وابزيم في طرفها المرسل ثماني ترامس موصولة الأَعلى، حوالي الطرف لؤلؤ كبار، قد زين بأحجار ياقوت رفيعة القيمة.(2)

لم يكن ذلك الخطابَ الأَولَ والأَخير فقد تبعت هذه الرسالة رسائل أُخرى قدّم له ابن خزر فيها أبناءه القادة : الخيْر وعبد الله ومسعود.

وبالطّبع كان النّاصر لا يهمل أيّ خطاب يأتيه من أصدقائه في العدوة، فكان يعجّل بالجواب ويمعن في الملاطفات والمتاحفات، الأَمر الذي جعل من ابن خزر مراسلاً دائماً يخبر بما يجد في الساحة المغربية وبخاصة (تاهرت) «دار الفاسقين وكهف المتمردين» كما تقول الرسائل التي لم تنفك آخذةً طريقها إلى قصر بني أُمية بما يصحبها من هدايا كانت قمةً في الدلالة على درجة الرفاه والحضارة التي كان ينعم بها المغرب وبما يتبعها عادةً من أجوبة إشادة وتنويه وتحفٍ وهدايا...

ومن ألمع السفراء الذين كانوا يترددون من دار الخلافة على الزعيم المغربي ابن خزر أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبي عيسى الذي كان يحسن السفارة ويحكم التدبير...

ولم يتردد الخيْر بن محمد بن خزر نفسُه في مكاتبات الخليفة الناصر بما يجري من الحوادث سواء في ساحل المغرب الأَوسط أو الأَقصَى فكان الناصر بدوره لا يترفع عن التنزل للقائد الفتي مشجعاً له على المضي في مقاومته للشيعة !

---

2) المقتبس ص 268 ـ 269.

وقد ورد في خطاب من الخيْر بن خزر إلى الناصر نعت الزعماء الشيعة بأسوأ النعوث وأغلظها مستنزلاً عليهم اللّعنات في كلّ مناسبة !

وقد كان من الذين وردت أجوبتهم في هذه السنة 317 إلى أمير المؤمنين الناصر لدين الله، الأمير منصور ابن سنان الذي شفع خطابه بطائفةٍ من الهدايا منها الخيل والإبل والنعم والغزلان، الأمر الذي أحسن الناصر الجواب عنه استجلاباً للزعيم المغربي...

وقد كان في صدر الذين نبذوا دعوة الشيعة وتقدموا برسائلهم إلى الخليفة الناصر موسى ابن أبي العافية الذي خشي مغبة تصرفاته السابقة إزاء الموالين للأندلس، فبادر بالتوبة بل إنه أخذ يُسرف في إظهار الطاعة حتى ينسى قادة الأندلس ماضيَه !

وقد كان من الخطابات التي بلغت للناصر خطاب من إمارة نكُور بإمضاء صالح بن سعيد وقد قرئ كتابه بجامع قرطبة وحملت نسخ منه إلى سائر بلاد الأندلس... وأَمَرَ الناصر - على ما يُفَصِّله البكري - بإمداد صالح بما يجلّ من الأخبية الشريفة والآلة العجيبة والأكسية الرفيعة والسروج والحلي والبنود والطبول والدروع وجميع السلاح...[3]

3) البكري : كتاب المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، طبع باريز 1965 ص 97.

موقف الأدارسة من الأمويين

- □ تجاهل الأدارسة لكل الدعوات التي تهدد كيانهم.
- □ اتهام الأدارسة من قبل الأمويين بمساندة العُبيديين لتبرير احتلال مواقعهم !
- □ صاحب أرشقول : إدريس حفيد سليمان يقف في صف ابن خزر الوالي الأموي في ديار المغرب...
- □ صاحب أصيلا القاسم بن إبراهيم ينضم إلى المناصرين...
- □ الأمير الحسن بن عيسى يبعث بهداياه للناصر...
- □ بنو محمد بن إدريس يرفضون الأمويين ويزحفون مع أنصارهم إلى سبتة لمحاولة منع الأمويين من النزول بالثغر المغربي !
- □ الانهزام أمام الأسطول الأموي...
- □ شجب عمل بني محمد بن إدريس من لدن بقية الأشراف وسائر رؤساء غمارة...
- □ تندم بني محمد بن إدريس وإرسال سفارة منهم للاعتذار للناصر !
- □ الوفود تتوالى لتقديم التهاني لاحتلال سبتة من لدن الأمويين !
- □ قبول الناصر لاعتذار بني إدريس وتكليف ابن أبي عيسى بأخذ البيعة منهم.
- □ الأدارسة يطلبون من والي سبتة أن لايتعدى حدودها ولا يستقبل أحداً من رعايا الأدارسة !!

موقف الأَدارسة من الأُمويين

ولا نشكّ أبداً في أن الملوك الأدارسة كانوا في صدر من حاول الناصر أن يكسب وذهم، وبالرغم من آننا نجهل الطريق التي سلكها لتحقيق هدفه، فإننا على مثل اليقين من آن محاولاته كانت تلقى تجاهلاً إن لم تكن تسبب الشعور بالحذر واليقظة مما يقصد من مثل تلك المراسلات التي دوّى صداها في العدوة... لقد كان كلّ بني إدريس يصممون العزم على عدم الرضى بأن يذوبوا في آي كيّان !

وإذا كان ابن حيان قد تعرض لموقف معظم إمارات المغرب من نوايا بني أُمية فإنه شَعَرَ، فيما يتعلق بالإمارات الإدريسية، بأنها ليست كسائر الإمارات الأُخرى انقياداً واستسلاماً بالرغم مما كان يحتف بها أي بالإمارة الإدريسية من ظروف وصروف !

ولهذا وجدناه يخصّص فصلاً في مقتبسه لتقديم بني إدريس والحديث عن أُصولهم في المشرق وكيف انتهى إدريس إلى طنجة حيث أسس له إمارة...

إن سائر الذين عاشوا بالأَندلس على ذلك العهد إنما كانوا يعرفون المغرب عن طريق طنجة، فهي تعني عندهم أرض المغرب كله، وإلى طنجة كانت نِسْبَة المغاربة بالأَندلس كما يقول ابن الخطيب، فهم ينعتون الجند المغربي بالجند الطنجي على نحو ما سنسمعه بعد حين من إطلاق لفظ مراكش أو فاس على بلاد المغرب كلّه..!

عندما كان المؤرخ ابن حيان يتحدث عن نوع العلاقات الأُموية الإدريسية كان يتحدث بلسان الخلفاء بالأَندلس، فهو يذكر أن العصبية

«... فان كتابي، أبقى الله أمير المومنين، من بلد الساحل من مدينة تسفا[1] المشهورة بمدينة العلويين، وهي مدينة حصينة أولية متوسطة للمراسي التي تقابل مراسي الاندلس، وهي منتظمة بها وقريبة منها، وهي بغربي تاهرت دار الفاسقين وقريبة منها، بينها وبينها ثلاثة أيام، وانما بيننا وبين المراسي أقل من يوم، وإنما ذلك بعد انتقالي من بلد الغوط بالاهل والولد والأصحاب والحشم والعبيد والموالي وأهل ولايتنا وصنوف رعيتنا وضروب أهل طاعتنا والخاصة والعامة لدينا، انتقلنا إليها بقبيلتنا وجماعة من قبلنا، ولم نخلف بعدنا أحداً من مذكور رجالنا وحماة أنصارنا وجماعة فرساننا ووجوه عشيرتنا، فهم معنا وبين أيدينا، لم ينحل لنا نظام، ولا دخلتْنا فرقة، بل جميعنا مستعدُّون بدعوتك، ومعتصمون بطاعتك، ناصحون لك محبون لأيامك ودولتك المباركة التي مَن تمسك بها كان له الأمن والسلامة في دنياه وآخرته، ومن صدّ عنها وابتغى سبيلاً غيرها نزل به الذل والصغار، وقارنه الخِزي والهوان.

والذي أردتَ علمه، أبقاك الله، من خبر خروجنا عن البلد الذي كنا نحله وسبب انتقالنا عنه فإنه لم يخرجنا عنه خصاصة ولا أزعجتنا مذلة ولا تخوف ولا خِزية ولا تغير حال ولا شدّة، وإنما خرجنا عنه بقضاء الله حبنا الدنو منك والتسنم لك لما نحن عليه من حسن الطوية لك وصدق النّية فيك ومحض المودة لك وبجميع من تعلّق بك وانتسب إليك، وذلك أنا كنا عن أُفقك قبل اليوم نازحين، وعن مواصلتك شاحطين، لابتعاد الدار بنا وانتزاح التنائف بيننا على (أن) شحط الدر وبُعد المشقة مما لايُقصي بذي الهمة من الرمي بهمته، ولا يردُّ ذا العزيمة

---

1) كذا بالأصل، وربما كانت مدينة سيقا العتيقة التي كانت توجد على الضفة الشرقية لنهر تافنا غير بعيدة عن مصبه بالبحر المتوسط. المقتبس ص 300 ـ 301.

دفعت بأكثر بني إدريس إلى مساندة دولة الضلالة الشيعية المدعية بحق الإمامة... وهو يذكر مع ذلك آن أصحاب تلمسان من الأدارسة، وهم بنو سليمان، جاهروا، على العكس من بني عمهم، بولائهم لبني أُمية !

ولابُدَّ قبل آن نسمع عن استِسلام بني إدريس أن نعرف جَيِّداً عن العمليات العسكرية التي كان موسى بن أبي العافية يقوم بها في سائر جهات المغرب ضد بني إدريس بدون استثناء ! وفي كلّ اتِّجاه ! حيث وجدناهم يركضون من جَرَّاوة إلى جزر ملوية إلى أَرشَقُول...

أرشقول

ووليها (مدينة أرشقول (Archgoul))[1] بعده ابنُه يحيى بن إبراهيم بن عيسى بن إدريس ابن محمد ابن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو الذي حبسه أبو عبد الله الشيعي سنة 323 = 935.

ويقابلها (أرشقول) جزيرة في البحر تسمى جزيرة أرشقول وإليها نجا الحسن بن عيسى بن أبي العيش صاحب (جراوة) وتخلّى عما كان بيده لما غلبه على ذلك موسى ابن أبي العافية... فكتب موسى ابن أبي العافية إلى صاحب الأندلس عبد الرحمن ابن محمد يسأله نصرته عليه...[2] فأمر عبد الرحمن أهل بجّانة[3] وغيرهم من أهل السواحل بإقامة خمسة عشر مركبا حربيا ثم جهزها بالرجال والسلاح والأزودة والأموال فأحاطت بهذه الجزيرة وقتلوا كثيراً ممّن كان فيها، وحاصروهم حتى كادوا يهلكون عطشاً لما نفدت مياه جبابهم حتى تداركهم الله بغيث وابل فلم يطمع فيهم أهل الأسطول حين سقوا وانصرفوا قافلين فوصلوا إلى ألمرية في شهر رمضان سنة 20 = شتنبر - اكتوبر 932م، ثم ظفر البوري بن موسى بن أبي العافية بالحسن بن عيسى الذي لجأ إلى أرشقول وبعث به إلى عبد الرحمن بن محمد سنة 338.

1) قرية على ساحل تلمسان على الضفة الشرقية لمصبّ نهر تافنة أمام الجزيرة إلى تحمل نفس الاسم.
2) كان واسطته لدى عبد الرحمن، عبد الملك بن أبي حمامة الذي عزز الطلب لدى الحاجب أو الوزير الأول موسى ابن محمد بن جبير. انظر الترجمة الفرنسية للبكري.
3) Pechina d'Almèria

لقد وجدنا في سنة 316 = 928 خطاباً من صاحب ثغر أُرْشْقُول الأمير إدريس بن إبراهيم الحفيد الثالث لسليمان إلى الناصر يقدم له الطاعة ويبعث إليه بالهدايا السنية من الخيول والإبل والحيوانات الغريبة...

إن الإمام إدريس بن إبراهيم يؤكّد مباعدته للشيعة ومناصرته للزعيم ابن خَزَر السالف الذكر وهو يصارح بأنه يخرج عن جميع بني عمه الآخرين !!

«... قد انتهى إلى أمير المؤمنين سيدي مباعدتي للكلب السَّوء اليهودي الخنزير المبدّل لدين رسول الله ﷺ المعلن الكفر الجاحد للتنزيل وقيامي مع ابن خزر ولي أمير المؤمنين، عليه وخروجي عن جميع الحسنيين قومي في منابذته واجتناب طرئقه، وإني لم أدخل له قط مدخلا، ولا أقمت له عندي علماً، مع نصبي له ونكايتي لشيعته وقتلي لرجاله ومقْتي لذوي محبته، وأرجو عند قيامي بدعوة الإمام سيدي أعزه الله ونهوضي برايته أن تكون كلمتي العليا ويدي الطولى بنعمة الله ومنته».(1)

وتتجدّد الخطابات من الأَمير إدريس حفيد سليمان عام 317 = 929 إلى رجال دولة النَّاصر وهو في خطابه هذه المرة إلى الحاجب موسى بن حُدَير يفيد أن بني عمه أعلنوا التبرؤ منه بل إنه يخبر الحاجب ببعض الذين كانوا وراء تأليب بقية بني إدريس ضد الدعوة الأُموية ممن كانوا يوالون عُبَيْد الله الشيعي..!

...كُنَّا أعزك الله نفراً من قريش في هذا الصقع من بلد البربر الذي رمت بنا الأَقدار إليه أبناء رجل واحد : محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه صالحاً ذات بيننا لا

---

1) المقتبس ص 263.

مدخل لأحد فيه إلا من طريق الإصلاح، إلى أن فرق الله مَلأنا بقيام هذا الدّعي الغوي صاحب إفريقية وافتتان أكثرنا بالتعصب له، فلما أن نجاني الله من ضلالته، وعصمني بولاية أمير المؤمنين-سيدي وحباني بمحبته، تسامع بذلك بنو عمي وبلغهم ما صنعته في ذاته، أيده اللهفتبرأوا مني وتمالأوا علي ورموني عن قوس واحدة، وقالوا : ليس هذا الرجل منا إذ فارق دعوته إلى ضدها، وخرج من عترة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه إلى عُدَاتها ؟ وعادى أهل بيته استجاش عليها بصاحب جزيرة الأندلس شانئنا، وذلك شيء لم يرض به قط أحدٌ من أهل بيته ولا فعله جده ولا أبوه، فصاروا لي حربا وآذوني جدا، وإنما الباعث لهم علي ذلك والمتوكل بتأليبهم عليَّ محمد إدريس وابن أخيه الحسن بن عيسى المعروف بابن أبي العيش الإدريسيان أخذهما الله بما قطعاه من رحمي وأخفراه من ذمتي، وإنما ذلك من أجل ولايتهما للدعي الشيعي، مَن لا أصل له ولا خير فيه، حمية جاهلية وعصبية مُردية، فالدعوة عندهما له قبحه الله وقطع دابره، ثم وحقِّ قرابتي برسول ﷺ ما أجبت دعوته منذ قامت، ولا عوليت له عندي راية، ولا ذكر لي على منبر ولا في مسجد منذ حلت فتنته عراها، وما زلت أخاف عادية ذلك وأصبر على مكروهه احتباساً حتى أخذت بالعروة الوثقى من ولاية سيدي أمير المؤمنين وعُدَت بدعوته المنصورة).[2]

وإلى جانب هذا الأمير انحاش للناصر كذلك من الأمراء الأدارسة صاحب أصيلا القاسم بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس الذي كانت لوالده إبراهيم مراسلاتٌ مع عمر ابن حفصون الثائر بالأندلس[3] فقد توجّه بدوره بخطاب سنة 317 = 929 مصحوباً بهدايا للنّاصر :

---

2) المقتبس، نشر شالميتا ص 263 ـ 264.

3) ابن عذاري I ر 233.

أصيلة والنورمانديون

«... وكان سبب بنائها (أي أصيلة) أن المجوس خرجوا في مرساها مرتين، فأما الأولى فأتواقصدين وزعموا أن لهم بها أموالاً وكنوزا فاجتمع البربر لقتالهم، فقالوا : لم نأت بالحرب وإنما لنا كنوزٌ في هذا الموضع فكونوا ناحية حتى نستخرجها ونشاطركم فيها إلى آخر حكاية البكري الذي يفيد أن المجوس ساروا بعد هذه المحاولة إلى الأندلس فخرجوا بإشبيلية سنة 229 = 844/843 في أيام الإمام عبد الرحمن بن الحكم. وأما خروجهم الثاني بأصيلة فبسبب أن الريح قذفت بهم في ذلك المرسى من الأندلس وعطلت لهم على باب المرسى من ناحية الغرب مراكب كثيرة ويعرف ذلك الموضع بباب المجوس إلى اليوم...

من البكري ص 111 بالفرنسية ص 219

(... ووالله يا أمير المؤمنين ما أعلم على وجه الأرض أحداً أعرف بما أوجب الله لك مني، لأنّي ما قمت بدعوتك إلا تَقَرُّباً إلى الله تعالى وتوصلاً إلى قتال كفار المشارقة[4] بحقها وصدقها، فقد يعلم الله تعالى أني لم أتعرض للمشارقة، أهلكهم الله على يدك، ما تعرضوني، كما أني كففت زماناً عنهم قبل استحكام البصيرة فيك، فكفوا عني ورضوا بذلك مني، حتى رأيت أمرهم قد عمّ الناس شره، وقد حاولوا أن يبطلوا نور الإسلام بما كادوا به أهله، فاستخرت الله في جهادهم، وقمت أدعو رَبي في جوف الليل في التوفيق والتسديد، وأن يخير لي وللمسلمين في مناهضتهم ويكشف عنا ما أغمنا من غيِّهم وشرهم، وفكرت في إمام اعتلق حبله وأكون على بينة من أمري في الدعاء إليه وقد تشبثت في حبال المُسوِّدة من بني العباس، واستدعاني أخي المقيم عندهم بمصر، وأتتني كتب تِكين التركي[5] صاحبهم بمصر في أول الأمر يروم ثنيي إليهم واستجلابي نحوهم، فعصمني الله من ذلك باتّباع الحق وأخذي برأي الناصح المرشد، وإصغائي إلى ما أوضح من الأمر حتى علمت يا أمير

4) يعني بالمشارقة العُبيديين. المقتبس، نشر شالميتا ص 265-206.

5) هو أبو منصور تِكين بن عبد الله الخزري عامل مصر، المصدر السابق.

المؤمنين آنك أحقّ الناس بالخلافة، انها بيدك ميراث لا ينازعك فيها إلا من دفع الحق وعصى الله ورسوله.

فاطّرحت الهوداة وآثرت الحق وهربت بنفسي إلى أمير المؤمنين بنية صادقة وبصيرة نافذة وبرئت من الناس إلا منه ودفَعْتُ الإمامة إلا هو. ورجوت أن ينصرني الله تعالى به وعلى يديه وأن ينظر في أمري وأمر المسلمين من أهل إفريقية المضطهدين النظرَ المأمول منه حتى يكشف الله تعالى عنهم ما هم فيه من البلاء والردة، وأن يعزنا الله تعالى معشر زناتة بهذه الدعوة الحق المنصورة حتى تعرفنا على جميع الناس بها، فنكون أولياء دعوتك وأنصار دولتك، فإنك يا أمير المؤمنين مولى كل بَرْبَري على الأرض، إذ ببني أُمية هداهم الله للإسلام، وعساكرهم هي التي أدخلتهم فيه، وأخرجتهم من المجوسية بإذن ربهم، فمن كفر منهم هذه النعمة فهو كافر بالله ورسوله موليها، ثم لا يقبل الله له صرفاً ولا عدلاً، ووالله ما حابيناك يا أمير المؤمنين بالإقرار لك، إذ وجدنا الحق في يدك والإجماع من الناس على أَنك أولى بالخلافة من كلّ من ينتحل اسمها معك، كذلك يشهد لي كلّ من تقدم إلينا من المشرق من نواحي إفريقية، فكلُّهم يشكر فعلي ويقر لي بأن الحق معي، وبه أحمد رأي من نصحني وبالحقّ عرفني وعليه حَضّني، حتي تِكّين صاحب مصر فقد رضيه وسرّه وما ساءه، فالحمد لله على هذه النّعمة التي جعلني من أهلها ووفقني لقبولها).

وقد قام الخليفة بالجواب على هذا الخطاب وتقديم الهدايا كذلك.

وكان الأَمير الثالث من الذين عدلوا عن معارضتهم وأنابوا للنّاصر سنة 318 = 930 وبعثوا له بخطاب الولاء : الحسن بن عيسى الذي شفع خطابه بهدية سنية تحتوي على نيّفٍ وعشرين فرساً من جياد الخيل المغربية، إلى ثلاثٍ وعشرين من كرام الإبل، منها جَمَل كامل الخلقة من

مطايا الملوك، عليه عمّارية مكللة بالفضة يكسوها ديباج، من ديار الفرس ومنطقة محلاة بالفضة علاوة على الغزلان والنعام مما لم يَهْدِ أمير من أمراء المغرب مثله...

وقد قابل النّاصر هذه المبادرة من الأمير الحسن بن عيسى بما كانت تستحقه لديه من توسيع في المكافأة بل إنه عقد له الولاية على ما كان من تحت إمرته بالمغرب...

ومن جهة أخرى فإننا لا ننسى عملاً آخر على ساحل البحر المتوسط ذلك بناء محمد بن إدريس عام 317 للمدينة المعروفة بحجر النسْر استعداداً للطوارئ !

☆ ☆ ☆

وبعد كلّ تلك الإتّصالات مع الزعماء المغاربة بمن فيهم بعض بني إدريس، شعر الناصر بأن الوقت حان لعبور البوغاز لحماية ظهر حلفائه من جهة، والاستعداد للخطوة القابلة من جهة أخرى.

وهكذا ما حلت سنة 319 = 931 حتى كان الأسطول الأندلسي على أتمّ الاستعداد للتحرك !

وعلى العادة المتبعة في مثل هذه الظُّرْوف، فقد قرأنا في المصادر التاريخية الأموية عن «تشكي» المغاربة من سيرة بعض آل إدريس لائذين بالناصر الذي لم يسعه إلا أن يستجيب لرغبات جيرانه «المشتكين» ويحتلّ سبتة حيث وجدناه يدخلها يوم الجمعة أول ربيع الأول سنة 319 = 24 مارس 931 متغلباً على الرضى بن عصام وإليها من قبل الأدارسة ! وينفذ الكتب إلى جميع أهل ولايته بمن فيهم الزعماء المغاربة الذين كانوا يوالون النظام الأموي، وقد أبلَغَ أيضا بعضَ الزعماء الأدارسة ممن كان يتوقع منهم الترحيب لمبادرته...

لقد كان بنو إدريس يُرهفون بأسماعهم إلى استعدادات النّاصر وخاصة منهم الذين يقتربون من المعبر من أمثال الأمير إبراهيم ابن محمد ابن إدريس ومن معه من إخوته الذين لم يتحملوا هذا الإحتلال، الأمر الذي يفسره زحفهم على الثغر المغربي : سبتة لهدف إجلاء الأمويين..! كانت المحاولة عبثاً بل إنها أساءت إليهم حيث إنهم كتبوا يعتذرون عن صنيعهم.

لقد كان مما ورد في رسالة بني محمد بن إدريس الفصل التالي الذي نقله ابن حيان في المقتبس :

(... وقد أنعم الله بك يا أمير المؤمنين في أن صَرَف همتك إلى ناحيتنا، ووكل عزمك بعدوتنا، فلقد كنا نتمنى ذلك ونستبطئه منك، إلى أن تمَّم الله عزمك ويسرك بتوفيقه إلى ما نرجو أن نرتقي فيه على يديك إلى أفضل الخطط وأشرف المنازل، وذلك أن بلد البربر الذي نحن به، أعز الله أمير المؤمنين سيدنا، لِقومٍ ملكوا أنفسهم من زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وجرت عادتهم على جحد السلاطين ودفع الأئمة والغدر بالولاة والتوثب على العمال والملك لأنفسهم والإستبداد لآرائهم إلى أن دخل إليهم جدُّنا إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنه هارباً من عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الملقب بالمنصور بعد أن قتل أخويه محمداً وإبراهيم ابْنَيْ عبد الله بن حسن بن الحسن وشرد أهل بيتهم، فلما صار جدُّنا إدريس إليهم واستجار بهم أجاروه وأوجبوا حقه ووضعوا له في بلدهم فرضاً توسط به ما بينهم من الأحكام من غير أن يضبطهم ضبط السلطان، ومضى لسبيله، وقد تناسلنا منه وقمنا مقامه وسلكنا سبيله، فالبربر إلى اليوم على عادتهم الأُولى معنا : إن هممنا بتشديد السلطان عليهم هربوا عنا ونفروا منا واتخذوا الحصون علينا، فمرة نذهب إلى محاربتهم وتارة نؤول إلى مداراتهم، ولا نطمع مع الأيام في ضبطهم

وكفّ عاديتهم، إلى أن كان وقته بدنو الأمر الذي شرع فيه سيدنا أمير المؤمنين بالرأي الذي هم به، وعزم عليه من ملك عدوتنا ومد ظله علينا، فلا شيء أسرّ لأنفسنا ولا أجمع لآمالنا منه، فإلى إمامنا وسيدنا نرفع رغباتنا ونوجه طلباتنا في إتمام عزمك وتسديد فعلك وتثبيت بصيرتك فيما ألهمك الله إليه ووفقك له، فنحن أعز الله أمير المؤمنين، سيدنا ممن لا نرغب بأنفسنا عنك ولا نحيد عن سَنَنك، فمُرْنا بما أحببت وناهضْ بنا من أردت، فنحن جند لك على أعدائك ومسارعون إلى ما يسرك فلا تشك في طاعتنا، ولا ترتب بمحبتنا وولايتنا، فبالله الرحمان الرحيم عالم الغيب والشهادة وكل يمين أوجبه الله في الكتاب مما لا كفارة له إلاّ بالوفاء به، وكلّ ما نمتلك على المساكين صدقة لا نحاشى في ذلك عقاراً ولا رباعاً، وعلينا عهود الله المؤكدة ومواثيقه المغلظة، وعلينا المشي كل واحد منا ثلاثين حجة، وكلّ مملوك نملكه حر لوجه الله العظيم، وجميع أيماننا هذه على الطواعية معقودة على الواحد منا والجماعة، لا نقضنا لك بيعة ولا سعينا معك بغش ولا كيد ولا مكر ولا خديعة ولا حيلة، ومعاذ الله أن نرضى ولكننا ذهبنا إلى تطييب نفسك وتنقية قلبك وإثلاج صدرك، والذي اعترفنا به لك غير مستنكر علينا، لأنّا لم ندخل البلد عن افتتاحٍ افتتحناه ولا عن ميراث طلبناه، مع الذي تقدم من فعل جدّنا الحسن بن علي رضي الله عنه في التسليم لسلفك وما مضت عليه جدودنا من البيعة لأجدادك رحمهم الله أجمعين.

وبعدُ، أعزَّ الله أمير المؤمنين، فإنه قَدِم جندك علينا بسبْتة بغتة، لا نعلم معنى الأمر فيه ولا المذهب إليه، فخفَّ البربر الذين يلونها إليهم واسْتَبقوا إلى محاربتهم، فلما تكافأت الحرب بينهم واستنصرونا عليهم واستنهضونا للقيام معهم برجالنا وموالينا، وزعموا أنه إنما قدم إلى ما هنالك عامل الجزيرة الخضراء فيمن خف معه متطاولاً إلى ذلك من ذاته

دون إذنك ولا مذهبك، فتوقفنا عنهم طمعاً في أن يقدم إلينا من عندك كتاب أو رسول إلى أن طال الأمر علينا، فنهضنا بأنفسنا لاستبانة الخبر، فنادانا القوم من أعلى السور بأنهم جندك وأنك أنت الذي بعثتهم، وسألونا أن نكتب إليك لتعرفنا حقيقة الأمر وجلية الخبر، فصرفنا عند ذلك عسكرنا عنهم، وأمرنا من يليهم من البربر بمسالمتهم إلى أن يرد كتابك علينا، فما تطلبه منا وترغبه عندنا فمُرْنا بأمرك يا سيدنا نطعه، فإنما نحن قوادك وعبيدك وأنصارك على من ناوأك، وأولى الناس بتأييدك وحماية سلطانك فارم بنا حيث شئت، وناهض بنا من أردت، واندبنا لمن قصدت تنل نصحاً وكفاية وتختبر تبصرةً وصاغية نرجو بها قضاء حقّك ونيل الحظوة لديك وابتناء الشرف الذي يبقى لنا ولأعقابنا بعدنا إن شاء الله تعالى).

ومن دهاء الخليفة الناصر أنه أظهر تصديقهم وسار معهم في نفس الجو الذي كانوا يرتاحون منه، وعهد إلى وكيله وسفيره الشهير محمد بن عبد الله ابن أبي عيسى فأخذ عليهم البيعة للناصر بتاريخ آخر جمادى الآخرة عام 319 = 19 يوليه 931 وعاد يحمل من لدنهم خطاباً جديداً للخليفة :

(... وبعد فإنّه قدم علينا يا أمير المؤمنين رسولنا مع أمينك محمد بن عبد الله بن أبي عيسى مؤدي كتابك الكريم، فقرأناه وفهمنا ما ذكرت فيه، ونحن، أعز الله سيدنا أمير المؤمنين، على محض المحبة وخالص المودة وغاية المسرة باتّصالنا بك ودخولنا في كفنك، وقد سارعنا إلى كلّ ما رآه أمينك من عقد الأيمان المؤكدة وإعطاء العهود المغلظة التي حملناها على أن نوالي من والاك ونعادي من عاداك، ونكون يداً واحدةً وكلمةً متّفقةً على من حادّك وناوأك، وقد أمرنا إقامة الدعوة لك على جميع منابرنا في كل عملنا، وان صاحبك بسبتة إذْ

عاهدناه بأمرك، اشترطْنا[6] عليه بمحضر رجال البربر لدينا أن لا يقبل أحداً من رعيتنا يأتيه ولا يضمه ولا يأويه، ولا يخرج نظره عن باب سبتة ولا يعدوه، ثم لم يلبث أن داس بالعهد واستدعى قوماً من رعيتنا يقال لهم بنو وامضة ؟ أتوه فآواهم إليه بعد عهدنا، وكلّمنا الأمين محمد بن عبد الله في ردهم إلينا وفاء بشرطنا فتثاقل عن ذلك ودعا إلى استطلاع رأيك يا أمير المؤمنين فيه، فقد عرفناك أيدك الله بما سبق منه ولا سبيل للتأويل علينا، فليس لدينا إلاّ الإستقامة على الطريقة والوفاء بالعهد، وبدءُ صاحب سبتة بالتقصير، ممّا يخيّب النفوس ويفسد الضمائر، ويظهر للناس الرغبة علينا في اليسير الحقير الذي في أيدينا، ونحن جند قد اتخذه أمير المؤمنين لنفسه من غير مرزئة تلحقه مع أنا أهله ولحمته، وإنما رجونا أن يوسع الله علينا به ضيقتنا بسببه، وأن يفتح له على أيدينا ويفتح لنا على يده، ويربح دولته المباركة التي قد شمل خيرها وبركتها، برأي أمير المؤمنين، في الكتاب إلى عامله بسبتة في تغيير هذا الفعل والتوقف عنه فإن في ذلك صلاحَ الخاصة والعامة إن شاء الله).

ولا ننسى أن نذكر أنّ زحف بني محمد بن إدريس على سبتة قوبل بالشجب والاستنكار من آل عمر بن إدريس ومعهم بعض بني عمهم حيث بعثوا برسالتهم وبيْعتهم التي كانت بتاريخ رجب 319 = غشت 931 وكانت مذيلة بأسماء إبراهيم وعيسى وأبي العيش بني إدريس بن عمر بن إدريس إضافةً إلى ابن عمهم يحيى بن محسن بن القاسم ومع كلّ هؤلاء رؤساء قبائل غمارة...

(وقد سبق كتابنا إلى سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نصف له قضيتَنا مع عامل أمير المومنين الجائز بقوته أعزه الله إلى مدينة

---

6) المقتبس : ص 297 ـ 298.

سبتة وسرورنا بذلك وابتهاجنا له، وما كان من مسارعتنا إلى بيعتنا سيدَنا أمير المؤمنين وأخذها على ما قِبَلنا واغتباطنا بما وهبه الله تعالى لنا من ذلك، وألهمنا من السباق إليه، وانا أجبنا داعيه وقمنا إلى نكاية أعدائه، ولا نأمن سلطان بني عمنا بني محمد المباينين لنا، إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه الذين زحفوا إلى مَن بسبتة من جنوده المنصورة، إذ هم أهل الإنكار لدعوته والدفع لبيعته والكراهة لدولته والمناهضة بالعداوة لجنده، وكنا، معشر وُلد عمر، على خلاف ذلك من الصَّغْو له أيده الله والميل إليه والاعتراف بحقه، والشكر لله تعالى على النعمة بسلطانه.

وكان ورود كتاب أمير المؤمنين سيّدنا أيّده الله... علينا يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ربيع الأول، فأسرعنا الخروج لمباطشة عدوّه ومنابذة كل من نابذه يوم السبت ليومين مضيا من ربيع الآخر بعده، فنحن من يومئذ، والله الغاية، في مقابلة كل من اعترضنا دون عامله وصدّنا عن سبيله، فمِن مستجيبٍ لبيعة أمير المؤمنين، باخع بطاعته قَبِلْنَا فيئَته، وأخذنا بيعته وبشرناه وأعلينا درجته، ومن مضراب كاره مدافع حَطَّمنا بالسيوف أنفه وشققنا جبينه، حتى أجاب الدعوة صاغراً ولاذ بها كارهاً بعد القتل المبيد وخراب الديار وهتك الأستار وانتهاك الحرم وانتساف الأموال ومن هارب شرّدناه عن وطنه يُعدمه الفقر ويقفوه الذلّ، فنحن على ذلك من شأننا نمضي قدماً على وجوهنا، وكتبنا متواترة على العامل بما يشدّ أزره ويقوي نفسه ويفرّج روعه، ويفرح قلبه، من الظهور على من جَاش به والفض لمن تألب عليه، إلى أن جاءنا كتابه بخبر مسالمته لأولاد محمد أضدادنا يوم السبت لثمان خلون من جمادى الأولى، وإنما كان بيننا وبين سبتة يومئذ نحو بريد، وقد وطَّأنا الطاعة بما اخترناه، وأخذنا الرهائن ممن عاقدناه، فلم يمكنا التمادي على رأينا في الحرب، إذ قد سالم عامله وأمينه، وقُمنا في

وُجهة من عدوه، إذ كنا أهل سمع وطاعة له أعزه الله نقوم بقيامه ونقعد بقعوده، ونحارب من حاربه ونسالم من سالمه، ونُوالي من والاه ونعادي من عاداه، ونقف عند أمره ونهيه، فرجعنا عند ذلك إلى مواطننا، واشتغل الناس بزراعتهم، ونحن على أصح عزمٍ فيما قمنا به من أمر أمير المؤمنين سيدنا، أبقاه الله، واغتباطٍ بحظنا من دولته السعيدة، لا نحول ولا نتبدل ما جرت بنا مدّة الحياة، وبالله نستعين وعليه نتوكّل، ونحن، أعز الله أمير المؤمنين سيدنا مستمعون لما يأتي من رأيه في أمر بني مُحمد، ثم يكون منا السمع والطاعة والانقياد لأمره كائناً ما كان.

فليعلم أمير المؤمنين أيده الله حقّ انقطاعنا إليه ومسارعتنا إلى إجابة داعيه قبل كل ذي روح ببلدنا، ولينفعنا ذلك عنده، فلكلّ عمل ثواب، ولابدّ لكل عامل أن ينفعه عمله لدنياه وأخراه، ثم ليخفّ عليه أعزه الله الأمر بجواب كتابنا لتطيب بذلك أنفسنا وتُفرج له قلوبنا وتزداد اغتباطاً بما نحن فيه إن شاء الله عز وجلّ).

ومن خلال سطور الخطاب الذي وجهه بنو عمر نرى أثراً للرسالة التي كان الناصر بعث بها، وجيشه يتصدى لمحاولة بني محمد منعَ الأمويين من احتلال سبتة !!

☆ ☆ ☆

ومن خلال هذا الخطاب أيضا نجد أثراً لرسالةٍ ثانية بعث بها الناصر لبعض الزعماء الأدارسة عن تمكنه من مدينة سبتة...

وقد كان المهم من قضية احتلال سبتة أنّ الأدارسة بالرغم من إعلان ولائهم للناصر في التاريخ الذي ذكرناه، إلا أنهم مع ذلك كانوا يَتَحَسَّبُون جداً لمستقبل العلاقات، وهكذا وجدناهم يتقدمون بشروطٍ لعامل الخليفة على سبتة أُمية ابن إسحاق القرشي بمحضر الزعماء المغاربة كان في

أبرزها أن لايمد العامل بصره بعيداً عن باب سبتة ! وأن لا يستقبل أحداً من رعية بني إدريس !

ومن هنا وجدنا المخاطبات تتوالى من قبل الأمير الإدريسي للخليفة الأموي حتى يحملَ عامله بسبتة على احترام العهود والمواثيق وعدم التقصير فيما أخذه على نفسه من التزامات على ما أسلفناه[7]

ولقد كان احتلال سبتة فرصةً لمقدم الوفود التي تزف التهاني، كما أنه كان مناسبة لانطلاق الشعراء من الذين يعملون في بلاط قرطبة من أمثال عبيد الله بن يحيى بن إدريس[8] الذي قال في جملة ما قال :

بسيفك دانت عنوةً وأقرتِ	بصائرُ كانت بُرهة قد تولتِ
وما قرّبت أهواؤها إذ تقرّبت	ولا حُلّيت بالزي لما تحلّتِ
فهذا أوان النصر منها، وهذه	بشائره تُروي الأنامَ بسبتة !

7) المقتبس : ص 297 ـ 298.

8) ابن عذاري : البيان المغرب I، 201،.

نحو المشرق لاسترجاع ميراث الأَسلاف !؟

- □ عبد الرحمن الناصر يخطط للزحف إلى المشرق.
- □ تعبئة الزعماء المغاربة لتحقيق الهدف.
- □ حديث الأَمير الزناتي ابن خزر عن الأَمل في الوصول إلى العراق.
- □ الأَمير ابن خزر يرشح نفسه للقيام بالمهمة.
- □ عمل النـاصر على إصـلاح ذات البين بين أنصـاره المتنـافسين : أمير زناتة ابن خزر وأمير مكناسـة ابن أبي العـافيـة حتى يجمع صفوفهم ويعدهم للهدف الذي ينتظرهم.
- □ النجدة المغربية للمشرق عند غارة القرامطة على مكة !
- □ ابن خزر وابن أبي العافية يتلقيان خطابات تؤكـد عزم الخليفـة على إنقاد الحرمين الشريفين، بعدما ظهر من ضعف العباسيين !!
- □ توالي الاستعداد البري والبحري لقصد ديار المشرق...
- □ تعزيز الجبهة الداخلية بجيش أندلسي بقيادة قاسم ابن طملس وإشادة الخليفة بشهامة المغاربة وصدقهم، وتشهيره من جهـةٍ أُخرى بـالإمـام الذي يتنبأ مرة ويتأله أخرى !!

نحو المشرق لاسترجاع ميراث الأَسلاف ؟!

وفي أعقاب هذا الفتح أخذت أمال النّاصر تتقوى في العبور بجيوشه ورجاله إلى الهدف الذي أشرنا إليه من ذي قبل والمتلخّص في عقد العزم على ربط جناحي المشرق والمغرب ! إن آمال إدريس الأَول في الوحدة الإسلامية ظلت هي آمال عبد الرحمن الثالث..!

وسنرى أنها مطمح المرابطين والموحدين والمرينيين ومن أتى من بعدهم من السعديين والعلويين..!

لم يكن الناصر يخفي ما كان يُخالجه من آمال بديار المشرق، يتحدث به أمام الرسل المغاربة، ومع الزعماء الذين يردون عليه بل إن كتبه إلى هؤلاء لا تكاد تخلو من ذكر طلبه لسلطان المشرق ! وحماية بيت الله الحرام... في نفس الوقت الذَي يُوغر فيه صدور القوم على أعدائه من بني عبيد الله : ملوك الشيعة... الأَمر الذي يفسره جَيِّداً اهتمام الخليفة بأمر الأُسطول واستكثار رجال البحرية وتوزيعهم بين نقطتين اثنتين : سبتة ووهران...

وسنقرأ في كتاب طويل وارد سنة 319 = 931 من أمير زناتة محمد بن خزر يعبر عن أمله في أن يفتح الله لأَمير المؤمنين مشارق الأَرض ومغاربها وتتصل طاعته إلى أقصى العراق، ويردّ تراث خلافة آبائه الطيبين الأَبرار الأَكرمين...

ويظهر أن الأَمير المغربي كان بصدد إعداد حملةٍ شاملة تأْتي على بقية خصوم الناصر من المغرب الأَوسط وخاصة في تاهرت، ولذلك رأيناه يطلب المتخصصين «من العرب أصحاب الأَسلحة الشاكة والنشاب والعدة وأهل الإقتدار على تشييد الحصون والبناء وما يصلح لنكاية الأَعداء» :

عن إنفاذ عزيمته، ولابد من قدر الله تعالى من نفاذ، ولعزائم أقضيته من تمام، وذلك أنا نظرنا، أعزك الله بطاعته، في أمرنا إذ لم تمكنا مواصلتك والتعلق بأسبابك إلا بالدنو منك والمجاورة لك والبعاد عن بعدك، فأجمعنا الانتقال بالكلية إلى أطراف أعمالنا وحواشي كورنا من نحو المراسي المنتظمة بجزيرة الأندلس التي وصفنا لك خبرها؛ فلما وردنا البلد بالأهل والولد، أخذنا في جمع العُدد لإقامة الأود بتثقيفِ العوج من أهل المعصية، الذين كانوا لليهودي مشايعين وفي أمره مداهنين، فحشدنا جميع القبائل التي بإزائنا وكلّ من اعتصم بطاعتنا وتمسك بأسبابنا، فأخذنا رهائنهم بالمبايعة لك والافتتاح باسمك والخطبة في جميع أهل الساحة إليك.

وأقبل الناس إلينا من كل جهة فزعين مرعوبين خائفين على أنفسهم طالبين تسكين دهْمائهم، مستجيبين لدعوتك والجين على طاعتك، معترفين بتقديمنا قديماً عليهم وإمرتنا فيهم وولايتنا قديماً على جميع لسان البربرية حيث كانوا وأين كانوا من نسل زناتة خاصة وغيرهم عامة، ولآبائنا من قديم الدهر وحديثه ولأعقابنا من بعد حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك ببركة أمير المؤمنين ودولة آبائه الأبرار، والخلائف الطيبين رضي الله عنهم أجمعين ونضّر في القيامة وجوههم، فهم الذين لم تزل القلوب عليهم متألّفه، والأهواء فيهم مائلة، والجماعة بهم راضية، فها أنا الآن يا سيدي جاد مجد مشمر مواظب في تقويم أود أهل المعصية وتثقيف العوج من جميع أهل العدوة وضرب المقبل منهم بالمدبر، وحمل المطيع على العاصي حتى يفتح الله لأمير المؤمنين مشارق الأرض ومغاربها، وسهالها وأوعارها، وبراريها وبحارها، بنا وعلى أيدينا، وتتصل طاعته إن شاء الله إلى أقصى العراق ويُردّ تُراث خلافة آبائه الطيبين الأبرار الأكرمين إن شاء الله وبه نستعين على ما يتولى، وإياه نستحفظ ونستكفي، لا إله إلاّ هو ربّ العرش العظيم.

وها نحن يا سيدنا أعزك الله، عازمون ـ والعزيمة لله ـ على النهوض إلى المَدَرة السَّوْء : تاهرت وما هناك لاغتيالها ومحاصرة الفاسقين بها، والتغيير عليهم وقطع المرافق عنهم، وحل عرى اليهودي منها وإبعاد رجسه عنها، وهي كما بلغك من وعورتها وصعوبتها وشموخ أجبلها وأشب شعاريها، والبرابر من قلة البصر ومحاصرة المدائن ومساورة المعاقل ومكابدة الحصون والحِيَل عليها بحيثُ تعلمه من العجز عن ذلك والقصور عن رَوْمه ولا يقوم بهذا الشأن إلاَّ العَرب وذوو الحُنكة المحتضرون أصحاب الأَسلحة الشاكة والنشاب والعدة وأَهْل الاقتدار على تشييد البناء وما يصلح لنكاية الأَعداء.

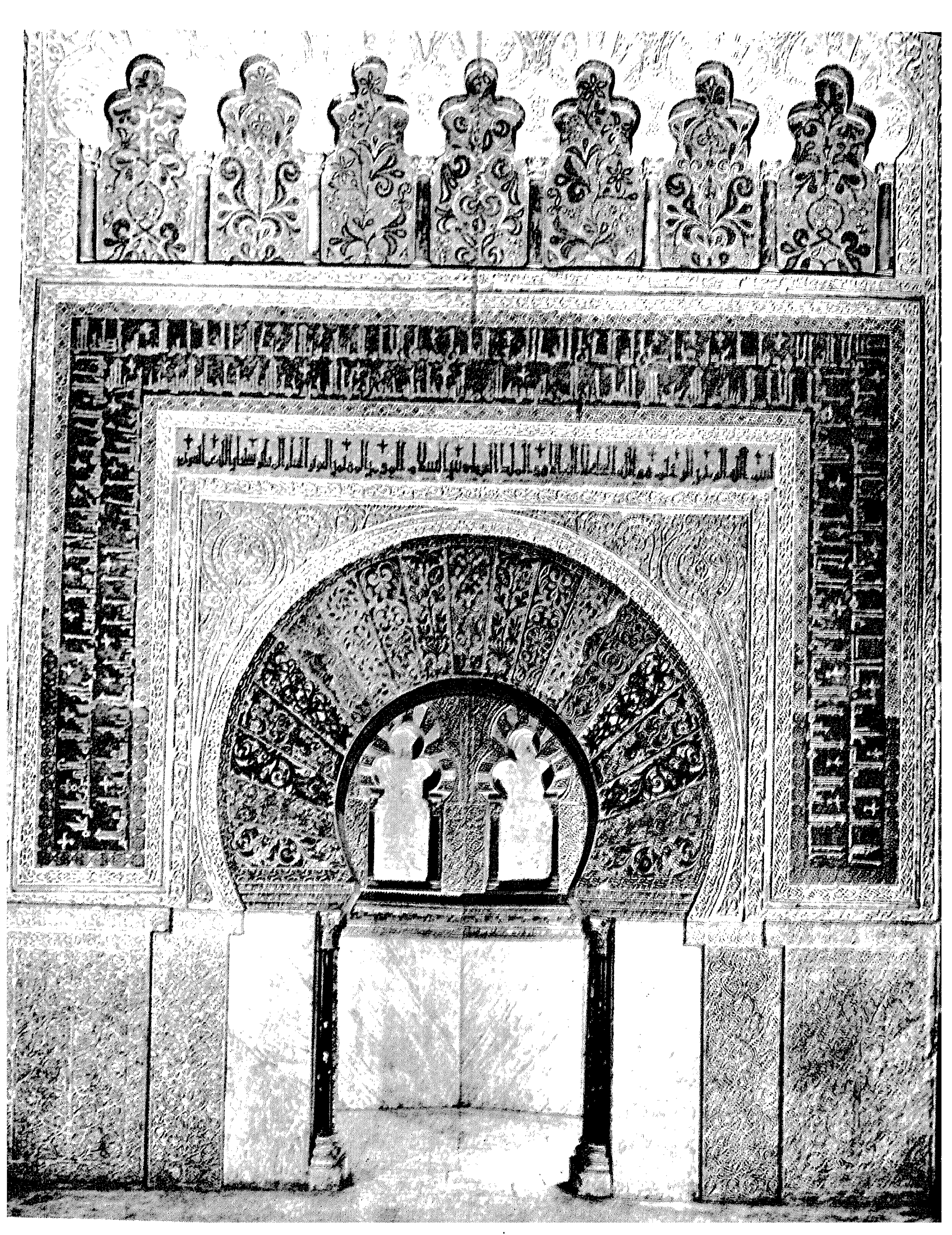
فإن رأي سيدي أمير المؤمنين أن يقوي عبده الساعي في دولته بأسه من ذلك كله بالذي يرى لنا فيه صلاحاً، ولسعينا نجاحاً مما يكون لنا أوفق، وبنا أرفق من القوة والعدة وأصناف الأَسلحة والنشاب والآلة والرماة وبعض من يُحكم سياسة محاصرة الحصون وتكمُّل حال العساكر الكبار الثقال فإن عندنا ما شئتَ من خيل ورجال ومساعير الأَبطال الكُمَاة، قد نهدناهم لتقليص أطراف اليهودي ومنابره وأمصاره ومعاقله وصياصيه، وقصوره وقراه، وكوره وقصيّ بلاده حتى يقطع الله أثره، ويصرم مدته، بحوله وقوته.

والذي أردتُ عِلْمَه، أعزك الله، من خبر أخي فُلفُل، هَدَاهُ الله، في حسده لنا وبغْيه علينا وسوء سيرته ونقل ضميره وسريرته الذي ألبسه الله رداءها بما اكتسب من معصيته، وذلك أنه رحل عنا من غير إذنٍ منا ولا مطالعة ولا مشاورة لنا، وزعم عند عزمه على الرحيل أنه يلتمس خصب المرعى لمنافع الماشية، فأبعد النجعة ولم يزل يطوي السباسب والقفار والأَودية والمهامه متنكباً للحواضر والسبل المسلوكة حتى ورد أطراف أعمال اليهودي المبدل للدين الخارج عن ملة المسلمين، فَنَزَع إليه هو وولده وشرذمة معه ممن تبعه وشايعه في أمره وصحبه في

غـوايتـه، فلمـا وردوا على اليهـودي تلقـاهم بـالسرور والحبـور، ومَنّـاهم بـالكثير وزخرف لهم قـولـه بـالغرور، فصـار منهم كـالسراب، يُخلف من رجاه ويغر من رآه، يحسبـه الظمـآن مـاءً حتى إذا جـاءه لم يجـده شيئـاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه الآية.

فـارتهنـوا عنـده أهـاليهم وأولادهم بعـد أن أخلف الله ظنَّهم فيـه، وخيب رجـاءهم، وصـدروا عنـه على سروجهم إلى نحـو بلـد الـزاب، إلى القبـائـل بتلـك الأطراف من بني مغراوة خـاصـة ليسعـوا لهم ويطيعـوا أمرهم، فمنهم من رحـل إلينـا هـاربين بـأنفسهم وأمـوالهم، ومنهم من لم يشتغل بهم ولم يحفل بـأمرهم، وذلـك لإدبـار ولـد اليهودي عنـا، ونـزول نقم الله به على أيدينا، ولم يَنشب أنْ ورد كتاب اليهودي إلينا يذكر فيـه نـزوع الغـاوي فلفـل أخي إليـه، ورغبتـه فيمـا لـديـه واعترافـه بـالحـق ورجوعه عن البـاطل، وحُسن قبوله إياه، وكرم منزلتـه عنـده، وإعطـائـه إياه كل ما سأله منه وأمله لديه، ويحضني على امتثـال فعلـه، وينـدبني إلى الرجـوع إليـه، ويرغبني في الـولـوج في طـاعتـه والتمسـك بسنتـه ويمنّيني على ذلـك الكثير، ويعـدني بـالجزيل، ويقول : إنـه لا يحـاول مني ذهباً ولا فضة، ولا يكلفني نائبة غير الافتتاح باسمـه والخطبـة في المنـابر عليـه، وصرف السكـة بـذكره، وأرسـال أحـد وُلـدي إليـه، أو بعض إخوتي ليشيع في الناس أني قد رجعت إليه وصرتُ في طاعته، وكل ذلك لم أحفـل بكتـابـه وأمرت بجـوابـه بمـا نحن عليـه من البيّنـة من أمرنـا، والاستئثـار ببيعتنـا، لمـا بلـونـاه من إفكـه وبغيـه، وعلمنـاه من كفره وكيده، وقلة وفائه ونقضـه لعهده فنحن أيـدك اللـه لا نقصّر في نكـايتـه ولأنني في قطيعتـه وحربـه وإدخـال الضرر عليـه وانتقـاض أطرافـه واقتناص أهل طاعته، حتى يمكن اللـه منـه ويقطع دابره بحولـه وقوتـه إن شاء الله تعالى).

☆ ☆ ☆



محراب مسجد قرطبة الأعظم الذي أنشأه أمير المؤمنين الحكم. يلاحظ أن الخط الكوفي الذي يوجد بداخله يحمل تاريخ 354 فيتأخر عن الخط الكوفي الذي اكتشف بجامع فاس الأعظم (القرويين) ويحمل تاريخ 263.

هذا وحرصاً من الناصر على وحدة صف الموالين له، فقد كان لا يتوانى في تعهد علاقات ولاته بعضهم بعضا، وهكذا فعلى نحو ما قام به بين بني محمد وبني عمر من آل إدريس، وجدناه يقوم بإصلاح ذات البين بين الأمير ابن خزر والزعيم بن أبي العافية ويبعث سفيره ابن أبي عيسى إلى ديار المغرب لأجل هذه الغاية !

ولابدُ أن لاتفوتنا بعض اللقطات الهامة في تاريخ علاقات ابن أبي العافية بالخليفة الناصر عام 319 = 931 عندما تقدم الأول إلى الثاني بهديةٍ تتألف من إثني عشر فرساً من جياد خيله كافأه عليها الناصر بهدية جليلة القدر من الكسوة الرفيعة والحلية الفاخرة والألطاف المستطرفة، كان فيها من الخز الفاخر المختلف الأجناس ما بين شقة وعمامة وبرنس خمس وعشرون قطعة، ومن اللبود الطرازية الأرجوانية عشر قطع وسرج ولجام خلافيان، غريباً الصنعة ثقيلاَ الحلية...

وقد أصحب ابن أبي العافية تلك الهدية بخطاب تظهر فيه منافسته للأمير ابن خَزَر : كما يظهر منه تشفيه مما فعله ببني إدريس : ابن أبي العيش، وحمزة بن علي، والحسن بن محمد الحجّام، ويحيى بن إدريس !

(... وبعد فقد كنتُ من الاعتضاد بمحمد بن خزر عند أمير المؤمنين ووليّه والكراهة لمعارضته إلا بما وافق رأي سيدي أمير المؤمنين أكرمه الله ووقع بموافقته ودعا إلى رضاه بمنزلة لا يوجد عليها أخ من إخوته ولا رئيس من بني عمه، أقدمه على نفسي وأطلب رضاه جهدي، وأكتب إليه، أعلمه أن وصية الحاجب موسى حفظه الله مكتوبة في قلبي بما تقدّم إليَّ به من مضافرته وموافقته والكون للدولة المكرمة يداً معه على كلّ مارقٍ معاند وخالع مفسد فلا يزداد بذلك إلا تهاوناً بي، وتطاولاً على أهل الطّاعة بعملي، بشنّ الغارة، وسفك الدماء واصطفاء الأموال، والتسوّر على حدود الأعمال، فأعذرت إليه، وكررت

الإعذار بتأكيد الحجة عليه، فلم يثنه ذلك عن سوء رأيه، ولم يمكني، أعز الله أمير المؤمنين، الانصراف عن مدينة جرّاوه بعد أن استغاثوني منه، إلا بعد أن أذبّ عنهم وأجعل بينهم وبين أصحابه حدّاً يطمئنون إلى الوقوف إليه، فكاتبته أسأله الالتقاء معه لكي نبرم ما انحل من حبل الطاعة ونصلح ما وَهَى من أمر العملين ونعقد بيننا عقداً يرضاه أمير المؤمنين، فأجاب إلى ذلك معلنا وقد أسر الغدر وأضمر، على غير سبب أوجب ذلك، المنافسة والحسد على ما نلته في ذاتك من أمر أبي العيش الحسني صديقه، ونهضت معه سالم الضمير، فلما رأى انحطاط عساكرنا عليه وقلة تحفظها منه لما تقدم من المكاتبة التي جرت بيننا وبينه، قدّر رأينا فيه مثل رأيه، فانسلّ منا ورمانا بدائه، وانشمر هارباً وظن أني موقع به كالذي اعتقد هو من قبيح ضميره، فما طاش إليه ممن كان معي فارس إلى أن زال عني فلم أره وعدت على أدراجي، فطاش عند ذلك من طاش من أهل عسكري يتبعون ساقته بغير علمي ولا رأيي، فلا يحسبن، أمير المؤمنين، ذلك قِبَلي ذنبا ولا يَعتد به علي نقصا، فإني عبده ووليه وبين يديه في كل ما أهاب بي إليه إن شاء الله تعالى.

وأما هذه الفئة الباغية من المشارقة دعاة الكفر والضلالة، فقد اتصل بأمير المؤمنين قطعي دعوة صاحبهم وابطال سكّته ومجاهدتي شيعته وعدائي لأَهل بيته واستبلاغي في نكاية أسبابه كفعلي بابن أبي العيش الآن ومن مضى قبل على يدي من أهل بيته، مثل حمزة بن علي وأولاده وقتلي إياهم، ومثل فعلته بالحسن بن محمد المعروف بالحجام ويحيى بن إدريس من بعده، فما لليهودي لعنه الله بهذا المغرب شجى غيري ولا عدو سواي، وما حبسه عني إلا ضعف طاقته وتبدد جمعه، فلله الحمد على ذلك).[2]

2) المقتبس 309 - 310.

النجدة المغربية للمشرق
لصد غارة القرامطة على الكعبة

وقد ظهرت في هذه الأثناء حركة بالمشرق دوّى صداها في المغرب... ووجد فيها الناصر فرصةً ثمينةً أُخرى للتشهير ببني العباس من ناحية، وتحذير المغاربة من العُبَيديين مرة أخرى...

فلقد شهدت مكة، في رحاب المسجد الحرام نفسه، حشداً من حركة القرامطة الذين كان يقودهم، على ذلك العهد، سليمان بن الحسن الجنابي المكنّى بأبي طاهر، زعيمهم بالبحرين...

كان من مذهبهم مداهمة قوافل الحجاج ومنع الناس عن الحج وأخذهم الحجاج[3] أسرى، بل إنهم بل اقتلعوا الحجر الأسود من مكانه

الحجر الأسود

«... وأما الحجرُ فارتفاعهُ عن الأرض ستةُ أشبار: فالطويل من الناس يتطامنه لتقبيله، والصّغير يتطاول إليه، وهو ملصق في الركن الذي إلى جهة المشرق، وسعته ثلثا شبر وطوله شبرٌ، وعقّد، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن، وفيه أربع قطع ملصقة، ويقال: إن القرمطي لعنه الله كسره، وقيل إن الذي كسّره سواه، ضربه بدبُوس فكسره وتبادر الناس إلى قتْله، وقُتِل بسببه جماعة من المغاربة، وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم، وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصفحة البهية...

ابن بطوطة - نشر باريز - I ر 313 - 314

---

3) كذلك كان مذهب القرامطة على عكس ما كان يهدف إليه بالمغرب رباط الشيخ أبي محمد صالح المتوفى سنة 631 = 1234 بأسفي جنوب المغرب، والذي يُعزى إليه إنشاء الركب الحجازي وبث المراكز للحجاج من أسفي إلى الحجاز... الكانوني: أسفي وما إليه ص 98 - 99.

بجدار الكعبة ونقلوه إلى الكوفة عام 317 حيث سيظل أسيراً طيلة اثنتين وعشرين سنة قبل أن يرجع إلى مكانه !

لقد كان القرامطة يقصدون إلى إحداث بلبلة في الخلافة العباسية وإحداث ثورة على الخليفة المقتدر الذي يقول عن نفسه : «حامي الحرمين»... كان القرامطة يريدون أن يظهروه على أنه عاجزٌ !

وإذا عرفنا إلى جانب هذا أن الجنابي زعيم القرامطة كان حائزاً على ثقة العُبيديين ومتمتّعا برضاهم، وأن عَبَيْد الله المهدي هو الذي أصدر أمره بتعيين الجنابي ممثلاً ونائباً له بعد وفاة والده الحسن، إذا عرفنا كلّ ذلك فقد حقّ وصم العباسيين بالعجز والتقصير في حق بيت الله الحرام وحق التشهير بالعُبَيْديين باعتبارهم وراء الذين أهانوا المسجد الحرام..!

ومن هنا نلاحظ أن أصداء الإعتداء على الكعبة تتردد في الأندلس والمغرب وتُحدث ردّ فعل سيِّء لدى رجال الحكم في البلاد حيث وجدنا أن الأمير الزناتي محمد بن خزر يتلقى خطاباً جديداً من الخليفة يؤكد العزم على إنقاذ المشرق :

(... وأن أمير المؤمنين لما تفرغ باله وتقضّت بالأندلس أشغالهُ، واكتملت له في أعدائه آماله، ولم يبق عليه فيها بقية يعانيها، ولا حال يستعمل رجاله فيها، صَرَف عزيمته وآمال همته إلى ما بين يديه من أسباب المشرق وطلب ما لم يزل لأوَّله حقّاً وله ميراثاً مع ما ينويه ويرجو أن يجري الله أُكرومته على يديه من إحياء الدِّين بنظره وإماتة البدع بقويم منهاجه، وحماية بيت الله الحرام المنتكثة حرمته المعظمة، المسلوب ركنه، المغلوب أهله، المعطلة مناسكه ومشاعره وأن يجعل الله لأمير المؤمنين ناصراً له بطلب الجاني عليه بجنايته فيه، ويجدد من

مْخلق السنن مادرس، ويُظهر منها ما انطمس وعلى الله يتوكل أمير المؤمنين في جميع ما نواه وبه يرجو إدراك ما رجاه إن شاء الله.

وقد آمر آمير المؤمنين بالتّأهب والاستعداد بالرجال، والأَجناد، وتخير الكفاة، وانتقاء الرماة، وتضعيف العدد، وتجريد الآلات، وتكميل الأَدوات، والنظر في إلحاق الحشود بالجنود لميقاتٍ معلوم ووقت محدود، وأن يستكثر من جميع المراكب إلى ما قد قام منها ويتوسع في عْددها لتجهيز الأَساطيل المؤيدة في وقت إجازتها وعند إمكان البحر لها لتسير طائفة منها إلى نحو سبتة، وأُخرى إلى جهة وهران، فيمن تخيّره من وجوه قواده، وأعلام رجاله وصميم حَشَمه وأبطاله أهل البأس والصبر وحْسن البلاء وقوة الجَلَد الشارين آنفسهم في مرضاة أمير المؤمنين والطالبين بحقه والمستبصرين في نكاية عدوه، ذوي النيات الخالصة، والبصائر الصادقة، والبسالة القائمة، لا يهول أحدَهم قرنٌ يناوله، ولا يثنى مقنبهم جيشٌ يقابلهْ، كالليوث في إقبالها، والتّنانين في التهامها، قد ما رستهم الحروب ومارسوها، وساستهم الخطوب وساسوها، فهي أُمُّهُم وهم بنوها، فاستعدّ، أسعدك الله، وتأهب، وشمّر وتلبب، وكن على انتظار ما يوافيك من أمير المؤمنين وولاته لتكون صدر القواد كا أنت صدر أولي الوداد، ومتقدّماً للرجال، كما أنت صدر الصِيال، فإن أمير المؤمنين، يرجو، بالله عونه وعليه توكّله، أن يكون قد قرُب الوقت الذي قد رجوتَ الفوز به والإدراك له وبلوغ الأَمل منه، إن شاء الله، عز وجلّ).

☆ ☆ ☆

وفي الوقت الذي أبلغ فيه الخليفة الناصر لدين الله عميد الأُمراء المغاربة : محمد بن خزرْ أمير زناتة، برغبته في إنقاذ المشرق، قام بنفس العمل بالنسبة لابن أبي العافية أمير مكناسة عام 319 = 930

مغتنماً هذه الفرصة أيضاً ليبسط أمام المغاربة إشفاقه على ما تعرض لـه بيت الله من انتهاكِ «القرامطة» في غفْلة بني العباس ! والخليفة بهذه المناسبة يعود ليؤكد عزمَهُ على «استرداد تراث خلافة آبائه الطيبين في مشارق الأرض ومغاربها... إلى أقصى العراق» على حدّ التّعبير الذي ورد في الرسالة الطويلة التي كان رفعها إلى الخليفة الأمير ابن خزر.

إن الخليفة اليوم يطلب إلى ولاته «أن يستألفوا الناس على طاعة أمير المؤمنين ويهيّئوهم ويعبئوهم لتحقيق هذا الغرض :

(... وذلك مما شدّ أمير المؤمنين عزماً وشعل قلبه غيظاً وغمّاً، حديث الحادث الجلل والخطب المعضل النازل في بيت الله الحرام، وما صار إليه من الإغفال له والإضاعة لزواره حتى غشيهم أهل الكفر في محل الأمن، فقتلوهم أبرح قتل بفنائه، وهتك البيت الحرام واستلب ما فيه، وحدث فيه ما لم يعرف في الأولين ولم يزل في الآخرين، وهو الأمر الفادح الكارث الذي لا يحل لأمير المؤمنين ترك الغضب منه، والسعي في الانتصار له، والقيام في الذب عنه والتقرُّب إلى الله بحماية البيت العتيق وتعظيمه وتهوين من استهان به، والله على الانتصار منهم معين إن شاء الله.

وقد صرتَ عند أمير المؤمنين بخالص المودة وصادق الطاعة، معدوداً في عدده الذين يعتمد عليهم، وأنصاره الذين يتورك في المهمات على نهضتهم، فأنت باخصِ المنازل عنده في الاستعداد بك والرجاء لِحميد مقامك، وحسن نظرك وتدبيرك فيما يحركك، أمير المؤمنين، له، وينهضك نحوه ويجعلك قائده في جميع الغرب، قائما باسمه، ناهضاً بدعوته، معيناً على إحياء الدين وإماتة الفاسقين : وتغيير آثار الضالين وتقويم زَيْغ المفسدين ولا يرغب أمير المؤمنين من قِبَلك، ولا من قِبَل غيرك من أولياء الطاعة وأنصار الدولة، وشغل قلبه به، من طلب حقه

وارتجاع ميراثه والسعي لملك آبائه الخلفاء رحمهم الله... إفريقية فما قُدَّامها والحرم وما اتصل به ومصر والشام وما خلفها، فيرد الله به الدولة، ويكشف الجولة ويحيي الآثار السالفة الفضل لسفه، ويعيد الدّين على يَدَيْه جديداً غضاً والحق صميماً حقاً، ويجعل كلّ ذي بدعة طريداً مُقْصىً، تَنهض بأمير المؤمنين إلى ذلك نفسٌ تواقة إلى ما هو لها حق واجب وفرض لازم، مع ما يسوقها إلى ذلك من الآثار المشهورة والروايات المذكورة التي قد ظهر كثير منها، وعلى الله تتميم باقيها إن شاء الله، فقد أخذ أمير المؤمنين لذلك بأشد العزم واثبت النظر براً وبحراً، عاملاً على مجاهدة الملحدين ومنازلة الفاسقين حتى ينتقم الله من الظالمين ويأخذ بثأره من القوم المجرمين إن شاء الله.

فانهض أَيَّدَكَ الله بعزائم أمرك، ونوافذ رأيك، وشدة بأسك، وصِيال رجالك، وتقدم متوسّعاً فيما بين يديك، ولا يُقنعك ما أنت فيه، فليس يقنع به أمير المؤمنين لك، بل يستقلّ لك الكثير، ويستصغر في جانبك الخطير، فكلّ ما توسعت فيه وفتح الله عليك به، كان لك ولولدك ولعقبك إقطاعاً من أمير المؤمنين لك، وتوسعاً عليك ومكافأة لمحبتك، ولا تتبدل لك، ولا أَحد من ولدك وعقبك عند أمير المؤمنين حالٌ إلا بأحسن منها، وأشرف وأفضل، وأعلى وأنبل، تلك بصيرة أمير المؤمنين في أوليائه الداخلين في طاعته، القائمين بإمامته، المجاهدين لعدوّه، الموطدين لسلطانه.

واستألف الناس على طاعة أَمير المؤمنين، وجامعهم عليها، وادعُهم إليها، ورغّبهم فيها، فإن طاعته مقرونة برضى الله تعالى، إذ هو القائم بالحق الناصر لدين الله، المحتمل على هذي الخلفاء الراشدين والنافي لكل بدعة، الماحِي للضلالة المجلّي لكل شبهة، فاتباعه هدًى وطاعته

رضي، لا يصدف عنه، ولا يحيد منه إلا من فارق الحق، وخالف طريقه وآثر الباطل ودخل طريقه...»(4)

☆ ☆ ☆

وبالنظر لما يتطلبه تطبيق هذه السياسة الخارجية، فقد شاهدنا مزيد اهتمام الناصر بأمر الأُسطول في هذه الظروف حيث رأينا أن قطعه تناهت إلى 120 قطعة... ورأينا أن هذه القطع تستوعب سبعة آلاف رجل، منهم خمسة آلاف من البحريين وألف من الحشم وألف من الجند... علاوة على المتعهِّدين الدائمين...

وقد حرك هذا الأُسطول من عبقرية شاعر البلاط الأُموي عبيد الله بن يحيى بن إدريس على ما يذكر ابن حيان.

وهكذا أَمسى الأُسطول على أُهبة الاستعداد للتحرك في كلّ وقت وحين، ومن هنا كنا نشاهده يتنقل عبر ساحل البحر المتوسط، يؤدب المخالفين ويساعد الموالين...

☆ ☆ ☆

وقد بلغ إلى قرطبة عام 321 = 933 خطاب من قادة أصيلا كتبه أهلها وعلى رأسهم إبراهيم ابن العلاء، وعلّون ابن سواقة بعد أن أكّدوا ولاءهم للناصر وبعد أن أكدوا على أهمية المدينة، أخبروه بأن بني محمد بن إدريس حاولوا الاستيلاء على المدينة لكنهم أخفقوا.!! وأَخيراً يعترفون بأنهم كانوا أَول من سارع لتلبية نداء موسى ابن أبي العافية وهم يلتمسون إمدادهم بالعون العسكري احتياطاً للطوارئ..!

---

4) المقتبس ص 312.

وهكذا فإرضاءً لملتمس أصيلا بعث لأهلها بعدد من قطع الأُسطول حيث وصلها الرايس عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة الذي استعمل عليهم إبراهيم ابن العلاء.

ومن جهة أُخرى فاستجابةً لحاجيات ابن أبي العافية الذي يواجهه الشيعة باستمرار... ولهدف تقوية سبتة، وجدنا الناصر يجهز جيشاً كثيفاً بقيادة قاسم ابن طُمْلُس ليبعث به إلى المغرب مصحوباً بطائفة من الرسائل كانت تطلب من سائر الموالين أن يحتشدوا وراء ابن أبي العافية...

وقد وجدنا الخليفة يقوم بتقريظٍ رفيعٍ للبربر، ويشجب بعنف الإمام الشيعي الذي على حدّ تعبير الرسالة : يتألّه تارةً ويتنبأ تارةً ويضفي على نفسه، تارة أُخرى، صفاتٍ ونعوتاً لا تجوز :

(... ولكم في الديانة بصائر قوية، ومذاهب علية، لا يبلغكم فيها بالغ وإن اجتهد، ولا يلحقكم فيها لاحق وان أعد وأكد، ولم تكونوا إلى أهل البدع سراعاً، ولا لأهل البخل أتباعاً، إلاّ أن تغر قبيلة منكم بغرور، فإذا تبينت العوج فيه تبرأت منه، وتابت إلى الله تعالى عنه، وأَخذت بما لم يزل يُعرف، وتركت ما ينكر، هذه صفاتكم معشر البرابر الخالصة طاعتكم، المحمودة بصائركم، المشكورة في الإسلام إيامكم، المشهورة في الحرب ملاحمكم، لم تزالوا مُجاهدين في الله حقّ جهاده، مؤثرين لرضاه، ساعين لما يقرب منه، ونحن وأسلافنا الخلفاء، رضي الله عنهم، الذين قدموكم آخراً وأنعموا عليكم أولاً، فعرفتم الإسلام ولبستم الإنعام، وقد سرتم من الارتسام بطاعتنا، والإنضواء إلى ولائنا، على طريق من الحقّ مهيع، ولا يرجع عنه إلاّ من غرّه شيطانه، وزلِق إيمانه وارتكس سعيه، وأراد الله غيّه، ولا يتمسك به إلا من أتاه الله رُشده، وقوّى إيمانه وأراد إسعاده وأَحَبَّ إرشاده. وقائدكم وأمير جماعتكم موسى ابن أبي

العافية وليّ أمير المؤمنين ومولاه، الناصر لدولته، القائم بدعوته، الذاب عن حوزته، وان أحق ما أخذتم وأصلحتم به نياتكم وانعقدت عليه بصائركم واتفقت به مذاهبكم بالصبر معه، والحياة بحياته وحب الوفاة بوفاته، أن تكون أيديكم مع يده، وكلمتكم مع كلمته، وجميع أُموركم منقادة لأَمره، تُسرون في ذلك كالذي تظهرون، وتبدون مثل ما تخفون، وأن تجعلوا جِدكم وبأسكم في جهاد عدوكم هذا، الذي قد قاتلكم وناصَبَكم، وأراد تبديل كلمتكم وتفريق جماعتكم، وإدخال الشبهات على إسلامكم، والضلالات على هداكم، فهو أولى عدوّ جاهدتموه، وأحرى غويٍّ نابذتموه، وانه لَلذي علمتم آثاره وأخباره وآثار شيعته الغوية وأهل دعوته الضالة، ومن يدعو إلى طاعته ويحضّ على الرجوع إليه ممن غيَّر الدين وأهلك المسلمين، وشمِل بضره ومكروهه رعيته أجمعين، لا يرجع عن سوء ما يأمر به، ولا يعتقد ديناً يكون عليه، فمرة يتألّه عند الجماعة ممن ركن إليه، وتارة يتنبأ وتارة يتسمَّى بما لم يره الله له أهلاً ولا جعله في نصابه ولا أعطاه ما يتمنى إليه ولو كان صح له انتماؤه وثبت له فيه ادعاؤه، كيف وهو الساقط الدعي، والخسيس الغوي، والذميم اليهودي، فاعرفوا وفقكم الله غُنم ما أنتم مستمسكون به وغبن ما صرتم مدعوين إليه، واعلموا أنه لو لم يقض الله بنصركم حتماً وينزله وحيا لكنتم جُدَرَاء لتَقَحُّم غمرته جهاراً، ووروده ابتداراً على ملة الإسلام، ومنهاج القوام، وحبل الجماعة وعروة السنة إلا أن تردّوا على أعقابكم وترجعوا عن دينكم على أن تنالوا فوز الحياة الدنيا القليل دوامه، السريع انصرَامه، المصرّد شربه، المنقشع ظله، ثم من بعد ذلك العذاب الأَليم والنكال الشديد الدائم الذي لا فترة فيه، الموصول الذي لا انصرام له، وأنتم على الحقّ والله معه، وغير خاذل أهله، والحق متبوع، والباطل مقطوع، والله تعالى سيقضي بنصركم، ويهيء لكم أفضل مِرفقكم، ويأذن بفلحكم، ويجعل العاقبة لكم، ويريكم في أعدائكم أفضل

الذي تؤمّلونه، فطامنوا أنفسكم على لقائه، ووطنوها على صدقه، واصبروا، ولا تهنوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وإياكم أن تتفرّق كلمتكم وأن تستحيل بصائركم أو يرعبكم ما أطلكم من زهاء عدوِّكم، ولا تهابوا أمره، وتعظّموا في أنفسكم شأنه، فإنه حقيرٌ صغيرٌ قليل يسير، وأنتم الملأ الأعظم، والحزب الأكرم، والفريق الأصبر، وقد رأى أمير المؤمنين مكاتبتكم بما خاطبكم به حاضاً لعامتكم على ما فيه هُداكم ورشدكم، معرفاً بما لا يجهله ذوو العلم واللب منكم ومقوياً بَصَائِركم ومجدّداً لإيمانكم، ومثبتاً لاقدامكم، ومؤلفا لجماعتكم، وجامعاً لكم على طاعتكم، ومتقدما إليكم بالجدّ في محاربة عدو الله وعدوكم.

وأمر أمير المؤمنين بإمدادكم بحماة الرجال والأبطال، وَحُذّاق الرماة المجوِّدين، بعُددهم من القِسي والنبال، وأغْزَى في البحر إلى تلقاء (أعداء) الله أُسطولاً تأنق في مراكبه وركابه، وأكمل عُدد من به وعدته على عجلة من النظر ووشكانٍ من الأمر، لم يكن لأمير المؤمنين فيه مهلة ولا فسحَة إذ لم يظُنّ لما صرتم إليه، ولا أتت الأخبار مقيّدة به، وكان قد جرد أُسطوله الأكبر مجاهدا إلى بلد الفَرَنجة، أهلكهم الله، وأخرج قواده وصنوف أجناده إلى أعداء الله المشركين شرقاً وغرباً، وإنما أمدكم وقت هذا بما كان بحضرته وبما أمكن إزعاجه وإخراجه لحينه، فاتقوا الله في أنفسكم ولا تحولن عن الطاعة بصائركم، ولا عن دين الإسلام عقائدكم، ولا تعبدوا الله على حرفٍ فتكونوا كما قال فيه تعالى جده : ﴿ومن الناس مَن يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به﴾ الآية.

والله يعيذكم من ذلك ويمنعكم منه ويوفقكم لما يرضيه عنكم، ويوجب به نصركم وتأييدكم إن شاء الله تعالى.

☆ ☆ ☆

الأَدارسة بين الصِّراع العُبيدي الأُموي على المغرب...

- □ فاس بين موالاة الناصر ومصانعة المعزّ !!
- □ تعقب ابن أبي العافيـة لبني محمـد بن إدريس وبني عمهم أولاد عمر ومتابعة الوشاية بهم لدى الناصر...
- □ بنو إدريس يحاولون استرجاع أصيلا ويضلّلون والي سبتة !!
- □ الثقة العمياء لقرطبة في ابن أبي العافية !
- □ متاحفاته بأرفع الهدايا...
- □ اختلال صفوف الشيعة بعْد وفاة عبيد الله المهدي عام 322 = 934.
- □ تصميم ابن أبي العافية للإجهاز على مواقع الأَدارسة في الشمال.
- □ تعزيز طنجة وأصيلا بعد أن تحصّنت سبتة.
- □ إن الجهاد في الشيعة أولى من الجهاد في الروم يقول ابن أبي العافيـة في تقاريره المتوالية إلى الناصر..!

الأَدارسة بين الصراع العُبيدي الأُموي على المغرب

إن التسابق بين المعسكرين : العُبيـدي والأُموي على أشـده لامتلاك رقعة من المغرب أكثر..! وبخاصة مدينة فاس التي كانت عدوة القَرويين منها، على الخصوص، توالي بني أُمية والتي توصَّل أميرها في شوال عام 322 = 934 برسائل من ميسور الخصيّ قائد الشيعة...

واغترَّ أمير المدينة أحمد بن أَبي بكر وخرج لاستقباله ومصانعته لكنه غدر به وأخذه أسيراً إلى المعزّ حيث ظلّ ـ على ما أسلفنا ـ رهن الإعتقال إلى سنة 341 = 952 والتحق بعدها بفاس...

«إن بني محمد بن إدريس وبني عمهم أولاد عُمر يعملون ـ كما يقول خطاب لابن أبي العافية ـ في صف ميْسور، على عكس ما كان يعتقد أنهم يوادُّون السلطان مع أن ابن أبي العافية يعلم أن كبيرهم إبراهيم بن إدريس موجود عند ميسور كما يردد ابن أبي العافية في خطاباته للناصر في شوال من عام 321 = اكتوبر 933».

(... وأما ما أراد سيدي أمير المؤمنين أبقاه الله إنهاءه إليه مما نحن فيه مع المشارقة أهلكهم الله فإنَّ اللعين أبا القاسم طاغوتهم بعث إلينا غلامه ميسور الخصي وعفريته ابن أبي شحمة الكُتَامي وغيرهما من قواده في كثف من شياطينه، داعياً لمن حولنا من القبائل إلى الدخول في طاعته، فحلوا في البلاد وبثوا دعاتهم فتوقف الناس عنهم ولاذ البرابرة منهم بأوعارهم ومعاقلهم.

فلما يئسوا منهم كاتبوا أهل مدينـة (فـاس) ولطفوا بهم ودعوهم إلى الـدخول في طـاعتهم وأعطـوهم العهـود المغلّظـة والأيمـان المـؤكـدة على تأمينهم وتقـديمهم، فـاغتر بهم أمير (فـاس) : محمـد ابن ثعلبـة صـاحب مدينة الأندلسيين، وأحمد بن أبي بكر صاحب مـدينـة القرويين، وقـدمـا عليهم مع وجـوه من رجـالهمـا، فلمـا صـاروا بين يـدي الخصي غـدر بهم وأخذهم وأخذ جميع ما كان معهم من دوابّ وأسلحـة، فلمـا رأى أهل فـاس ما فعلـه من ذلـك توقفوا عنـه وامتنعوا من إدخـالـه، فنكّب عنهم وصـار إلينا صامداً حتى نزل منا على مسافة ستة أميال، فأقام في محلته أربعة أيام يكاتبنا فلا نصغي إليه، ولا نجيبه، فمشى نحونا هو وأولائـك القواد في عدد عَديد وقوة قوية وآلة تامـة، ضـاق بهم الفضـاء، وقسموا عسكرهم فأتونا من ثلاثة طرق : مِن جهة القِبلة، والغرب، والشرق، فوقعت الحرب بيننـا من ضحوة النهـار فـاتصلت إلى بعـد العصر، وضمّـونـا إلى الأوعـار، وكنا قد كمنا لهم كَمِينَيْن، فلما لصقوا بنا وقـد طمعوا فينـا خرج الكمين الـواحـد فـأثّر فيهم وصبروا لـه، ثم ردفـه الكمين الثـاني فغلب صبرهم وولوا مـدبرين، ومنحنـا اللـه أكتـافهم، فعمِـل السـلاح عملـه فيهم، وأخـذ مأخذه منهم، فقتلنـا منهم في تلـك الردّة اثنين وعشرين ومـائـة قتيل، وأخـذنـا عـامـة دوابّهم إلا مـا أدركــه العقر منهـا، ورجعـوا إلى منـاخهم بغيظهم، لم ينـالـوا خيراً، وكـان ذلـك يـوم الخميس لاثنتي عشرة ليلــة مضت من شوال منها.

ثم عاودونا يوم الجمعة بعده صباحا بجميع عدّتهم، ومن كان تخلف في الأخبيـة منهم، فرأينـا عسـاكر عظيمـة لا تسقيهـا الميـاه، فثـارونـا بالحرب من غُدوة إلى وقت العصر، فاستظهرنا عليهم، وردعناهم ردعتين عظيمتين، وقتلنـا خلقـاً منهم، وانصرفـوا عشـاء إلى محلتهم خـاسرين مغيظين، فـانصرفـوا بعـد ذلـك عنّـا ولم يحـاربـونـا إلى أن انقلبـوا على أدبارهم والحمد لله.

ونحن، أبقى الله أمير المؤمنين سيدنا، في قوة شديدة، وعدة كاملة، وجمع جامع، ما تخلف عنا أحد من رجال المغرب وأشرافه تمسكاً بولايته واستبصاراً في طاعته.

وكان الأدعياء في قريش : الأدارسة من أولاد محمد وبني عمهم من أولاد عمر المعروفين ببني ميّالة قد مشوا إلى مدينة أصيلا أيام اشتغالنا بِعَسكر المشارقة كيما يكبسوها أو ينتهزوها فرصة فلم يعنهم الله تعالى على ذلك ولا قواهم، فرجعوا بعسكرهم إلى ميسور الخصي، فإنّهم لَمَعَهُ إلى هذه الغاية.

وقد كنا كتبْنا إلى ابن حزب الله صاحب سبتة ليخرج القواد في المراكب ليخالفوا هؤلاء الأدارسة إلى تِيجسّاس وما حولها من ديارهم ويغنموها، فردّ علينا الجواب يذكر أن الأدارسة بعدُ موادُّون للسلطان، مظهرون اعتقاد الطاعة، وانه لا ينابذهم إلا بعد مؤامرة (يعني مشاورة)، فعذرناه، وعلمنا أين ذهب هؤلاء الأدعياء بالمماكرة، وهذا كلّه، أعز الله أمير المؤمنين، منهم دوافع ومكر، وبالله الذي لا إلاه إلاَّ هو الرحمان الرحيم، إن إبراهيم بن إدريس كبيرهم وشريفهم بعسكرهم لعِند الخصيّ ميسور ما زال ولا برح إلى هذه الغاية، وان بن حزب الله لمخدوع كثير الطمأنينة، لم يُحكم معاملةَ البرابرة، فليكن من أمير المؤمنين إليه تبصرة، والله يكشف له عن الضمائر ويقيه المكاره بمنّه.

لقد سر الخليفة من نشاط حليفه ابن أبي العافية فبعث إليه يقول من جملة ما يقول وهو من الأهمية والخطورة بمكان :

(... وإنك بما أخلص الله من طاعتك، ومقاومتك لأهل الإلحاد بصحة إيمانك وبتبرُّؤك من البدع بمتين إسلامك أحقٌّ من أطلع على سرائر اليهودي الغاوي وتواطئه وما يعامل به الرعاع من أشياعه أهل الجهل بالله، وقلة المعرفة بما ينتحله فيهم من النبوءة التي ألبسه الله

بـانتحـالهـا الخـزي وأحـاق بـه اللعنـة، ومـا يرفعـه عنـه من يختصُّـه من مشارقته، ويبثه من يدسه من دعاته من كتاب يدعيه، ويزعم أنه يأتيه، وقرآنٍ يسميـه، وسـورة يفصِّلهـا على أسـوأ معـانيهـا، رأي أمير المـؤمنين بعثة ما وقع إليـه منهـا إليـك، وأمرنـا بـانتسـاخـه لـك لتراه وتعجب من خذلان الله عز وجلّ له فيها وتبرؤه منه بما يـدعيـه من أشكـالهـا، وترى الضعف البيِّن فيها والعجز الظاهر عليها والبيِّنـة الصـادقـة المحـدقـة بهـا، ولتعلم أن الله صانك عن دنسـه ونزهـك عن التلبس بـه واختصـك بجهـاد من انحرف إليه وآثرك بفضيلـة ذلـك كلـه، ولتحمـد اللـه تعـالى على مـا ألهمك إليه وبصّرك به، وأراك الحظ فيه، ولتنشرْ خبرهـا في أهل عملـك، وتذيعها على البرابر حواليك ليزدادوا منه بعـداً وعنـه نفـاراً ولـه كرهـاً، ولتجدّ بصائركم في حربه وعزائمكم في دفعه، إذ أنتم أهل الدين المتين، والإسـلام الحصين، الـذي لا تـدخلـه آفـات الملحـدين، ولا تستفـزه خِـدع الفاسقين، فقد كان اللعين يستتر بهذه الحال ويطويها، ويمنـع من نشرها إلا لمن تمكنت خدع الشيطان من قبله، حتى كشفها الله عليـه ببعض من قدم إلى ما قِبَل أمير المؤمنين بها ممن كان عنده وممن كان مطَّلعاً على جميـع أمره، فلمـا أَسفر الحـق فيـه عن وجهــه وبَـدَا من ستره أمر أمير المؤمنين بكشفها للعامة فيما عنده، فازدادت بغضتها له، وحنقهـا عليـه، وعلمـوا أن الله تعـالى لا يسلـط مثلهـا على قـوم أحبهم بـل سلطـه نقمـة عليهم، وتحريفاً لدينهم وتبديلاً لإسلامهم، وإحالـة لقرآنهم، واللـه تعـالى ولي الانتقام من المفسدين، ومنزّل الغِير بالملحدين إن شاء الله تعالى).

☆ ☆ ☆

ولقـد أمسى النـاصر أكثر من أي وقت مضى لا يشـك في إخـلاص ابن أبي العافية الذي توصل هـذه المرة بلائحـة طويلـة من العطـايـا والهـدايـا يُعتبر ذكرهـا مـؤشراً على درجـة الحضـارة التي وصلهـا بـلاط قرطبـة آنـذاك... كمـا زوده بعـدد من الأَعلام والبنود فيهـا مـا كـان يحمـل شعـار

الصقـور والأُسـود : خمس وعشرون قطعـة من البـز الطرازي الخـاصي المرتفـع العجيب الصنعـة، العراقي، العُبَيْـدي من ذلـك خمس، والطرازي عشر، وصـوف البحر ثـلاث والسرقسطى اثنتـان، والعمـائم خمس، درج فضـة خلافي كبير، منقش الصفـائح، مـذهب التنقيش، أبيض الأَرض، مُلبَّس الداخل بالأُرجوان داخله.

تسع بين حقاق ومخازن، كلها مملوءة بأنواع الطيب، منه حق فضة مدوَّر الشكل، مملوء من نـدّ معقود بـالعنبر، وحق عـاج أبيض فيهـا عود بخور مطري بعنبر، وحـق عـاج آخر بـأوصـال فضـة أيضـا، داخلـه قـدح عراقي مملوء غاليـة مرتفعـة، وحق عـاج ثـالث بـأوصـال فضـة مبسوطـة الأَعالي فيها بخور الملوك ومخزن زجاج بمغطى فضة وسلسلة فضة فيهـا مسك أذفر سحيق، وحق عاج رابع أوصاله فضة أيضا، فيه ذريرة للصيف تستعملهـا الملوك عنـد العرق، وزجـاجـة عراقيـة مـذهبـة فيهـا مـاء ورد عراقي خلافي، وغشـاء ديبـاج، فيـه مشـط عـاج كبير سلطـاني لتسريـح اللحية، ومكحل ذهب، قد أدرج ذلك في سبنية شطريـة، وجوفـه ديبـاج، مُغشـاة بجلـد فـاسي غريب الصنعـة، لهـا أربعـة بيوت، في كل بيت منهـا مخزن فضة على طبعة الأَفرنجي : أحدهـا مشمع عنقـه شطرنجي، بغطـاء فضة وسلسلة فضة ومخزن ثان بدارات مشجرة بينها تشجير مشجَّر سوى العنـق مصقر الأَسفل، بغطاء فضة وسلسلة فضة، ومخزن ثـالث مثلـه على حكـايتـه، ومخزن رابع على صفـة الأَول وصنعتـه فيهـا النقـاوات الأَربع الخلافيـة المرتفعـة : الحرشـاء والصفراء والبيضـاء والنضـوح، وفي هـذه الجونـة مع هـذه المخـازن زجـاجـة عراقيـة بمَسُوح خـلافي، ودَرَج فضـة صغير بعود الخلال، والعدة التي تستعملها الملوك بعد الطعام.

وكـان في الهـديـة من غرائب السـلاح أربعـة بنـود : (بنـد أول فيـه صـورة عقـاب) مختلف الأَلـوان، رأسـه فضـة مـذهب النقش، لـه عينـان حمـراوان، في وسط جبهته فصٌّ أخضر. و (بند ثان فيه صورة أَسد) مزوق

أيضا رأسه فضة، له عينان سمائيتان، وبند ثالث مطلق كبير أبيض مكتّب بتذهيب في جوانبه الثلاثة كتاب عريض وفيها سيفان، وهلالان مزوقان، وأربعة قرون للضرب، جاموسية مجزّعة الأطراف الضيقة بأجمعها، غلائفها ديباج، وعِلَقها أديم أحمر، ولكل واحد منها أربع حلق فضة للعلائق حلية، إحدها فضة مذهبة، ملوزة بلوز أبيض بصنيفتين مذهبتين، مشمع الطرف الأضيق، فيه أربع حَلق فضة، وحلية الثاني فضة بصور، وحلية الثالث فضة منقشة مشمعة، وحلية الرابع فضة منقوشة مشجرة، وستة من الطبول المذهبة الكاملة الآلة بزواقرها في غلف أآدم أحمر، مبطنة بصوف، وعشرون نبلة أعجمية.

☆ ☆ ☆

وبموت عُبَيد الله الشيعي (322 = 934) صاحب المهدية تولّى مكانه أبو القاسم الذي لم يتردد في قتل إخوته وقتل كبير من أكابر أبيه... «إن الأمور بحضرتهم مضطربة» كما ورد في تقرير ابن أبي العافية إلى الناصر...

(وقد أخذ اليقين بموت الشيخ الرجيم عُبَيد الله الشيعي صاحب المهدية عميد هذه النحلة المشرقية الضالة، وخليفة الشيخ النّجدي صاحب قوم دار الندوة، أصلاه الله جهنم وساءت مصيراً، وإنه ولى مكانه اللعين المكنى بأبي القاسم ولي عهده، وأنه قتل إخوته كلّهم إلا واحداً هرب إلى كتامة شيعتهم، فولوه على أنفسهم تنافساً منهم في أهل بيت اللعنة، وان أبا القاسم قصمه الله قتل أيضاً كبيراً من كبار رجال أبيه، فالأمور بحضرتهم مضطربة، والحمد لله كثيراً كما هو أهله).

☆ ☆ ☆

ولقد شجع ذلك الإضطراب من جهةٍ على وفرة عدد التائبين والمتبرّئين والمستأمنين، واللاجئين إلى مَن بِقُربهم بفاس أو البصرة أو المسيلة.. لكنه من جهة أُخرى قويٌ من عزم ابن أبي العافية في تتبع

بني إدريس والإجهاز عليهم في الحصون والقلاع التي يلوذون بها في الشمال، ومن هنا وردت فكرة تعزيز طنجة وصرف القوة إليها وإلى أصيلا... «إن سبتة - يقول ابن أبي العافية - قد كفت مؤونةَ من يقصدها فلا يصل إليها عدوّ لأن البحر قد أحاط بها والوعر حولها قد تكنّفها، فالأموالُ تنفق عليها بغير فائدة».

فلكي تتحقق أماني أمير المؤمنين في الوصول إلى المشرق لاسترجاع ميراث سلفه، ينبغي - كما ينصح ابن أبي العافية - أن يقضي أولاً على آل إدريس، الذين يتهمهم ابن أبي العافية بأنهم سند للشيعة في الغرب، وهم الذين يوالون مهاداتهم، فَلَو نزلت القوة بطنجة لشغلوا بأنفسهم عن أولئك المشارقة...».

تقول رسالة ابن أبي العافية إلى الخليفة الناصر سنة 323 = 935 :

(... ومما أَحبّ أمير المؤمنين سيِّدنا معرفتَه من أخبار المشارقة قصمهم الله، فإن جيشهم الملتف بالخصيّ ميسور، يَسَّر الله حتفه، عاود حربنا في هذه الصائفة بجدّ وعزم كذّب الله فيه ظنهم، وأضعف جندهم وصرفهم على أعقابهم، وبلغهم ما فعله أهل تاهرت بأبي مالك بن أبي شحمة عاملهم وما أظهروه من الخلاف عن طاغيتهم أبي القاسم قصمه الله ومن حولهم من قبائل البربر، فحاروا وسُقط على أيديهم، وزاد في خوفهم ما فيه طاغيتهم أبو القاسم مع إخوته بالمهدية من الخلاف، فأبلس الأخابث وتساقط كثير منهم ومن شيعهم علينا متبرئين منهم، وهربت طوائف من عسكرهم مستأمنين إلينا حتى صارت الطرق سالكةً إلينا من عندهم بالهاربين من فتيانهم وأولي البأس منهم كَمِكَاسة ابن الناصر المكناسي أمير العرب ومن قدم بَعْدَه من رجال مكناسة ولواتة وهوارة وزناتة وأهل جبل بُوجان بني عم داود بن مصالة وزواغة أهل شلف إلى من يعرف منهم في الأسواق بديار المغرب بفاس والبصرة والمسيلة وبأسواق البربر والطائفة التي جازت إلى الأندلس.

وبقي المقطوع ميسور المخذول قطع الله أوصاله مع قرينه يَغْمُراسن بن أبي شحمة، والّى الله عليه الغمرات في جزيرة منقطعة مع شرذمتهما من الطوائف التي وردت معهما من المهدية، لا ظهير لهم ولا معين بحمد الله يؤيدهم، ما بقي عندهم إلاّ أراهط نشبوا عندهم من أوْربة، وقوم يقال لهم الفاسة ولجاية وبنو حريز بيت من غمارة لا غير، وصارت إلينا قبائل أهل المغرب بأجمعهم من كلّ مكان حول فاس من زواغة ولماية، ومن درعة ومكناسة أهل الجبل وجيرانهم نفزة أهل الطواعن من بني مَرْزَحُون وبني مدساع، وبني حماية، وبني يرناين، وبرنازة، وبني محمد، ومديونة أهل مدهن، وجراوة أهل أغريس وزناتة من بني سنان وحيمال، وبني مراين وبني دهنة ومُحاصة[1] وبني مصلان، ومنكان على مُلوية وصاع[2] من قبائل بني راسين، وبني يفرن وبني يزناسن وبني وريمش مطماطة أهل مُلوّية إلى حوز جراوة بن أبي العيش إلى ما أحاط بنا نحن من قبائل البربر، من مكناسة وأوربة وهوارة وصدّينة ونفزة ولماية وكرناطة وصاروية وقاصونة ولواتة وسُوماتة وبني مَسَرة أهل فَنْدلاوة وقبائل غيرها لا يسعها كتابنا، كلُّهم داعين بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين مولانا، فنحن في عدد عديد وجمع عتيد وقوة قوية والحمد لله.

وقد ذكرتُ لأمير المؤمنين أمر مدينة طنجة والفائدة في ضبطها وصرف القوة التي توالي إخراجها إلى سبتة، إليها وإلى أصيلا أختِها، لأنّ سبتة قد كفيت مؤونة من يقصدها فلا يصل إليها عدو، لأنّ البحر قد أحاط بها والوعر حولها قد تكنفها، فالأموال تنفق عليها بغير فائدة ويأخذها من لايستحقها، وأنا عين أمير المؤمنين الكائنة في هذه العدوة،

1) معروفة إلى اليوم بهذا الإسم بقبيلة غياثة.
2) صاع : هو وادي زا الحالي.

فلابُدّ لي من إنهاء ما فيه النصيحة إليه، ولم أخاطبه إلا بما فيه تزيُّد طاعته وانتشار دعوته حتى يتصل بالمشرق وميراث سلفه إن شاء الله، ويزاول أمر هؤلاء الأدعياء آل الحسن الأَدارسة أولاد محمد وعمر قاتلهم الله، فإنهم عدّة المشارقة في غربنا، وهم الذين يرددونهم إلى هذه الغاية ببلدنا، يوالون هداياهم، ويصلون أيديهم بأيديهم، فلَوْ نزلت القوة بطنجة وجردت لها العزيمة لسقط ما بأيدي هؤلاء الأَدارسة وغيرهم، ولشغلوا بأنفسهم عن المشارقة !

وأمير المؤمنين أعلى عيناً من أن يبصّر بهذه الأُمور، ولكن النصيحة له تدعو إلى إمحاض الرأي، وعلى الله توفيقه).

وحتى يجسّم ابن أبي العافية خطورة الوجود الشيعي الذي يدعمه الأَدارسة في زعمه، نراه يتحدث عن نوع من أنواع زواج المُتْعة عند بعض فرق الشيعة يعرف بالمتعة الدورية - على ما يشرحه الشيخ جمال الدين الألوسي - ويتعلق الأمر بتداول امرأةٍ بين عددٍ من الرجال، كلٌّ ودوره !!..

لقد استشهد ابن أبي العافية بعد أن وصف معركة رهيبة جرت بينه وبين بني إدريس المحمديين، بقول بعض الشعراء مما يدلّ على تمكُّنه في الأَدب العربي.

إن الجهاد في الشيعة أولَى من جهاد الروم يقول ابن أبي العافية !!! والله إن عندهم اليوم في عسكرهم وأخبيتهم بناتٍ من صدّينة وغيرها من قبائل البربر يعبثون بهن ! وبلغني أنه يكون في الخباء ثلاثة رجال أو أكثر يتداولون امرأة واحدة، فأَيُّ قُربى أدنى إلى الله من جهاد هؤلاء ؟!!..

(... والذي يُريد أمير المؤمنين سيدي من أعلامي إياه ما نحن فيه مع المشارقة أهلكهم الله وقطع مدَّتهم، فإنهم مشوا إلينا إلى (لكاي) ومعهم

الأدعياء من بني إدريس : بنو محمد، وبنو عمر المعروفان ببني ميالة إخوتهم، بعساكرهم كلها، فكان بيننا وبينهم قتال مارئي مثله في غربنا اليوم منذ زمان، وجالت الخيل بيننا وبينهم جولة أخطأ فيها الحكيم حكمته، وأضل فيها العاقل سمته، كما قال حبيب بن أوس الطائي :

في ساعة لو أن لقمانَ الحكيم بها وهْوَ الحكيمُ لكان غير حكيم !

فقتلوا لنا بعض صبياننا طاشوا من المدينة، ثم غشِيَهم مدى سيف أمير المؤمنين من ناحية بالكتائب، فولوا مدبرين، ومنحنا الله أكتافهم فقتلنا منهم مائتي فارس أخذنا خيلهم وعقرنا خيلا كثيرة غيرها، وقتلنا من رجّالتهم عدداً كثيراً وكان لنا فيهم فتح عظيم، ثم لم يعاودونا بعد واستقروا في محلتهم على ثلاثة أميال منا، وذلك أن المقطوع قائدهم قطع الله مدّتهم إنما ثاب بعد ضعفه بقدوم أولئك القُريش عليه فرجع للوقت معهم من المرحلة التي كان مشى بها، فنزلوا منا على القرب، وصاحب نكُّور قبّحه الله هو أضرَّ بنا من أولائك القريش في الحقيقة، لأنه أرفق بالبحر بعد أن وقف به الجوع والجهد لما مكر بأمير المؤمنين فيما بلغنا، وكاتبه يقول : إنه معنا، وأن الميرة تجيئنا من بلده، لا واللهِ العظيم، ما كان شيء مما قاله، وان بلدنا وأحوازنا على ما بنا من مغاورة العدو لنا وتردّده بناحيتنا لأكثر رخاء وأوسع نعماً من نكُّور وأحوازها، وما يأتينا من عنده إلاّ الغارات التي لا يزال يشنها على أطراف طاعتنا مما يليه، وما تمضي طرائف بلده وتحفه علانية إلا إلى المقطوع ميسور لا يسّر الله أمره وقطع مدّته، والناس كلهم قد رمونا بحجر واحد، لانقطاعنا إلى مولانا أمير المؤمنين، وتمالأُوا علينا بالباطل، فليس لنا اليوم ناصر إلاَّ الله وحده لا شريك له، وحسبنا به وكفي.

وقد تابعتُ الكُتُب إلى أمير المؤمنين أصدقه عن كنه الحال، وابيّن له سبيل الإشفاق، فما الذي بطأ بعونه لمولاه ووليه، ومن يدين الله

بمحبته والتشيّع لدولته مع الرغبة في مجاهدة هؤلاء الخنازير الذين جهادهم عند أهل السنة أولى من جهاد الروم، إذ لا نِحلة يعتقدونها في الحقيقة ولا عقد لهم ولا عهد، يجحدون نبوة محمد ﷺ، ويتأولون كتاب الله تعالى على غير تأويله، ويستحلون المحارم ويرتكبون الفواحش جهاراً، وقد اتخذوا عباد الله المسلمين خَولاً لهم، وما لهم فيئاً لديهم، والله إن عندهم اليوم في عسكرهم وأخبيتهم لبنات صدّينة وغيرها من قبائل البربر يعبثون بهن، ولقد بلغني أنه يكون في الخباء ثلاثة رجال أو أكثر يتداولون امرأةً واحدة، فأيّ مصيبةٍ حلت على المسلمين أعظم من هذه ولا أشد !

حول المتعة الدورية !

«... وان جماعةً نحو خمسةٍ أو أقل أو أكثر يأتون إلى امرأة واحدة تقول لهم : من الصبح إلى الضحى في متعة هذا، ومن العصر إلى المغرب في متعة هذا، ومن المغرب إلى العشاء في متعة هذا، ومن العشاء إلى نصف الليل، في متعة هذا، ومن نصف الليل إلى الصبح في متعة هذا، ويسمونها «المتعة الدورية» وان امرأة تتمتع بخمسة رجال، ولا يدري أحدهم بالآخرين، وقد ذكر بعض الثقات أن ثلاثة من علمائهم اجتمعوا للغسل في حمام واحد فسأل بعضهم بعضاً، فإذا الثلاثة قد تمتعوا تلك الليلة بامرأة واحدة ولا يدري بعضهم ببعض !

عن الشيخ محمود شكري الألومي بخط أحد تلاميذه

ولقد أخبرني رجل من حجاج غربنا أنه مشى في المهدية يوماً حتى أقبل ابن أحمد الوزير ورجل يقرأ علانية : «أفلا يتدبَّرون القرآن ؟ ولو كان [من] عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً». فقال له ابن أحمد علانية : «لقد تدبَّرناه يا كشخان فوجدنا فيه اختلافاً كثيراً».

فأي فرية على الله وأي مصيبة على المسلمين أعظم من مصيبة هؤلاء القوم ؟ أم أيّ قربة أدنى إلى الله تعالى من جهادهم وتطهير البلاد منهم ؟ فليعن أمير المؤمنين في مجاهدتهم وليُصلت عزمه في نصر أوليائه وتقوية شيعَته ﴿فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

وأما أهل تاهرت وأحوازها فقد كشفوا وجوههم في خلاف الطاغية أبي القاسم قصمه الله وصرحوا بالنفاق عليه، وأخرجوا صاحب الخراج ببلدهم مالك بن أبي شحمة صاحب اللعين من مدينتهم، بعد أن نهبوهما وأخذوا ما كان عندهما من مال وعدة، واتفقوا مع أهل السنة من قبائل البربر على إيثار طاعة الله تعالى والولاية لأمير المؤمنين، سيدي، أعلى الله أمرهم وزادهم تثبيتاً ونصرة.

والطاغية أبو القاسم إمامهم مع ذلك مع إخوته في المهدية عُش الضلالة بعدُ بحال مضطربة. وقد ظهر إخوته على بيوت وتعصَّبَت معهم جماعة، وبني أبو القاسم على الخروج قُدَّامهم من المهدية حصنهم إلى رقَّادة التي انتقل عنها أبوه ليمتاز عنهم بولده وأهله وحشمه، فالأمور هنالك مضطربة باعدها الله من الاستقرار، وعجَّل عليها بالدمار، فلو كانت من أمير المؤمنين مبادرة إلى إمدادنا لوجدنا الفرصة فيهم، ورجونا بحول الله انتظام طاعته من أقصى المغرب إلى أنأى المشرق، والله قدير على ذلك، وإياه نسأل أن يوفق أمير المؤمنين أحسن التوفيق، ويقف به على سواء الطريق، بمنه ويمنه).

المبادرة الإدريسية لدى قرطبة

- انهزام موسى بن أبي العافية أمام القائد الشيعي ميسور.
- المبادرة الإدريسية لدى قرطبة لموالاة عبد الرحمن الناصر.
- شجب الأَدارسة للشيعة المحرِّفة للسنة.
- إن على الأُمـويين أن يتفهموا قضية الأَدارسة وعليهم أن يختـاروا أولياءهم من معشر بني إدريس !
- حذر الناصر من الثقة في الأَدارسة والتزامه الصمت عن المبادرة..!
- مواصلة المسيرة الأُموية مع موسى ابن أبي العافية الذي ازداد ضراوةً في عدائه لبني إدريس.
- تشييد المعاقل وتجهيز الأَساطيل على نحو ما طلبه ابن أبي العافية.
- ابن أبي العافية يشعر بالتعب فيسلم مهام ولايته لابنه مَدْين الذي كتب للناصر يحمل هو الآخر على بني إدريس !!

المبادرة الإدريسية لدى قرطبة

ولا شكّ أن الأَدارسة تنفسوا الصعداء من انكشاف موسى ابن أبي العافية أَمَامَ القائد الشيعي ميسور عام 323 = 935، فلَطالما عمل على هدمهم أمام الناصر، ولَطالما رماهم بالتشيّع وأنهم ما انفكُّوا يسيرون في ركاب المهدية...

وقد أتاحت نكبة موسى الفرصة للأَدارسة لكي يكشفوا عن موقفهم أمام الناصر، إنهم ليسوا شيعة ولكنها «التَّقِيَة» هي التي جعلتْهم يداهنون الطاغوت، إنهم لا يقبلون الانتماء إلى المعسكر الذي يناهض الأُمويين، فعلى هؤلاء أن يتفهموا قضية بني إدريس، وعليهم أن يختاروا حلفاءهم وأولياءهم من معشر بني إدريس !!

ويتعرض ابن حيان للخطاب الذي بعثه إبراهيم وأبو العيش ابنا إدريس في أعقاب ما جرى لابن أبي العافية مجدّدين عهد ولايته - أي الناصر - متنصلين مما نسبه ابن أبي العافية إليهما مؤكِّدين «ما نحن عليه من موالاته والأَمحاض إليه وسلامة الضمائر في الإخلاص له والانقياد لإمامته لهدم الشيعة الرافضة القادحة في الشريعة، المحرِّفة لسنة الرسول ﷺ...»

(... كتبناه إلى سيدنا أمير المؤمنين بما نحن عليه من موالاته والإمحاض له، وسلامة الضمائر من كل شبهة أو مذق في الإخلاص له، بِحَمْد الله ونعمته، معرفةً بحقّ أمير المؤمنين وانقياداً لإمامته، واعتلاقاً بحبله رضًى بما أظهر الله من دولته، وآثر من إمامته على حين مدّها... مغْربنا، أطال الله بقاءه لهدم الشيعة الرافضة القادحة في الشريعة،

المحرفة لسنة الرسول ﷺ افتراءً منهم على الله تعالى وعلى نبيه ﷺ وعلى أهل بيته الطيبين، وابتلى الله عباده بهم ليعلم من يطيعه منهم، وأملى لهم ليزدادوا إثما، فاستفحل شرهم وآل إلى ما جرت مقادير الله به من ظهورهم على موسى بن أبي العافية وليّ أمير المؤمنين وقلعهم له، فزادهم الله صولا واستطالة على المسلمين بما هيأ لهم وما كان من انكشافه عنهم ونجاته إلى الرمال والصحاري فراراً منهم، فعظم البلاء عنده، وجل الخطب، ولله تعالى عواقب الأُمور.. ومنه مبدأها لا معقّب لحكمه في شيء منها.

وبلغنا أنه نمي لسيدنا أمير المؤمنين عنا أنّا توجهنا إلى الفاسق ميسور لا يسر الله أمره على أَسوأ الوجوه، ولم يكن ذلك، أكرم الله سيدنا أمير المؤمنين، إلا عن تَقِيَّةٍ منه ومداراةً له، ولنا الإسوة الحسنة في رسول الله ﷺ، فقد دارى صفوان بن أُمية الجمحي وغيره من المشركين والمنافقين حتى أظهر الله دينه وأعلى ذكر نبيه ﷺ، فلا يرتبْ أمير المؤمنين بطويتنا، وليجرد عزمه في معونتنا. فإنه متى فصل رأيه أيده الله بإخراج عسكر يناهض به هذا اللّعين الذي قد عاث في أرضنا وأتى بالعظائم التي لا يحلّ لأَمير المؤمنين تركه لها، بدرنا إلى قائده ابن حزب الله بالرهائن التي تكون وثيقة على طاعتنا وأسلمنا إليه مع ذلك رهائن كل من ضوى إلينا من البربر حتى يقتنع بالتوثقة ويبلغ الغاية، فإذا اجتمعنا مع الجيش المُخرَج إلينا رجونا ألا يثبت لنا عدونا إن شاء الله عز وجلّ).

فماذا كان موقف النّاصر من هذا العرض الجديد ؟

إن مكانة بني إدريس على ما نعرف... وإن رصيدهم بالمغرب والمشرق على ما نعرف أيضا، وهكذا فإن أي تقوية لظهرهم سيكون على حساب الوجود الأُموي بالمنطقة ! فَلْيتجاهلْ الناصر إذن عرضهم عليه وليستمر في مؤازرة أصدقاء الأَمس..!

وبهذا نفسّر إبحار أُسطولٍ إلى سبتة يتألف من أربعين قطعة قوام بحريته ثلاثة آلاف رجل... يتقدم من سبتة إلى مليلية ثم نكُّور ثم جراوة... حيث توالت الكتب على الناصر، حتى لتوافتْ عليه أربع رسائل من أربعة مواقع بأربعة انتصارات قرئت في يومٍ واحد بجامع قرطبة، حيث استمعنا إلى قصائد شاعر البلاط عبد الله بن يحيى ابن إدريس...

فتوحٌ توالت بالسعود الطوالع | تلذ بها الأسماع من كلّ سامع
وقائع أدتها صحائف أربعٌ | يخبّرن عن أنباء تلك الوقائع !!

وقد أنعشت هذه البشريات ابن أبي العافية الذي عاد لوشايته بآل إدريس وليؤكد أن القائد ميسور كان يعتمد على عون بني محمد وبني عمر !!

وفي الخطاب الذي وجهه في جمادى الأُولى عام 324 = 954 أحد قواد الناصر محمد بن عون أكّد رفع الحصار الذي كان ضربه القائد ميسور على فاس بعد أسر الأمير أحمد بن أبي بكر وأخذه إلى المهدية... وإنه أي ميسور قام بنفس عملية الغدر عندما مرَّ بأمير أرشقول إبراهيم بن إدريس الذي خرج يستقبله مدارياً، فصفّده بالحديد وأخذه إلى حيث أخذ بالأمس عامل مدينة فاس..!

(... إعلم أمير المؤمنين سيدي أن ميسوراً عبد اليهودي أبي القاسم لا يسّر الله أمره قفل عن المغرب لمستهلّ جمادى الأُولى من هذه السنة منصرفا إلى موضعه وقد كان أقام على أهل فاس نحو الثلاثة أشهر محاصراً لهم فلم يعنه الله على ما أمله فيهم وخيب رجاءه ورده على عقبه، فلما اجتاز بموضع إبراهيم ابن إدريس الحسني صاحب (أَرْشَقُول) خرج إليه مدارياً له ملاطفاً بما عنده فقبض عليه وأمر بسجنه وصفده

في الحديد واصطلم جميع نعمه وأغرمه مع ذلك كلّه ما احتواه ملكه وحمله مع نفسه، فمقّت العبد الغادر بذلك نفسه إلى كل من سمع به.

وجاءني، أبقى الله سيدي أمير المؤمنين، رجال من عسكره وغيرهم من أهل المغرب يخوّفونني سطوته ويعرفونني مذهبه في وفي بلدي، وحقق ذلك عندي ما ركبه من [إبراهيم بن] إدريس وعلمت أننا في الذنب الذي منه سيان من ولاية سيدنا أمير المؤمنين، فضقت ذرعاً بمخالفته، وهممت ومن معي بالخروج من بلدنا وإسلامه إليه، فَعَدِمْنا السفن بساحلنا وغشينا الفاسق فاضطررنا إلى الثبات بمكاننا ودنا اللعين منا بعسكره على مقدار بريد منا، فلم أر بدّاً من ركوب الغرر في مغالطته والخروج بنفسي إليه، ورأيت أن احتسابها في خلاص قومي يسير، فخرجت نحوه بعد أن استظهرت على أَمري بمراكب أعددتها لأَهلي وأمرتهم بالدخول فيها والانحياز إلى كنف أمير المؤمنين إن سبق العبد اللعين بي إلى حال مكروه.

وصرتُ إليه متوكّلاً علىالله مستعيداً به من شرّه، بعد أن لم أترك عند نفسي لُطفا، إلا قدّمته بين يدي لقائه، استبلاغاً في مداراته فتفضل الله علي بالخلاص من يده، وألقى لي الإجلال في نفسه، مع ما عرفه مما كان مني أولاً في النفار عنه، والاستظهار في خروجي إليه مما ادعاه على وجهه، فغلّ الله يده عني، وأقرّني على حالي، وصرفني إلى موضعي وحرص على استمالتي إلى حزبه بعد أن عدد علي ما كان مني في جانب سيدي أمير المؤمنين، وأعلمني أن خبري قد رُفع إلى مولاه من جهات، وحذّرني سوء العاقبة، وذكر لي أُموراً يطول بها الكتاب أجبته عنها بما تقتضيه المداهنة، فتخلصت منه، ووهب الله العافية، والحمد لله رب العالمين).[1]

1) المقتبس ص 385.

لقد عاد ابن أبي العافية إلى طموحه، وهو اليوم - في رسائله يتحدث عما لقيه في سبيل أمير المؤمنين... كما يتحدث عن استجابته لرغبة أهل مدينة فاس في أن يبعث لهم ابنه مدْيَن كعامل عليهم... وهو أخيراً يستشير أمير المؤمنين في العرض الذي تقدَّم به إليه آل إدريس الذين خطبوا سلمه فأبى عليهم ذلك !! إن ابن أبي العافية يطلب إلى الناصر أن يساعده على تحصين القلعة التي انزوى إليها على ساحل المتوسط، كما يطلب إليه تحريك الأُسطول من جديد وهو في أَثناء هذه الخطابات يحاول بشتى الوسائل أن يثبت أنه وفيّ للبلاط :

ذنبه عند المشارقة أنه يحب أمير المؤمنين ويعلن اسمه على المنابر... ولقد طلبوا إليه أن يعود إليهم على أن يتنازلوا له عن المغرب بأسره لكنه أبى وقد تقرب من سيدنا وصار الآن على شاطئ البحر حيث يسهل الإتصال به» :

(... فإنّ رأي سيّدنا أمير المؤمنين أن يهتبل بأُمورنا ويجدّد العناية بِنَا، ويجبر صدعنا ويخلف لنا بعض ما ذهب منا مما أسلبناه من نعمتنا بما يمكّننا به من حلول هذا المعقل الذي نقدر أن نسند إليه ظهورنا وما يقدمُه من إنهاض الأُسطول المؤيد إلينا أَوَّلَ وقت الحاجة إليه، فعل مانّاً متفضلاً بعبده ووليه، ناظراً إليه بعين رحمته ورأفته، فوالله العظيم لقد حلّ علينا في ذاته من الذل بعد العز، والتجول بعد القرار، والجوع والعطش في حلولنا الصحراء مالا أقدر على وصفه مما قد بلغه، أبقاه الله، فأوجع لا محالة قلبه، ويعزّني أنه في رِضَى الله تعالى جده، وفي جنب محبتنا فيه أيده الله، وديمومتنا بطاعته، التي هي ذنبنا عند المشارقة قبّحهم الله لا شيء سواه لتصحيحنا فيها وإعلاننا اسمه المبارك على منابرنا، حتى والله لقد خاطبني العدو لله، ميسور الخصي، لا يسّر الله أمره، وقت الحصار يقول :ابرأ من ولاية عبد الرحمان بن محمد والدعاء له على منابرك وأنا ارتفع لك عن المغرب

بأسره وأرد عليك الناس من أهله، وأنزلك من مولاي أفضل المنازل لديه، فرددت عليه أقول : أعوذ بالله من الكفر بعد الإيمان ومن التعلق بحبل الشيطان، فازداد عند ذلك غيظاً وجدّا في حربنا حتى قضى الله تعالى بخروجنا عن أوطاننا، وأرجو أنّ في ذلك كلّه الخيرة، لأنه ربما يُفسد الشيء لصلاحه ! فقد تقربنا غِبَّ ذلك من سيدنا أمير المؤمنين وصرنا الآن على شاطئ البحر من حيث نتّصل به ويتصل بنا رجاله من قريب، ونأتيه بأنفسنا إن احتجنا إن شاء الله).(2)

لقد كان جواب الناصر على محنة ابن أبي العافية سريعاًومفيداً، وهكذا وجدنا الخليفة يبعث بالمعدّات الّلازمة لبناء المعقل حيث أرسل إليه رئيس المهندسين لديه، : محمد بن فُشتيق، مع ثلاثين بناء وعدد من النجارين والحفارين والجيارين والأشارين لأشر الخشب، والحدّادين والحَصّارين مع الآلات والأدوات الّلازمة، هذا إلى كمية كثيرة من الطعام والقوت والحنطة على اختلاف أنواعها والعسل والزيت والسمن...

مليلية في حديث البكري

ومنه (حصن منيع في أعلى جبل شاهق) إلى مدينة مليلية وهي مدينة مسورة بسور حجارة وداخلها قصبة مانعة، وفيها مسجد جامع وحمام وأسواق وهي مدينة قديمة، ويذكر أن بني البوري بن أبي العافية المكناسي جددوها وسكنها بنو وَرْتِدي... وذكر محمد بن يوسف وغيره أن عبد الرحمن الناصر لدين الله فتحها سنة أربع عشرة وثلاث مائة وبني سورها معقلا لموسى بن أبي العافية، وقال أحمد بن محمد ابن موسى الرازي يذكر ذلك :

والملك الناصر دين الله ... فيما يحوط الدين غيرُ ساه
بنى لموسى عدةً مدينه ... منيعة شاهقة حصينه
ذلت لها (تاهرت) والأفارقة ... ولم يطق بنيانها العمالقة

عن البكري ص 88 ـ 89

2) المقتبس ص 388.

وقد صحب كلّ هذا تشكيلة من الهدايا الرفيعة التي ـ كما عهدنا ـ تؤدي صورة عن البيئة التي كانت تعيشها قرطبة : قطع الخزّ العُبيدي الخاصي من كسوة الخليفة عشرون شقة، ومن الطرازية الخلافية خمس قطع، العمائم عشر، ثياب الخزّ المختلفة الأجناس في صناعات طراز العمامة لكسوة رجاله مائة ثوب، الشقاق الطرازية المصبوغة صبغ الثياب خمس عشرة شقة، شقق الصوف الطرازية المصبوغة صبغ شقاق الكتاب الخاصة الدقاق لكسوته عشر شقاق، وعشرة أردية، وأربعون ملحفة، شقاق الكتان المتوسطة لكسوة رجاله : أربعون شقة، ومن الشقاق دون المتوسطة لكسوة رجاله مائة شقة، ومن أنواع الفرش من بسط الصوف الكامل المختلفة الأجناس سبع وثلاثون، ومن الوجوه الظهائر غير مبطّنة مختلفة الأجناس ثلاث وأربعون، ومن وسائد الصوف صناعة الواسطي ستون وسادة، قُبة أدم (جلد) من ثلاثين بنيقة بجميع آلتها وإزارها وخيمة مستراحها ولبدان وبساطان ونطعان لها، مقدرة على قدرها، وفراش ديباج أرضه موشية مطرّز قانٍ بخزّ ريحاني، معه تبارشيَان من جنسه، مطرز قانٍ بخزّ ريحاني ومخدتان شطوى مفضّضتان مختّمتان، بطانتهما خز طرازيّ أُرجواني وفسطاطان جديدان من ثلاثين بنيقة بجميع آلاتها.



وفي الوقت الذي استجاب فيه الخليفة الناصر لمطالب ابن أبي العافية وجدنا أن جوابه على اعتذار الأمير الإدريسي إبراهيم رئيس بني محمد مما نقم عليهم من موالاة المشارقة وجوابه كذلك على تأكيد رغبة الأدارسة في مسالمة ابن أبي العافية... وجدنا جوابه يتلخص في أنه يلوذ بالصمت !



وقد حملت سنة 325 = 936 ـ 937 نشاط الأُسطول الأندلسي على ساحل المتوسط على نحو ما طلبه ابن أبي العافية حيث وجدناه يحتل نكُّور ثم جزيرة أرشقول ثم يعيد الكرة على جراوة... وهي المعلومات التي نقرأها في الرسالة التي رفعها موسى ابن أبي العافية إلى الخليفة الناصر :

(... وقد تقدَّم لي غير ما كتاب إلى الناصر لدين الله سيدي أمير المؤمنين مما كان من صنع الله وتأييده على أهل الشقاق الكفرة لما ورد علينا الأُسطول المنصور، وحل بمرسى نكُّور، ناهضنا الفاسقين بها فنجحنا فيهم واستولينا على جميع نعمهم وحملنا السيف على من استحق منهم وأعفينا الرعية وأصحاب السلام من التجار وغيرهم، ثم أخرجنا شواني من الأُسطول الميمون فقدمناها إلى جزيرة أرشقول التي كان الداعي ابن أبي العيش قد اتخذها مستقرّاً، وكان قد استبعد عنها لما كان يتوقعه منا، صيَّرنا في الشواني رجالاً من قِبَلنا، فدخلها رجالنا وافتتحوها واستولوا على جميع ما كان المنافقون استعدُّوا به فيها، ونقلت المراكب جميعها إلينا، وخربنا ما كان الدعي قد ابتناه بها من دار وغيرها، فأعدناها خراباً على ما كانت عليه أول مرة.

ثم قصدنا مدينة جرَاوة بجميع من كان معنا بعد تدويخنا الساحل، ونكايتنا أهله ومنعنا المراكب من الحلول به وصرفنا جميعها إلينا فنزلنا بفغرة المخذول ابن أبي العيش، وخرج إلينا بعدته وعديده يلتمس دفاعاً عن موضعه فدارت بيننا وبينه حرب يسيرة، ثم نكص أصحابه مدبرين وأخذهم القتل، ولولا تعلقهم بالأوعار وقربها منهم، لا صطُلِموا عن آخرهم، فسفكنا دماء حماته، وأخذنا خيلا عديدة، وانحصر لنا في القلعة التي ابتناها، فأحطنا به وأدرْنا العسكر حوله، وتغلبنا على مدينة جراوة، وغنمنا جميع ما كان فيها، فأصبنا بها من الأطعمة وضروب الأقوات والذخائر ما استوسع أهل العسكر فيه، ونحن

ملازمون للخائن الداعي، آخذون بمخنقه، طامعون بالظفر به، فإن رجاله ينزعون إلينا مع الأيام ويضعّفون شدة ورطته وقد تقاطرت علينا القبائل المُدهنة معه من كلّ جانب يرغبون في اعتلاق الطاعة ويُقرون بالذّنب، فأوسعناهم استئلافاً لهم على الدّولة، وإبعاداً لضيمها بالمغرب كلّه بقدوم هذا الأسطول إلينا ورهبة الأعداء له حولنا، وارتجّت له أرض العدوة وأيقن أهله أن سيدنا أمير المؤمنين لنا بحال اهتبالٍ ومعونة.

وأما الخصي ميسور عبد اليهودي المغرور قائده بالمغرب فخمد أمره بسرعة، وبلغنا من غير وجه أن العدو لله مولاه أبا القاسم، قصمه الله، سخط عليه لأمر أنكره منه، وأنفذ البُرُد إليه فقبضوا عليه ومضوا به إليه من تاهرت مغلولاً مقيّداً في الحديد قد سلطه الله عليه بما عصاه في طاعته وأعانه على سخطه، وان تاهرت بعدُ خالية من رجال اللعين لم ينفذ بعد إليها أحد، وأهل الغرب في شدة وجوع وشَقوة).

ولم تنته سنة 325 = 937 حتى ارتفع الشرُّ بين ابن أبي العافية وبين ابن أبي العيش الذي كان قد صالح الأمير العميد محمد بن خزر أمير زناتة بل وصاهره، وهو اليوم يتنازل عن كل مطالبه سوى القلعة التي يسكنها مع حاشيته !!

☆ ☆ ☆

وإذا ما انتقلنا إلى الأحداث عام 326 = 938 وجدنا أيضاً جملة من أخبار العلاقات المغربية الأندلسية عبر الرسائل التي كان أرشيف قرطبة يتوفر عليها، وهكذا وجدنا أن بني موسى ابن أبي العافية أخذوا يَتقلدون تدريجياً مهامّ والدهم، وبخاصة بعد المحنة التي عاشها عندما هزمه القائد ميسور !

وهكذا أيضاً وجدنا الناصر يتوصل في هذه السنة برسالة من أبي منقذ الإبن الثاني لموسى ابن أبي العافية يطالعه فيها بأخبار منطقته، الأمر الذي أجاب عنه الناصر مشجعاً مباركاً، وقد كان في هدية الناصر

ثياب من إصفهان، وأُخرى من صِقِلية، وسروج إفرنجية، إشعاراً بأن الخلافة الأُموية على صلة بسائر أطراف الدنيا على نحو ما نقرأه في هذه العبارات التي نقتبسها أيضاً من ابن حيان :

«كان في الهدية من قطع الخزّ العبيدي ثلاثة وثلاثون شقة، ومن الطرازيّ عشرون ثوباً، شطرها مصبوغة الصوف وشطرها مصبوغة الثياب، ومن عمائم الخزّ ثلاث عشرة عمامة، وبَدَن إصبهاني كاسٍ مزين اللّفقة، من قدامه عمود أصفر، عليه إبزيم ومخطاف فضة معَشْشَان مذهَّبان، وزنه ثلاثة وعشرون رطلاً، ومغفر صِقَلي مزين الجبين والخدَّين، أصفر، من قدامه عمود أصفر، ومن خلفه صنعة زُبَيْدية صُفْر، في أعلاه كوكب فضة منقش مذهب، وزنه ثلاثة أرطال، وثلاثة بنود مزيّنة، أحدها عَلَم وأربعة طبول لاطون بآلتها، وبغل أشهب من بغال الركاب بسرج إفرنجي مدوّر كسوته مزيّن موشّى في صقرٍ منقّط بكحلى ولجام بغلى لزمته عربية مقرطة محبَّبة».

ولم يلبث مدْين الإبن الآخر لابن أبي العافية أن اتجه بكتابه هو الآخر الذي يقدّم فيه معلوماتٍ هامة عن فاس هذه السنة وعن مدى تعاون بني إدريس معه... إنه كوالده يحمل حقداً بالغاً إزاء الأَدارسة وهو دون شك ضد أية تسوية تستهدف جعل حدّ للخلاف..!

إن فاس ليست مثل نكُّور، وإن الأَدارسة الذين يوجدون بإقليم فاس لايمكنهم أن يخفوا تعلّقهم بعاصمتهم..!

لقد كتب مدين إلى الناصر يصف غدر بني إدريس بن عمر وعودتهم إلى بني عمهم محمد، وبالغ مدين في إغراء الناصر ببني إدريس وإقامته الأَدلة على انشقاقهم، الأَمر الذي أثر في قلب الناصر بعد أن كانوا قد جدّدوا بيعتهم في هذه السنة كما يقول ابن حيان، وبعد أن أهدى الخليفة إلى زعيمهم إبراهيم وأبى العيش ابن إدريس بن عمر هدايا فخمة : فيها الثياب العُبَيْدية المرتفعة خمسون ثوباً، ومن عمائم الخز

عشر عمائم، ومن المصنفة للعمال عشرون، ومن شقاق الكتان ثلاثون شقة، ومن أردية الكتان المعلَّمة ثلاثون رداء، وبغلتان من بغلات الركاب خضراء ووردة، بسرجيهما ولجاميهما... ولهذا فلم يكن غريباً علينا أن نسمع عن إعراض الناصر وعدم اكتراثه بالخطاب الجديد الذي ورد من الأميرين : إبراهيم وأبي العيش يتنصلان فيه مما رماهم به الزّعيم المغربي مَدْين الذي كان على خطوة من تولي عمل والده الذي أدركه أجله في شوال 326 = 938.

لقد وافى كتاب مدين في آخر السنة إلى الناصر لدين الله الذي بعث إليه ببريدين اثنين أولهما يتضمن التعزية والأسف على الفجعة، والتسلّي بسدّ مدين لثلم موسى وثانيهما السجلّ أي المرسوم الذي يفوض إليه أعمال والده من مليلية وغيرها من مدن العدوة حسبما ما كان اسجل لأبيه من قبله...

وقد بعث الناصر في هذه السنة أيضاً إلى الخيْر بن محمد بن خزر عظيم زناتة وأكبر أهل ولايته بالعدوة، بهدية حسنة كان فيها من ثياب الخزّ العُبيدي المختلف الصنعة والألوان : ستة وثلاثون شقة، ومن الطرازية اثنان وعشرون ثوباً ومن عمائم الخز أربع عشرة عمامة.(3)

☆ ☆ ☆

لقد كان على ابن حيان أن ينقطع عن تزويدنا بأخبار المغرب طيلة سنة أو تزيد من ذهاب ابن أبي العافية لأن البلاط الأموي كان منشغلاً بآثار كارثة غزاة الخندق التي لم يجدْ الخليفة عنها سَلْوى إلا في اشتغاله بإتمام بناء مدينة الزّهراء... ولكنه حمل إلينا مع أحداث منتصف عام 328 = 940 خبراً أدخل السرور على بلاط قرطبة، ويتعلق الأمر بانحياش قائد شيعي سابق إلى ولاية الناصر... كان هو يَصَل بن حميد المكناسي الذي أصبح محلّ ثقة عند الأمير محمد بن خزر عظيم زناتة... وكانت له في الدبّ عن الدّولة أخبار طويلة...

3) المقتبس ص 427 ـ 428.

مدينة الزهراء بقرطبة

ابندى بنيانه في أبام الناصر من أول سة 325 = 936، وكان يصرف فيها كل يـوم من الصخر المنجـور سـتـة آلاف صحرة... وحلب إليهـا الرحـام من قرطـاحنــة إفريقية... وكان فيها من السواري أربعة آلاف سارية وتلاثمائة سارية وثلاث عشرة سارية المحلوبة منها من إفريقـة ألف سـاريـة وثلاث عشرة سـاريـة، وأهـدى إليـه ملك الروم مائة وأربعس سـاريـة، وسـائر ذلـك من رخـام الأنـدلس، وأمـا الحوض الغربي المنقـوش المـذهب بـالتمـاتيـل فـلا يقـدر بقيمـة، حلبـه ربيـع الأسقف من القسطنطينية من مكـان إلى مكـان حتى وصل في البحر، ووضعـه النـاصر في بيت المـام في المجلس الشرقي المعروف بـالمـؤنس وكـان عليـه إثنـا عشر تمثـالاً من الذهب الأحمر، مرصع بالدر النفيس الغالي مما صنعه بـدار الصنعـة بقصر قرطبـة... وكان يخبر في أيـامـه كل يوم برسم حبتـان البحيرات ثمـان مـائـة خبزة ! وعـدة الدور التي بقصر الزهراء : أربعمائـة دار، وذلـك لسكنى السلطـان وحـاشيتـه وأهل بيته... وكان عـدد أربـاض قرطبـة في ذلـك الوقت ثمـانيـة وعشرين ربضـا، منهـا مدينتان : الزهراء والزاهرة، وأما (اليتيمة) التي كـانت في (المجلس البـديع) فـإنهـا كـانت من تحف قيصر اليونـاني صـاحب القسطنطينيـة بعث بهـا للنـاصر مع تحف كثيرة سنية.

ابن عذاري 2، ص 231 ـ 232



مدينة الزهراء : دار الملك حيث الأعمال جارية الان لترميم بهو السُّفراء

في المفقود بين الصفين في محاربة العدو
بمعركة الخندق

وروى أشهب وابن نافع عن مالك (رحمه الله) في المفقود بين الصفين في حرب العدو أنه يُضرب له لامرأته سنة من وقت النظر لها ويورث عند انقضائها وتنكح زوجته إذا اعتدت أربعة أشهر وعشرا بعد السنة، وبهذا أفتى (الفقيه) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك ابن أيمن رحمه الله **فيمن فقد في غزاة الخندق (بجلّيقيّة عام 327 هـ) عندنا مع القائد** ابن أبي عبدة وأخذ بقوله وقضى به يومئذ، وهذا بعد أن تقوم بيّنة أنه كان بين الصفين وفقد، وإن لم تقم بذلك بينة فحكمه حكم المفقود، وجعله ابن القاسم رحمه الله كالغائب المفقود، وروى عيسى عن ابن القاسم في المستخرجة من قول مالك في المفقود في صف المسلمين في قتال العدو أنه لا تتزوج امرأته حتى يعلم أنه قد مات أو ياتي عليه من السنين ما يعلم أنه قد مات.

عن كتاب الوثائق والسجلات
للفقيه الموثق محمد بن أحمد الأُموي
المعروف بابن العطار 330 ـ 399 هـ
المعهد الإسباني العربي للثقافة ـ مدريد 1983

العلاقات المغربية الأندلسية
بعد ابن أبي العافية

- سفارة من الأمير مدين بن أبي العافية لدى قرطبة.
- اجتماع الخليفة بالوفد المغربي الذي أقام بالأندلس خمسة شهور...
- منذر بن سعيد مبعوث الناصر للاصلاح بين الزعيمين الجديدين لزناتة ومكناسة.
- هدايا الناصر المتوالية إلى الزعماء المغاربة.
- الناصر يرسل ببعثة طبية مزودة بالأدوية للأمراء الأدارسة المناصرين له ويقرر من جهة أخرى منازلة المناوئين له منهم...
- القائد قاسم بن محمد يعبر البوغاز...
- بلاط قرطبة يستقبل سفارات أخرى في أعقاب فتح تاهرت ووهران والتغلب على القيروان.
- بنو إدريس يتخلون عما بنوه في تطّاون مما فسر بأنه «قطع للمادة عن سبتة» !

العلاقات المغربية الأندلسية
بعد ابن العافية

وقد شهدت رحاب قرطبة في شعبان 328 = مايه 940 سفارة هامة وردت عن الأمير مدْين بن موسى بن أبي العافية... كان على رأسها ابنه محمد يرافقه عمه فرج بن موسى وطائفة من وجوه الدولة فاستقبلهم الخليفة بالجيش والعدّة، وكان دخول الوفد إلى قرطبة يوم السبت 19 شعبان = 30 مايه... حيث أنزل بقصر البُنْتِيل شرقيّ قرطبة، وتم اجتماع الوفد بالخليفة أكثر من مرة... وفي كلّ مرة كان الناصر يجدّد للوفد نوعَ التكريم الذي يخصه به... كانت فرحة الناصر بالغة... خمسة شهور في قرطبة تتهادهُم القصور والحدائق الغنّاء إلى أن ودعوا في عقب ذي الحجة بعدما أُثقلوا بالعطايا وحملوا إلى مدين رفيع الصلات وثمين الهدايا...

وكما رأينا الناصر بالأمس يبعث بابن أبي عيسى للإصلاح بين ولاته بالمغرب، وجدناه عام 328 = 940 يبعث بسفيرٍ جديد هو منذر ابن سعيد القاضي ليقوم بنفس المهمة بين الزعيمين المغربيين : الخيْر بن محمد بن خزر ومدين بن موسى ابن أبي العافية... وكتب إضافةً إلى هذا، إلى عبد الله بن خزر عمّ الخير وإلى داود بن مصالة كبير أصحابه يأمُرُهما بتقديم المساعدة للسّفير منذر...

ويظهر من خلال هذا أن الناصر كان يُعطي اهتماماً أكثر للخيْر، سيما وقد لاحظنا أن الهدية التي خصّ الزعيم الزناتي بها كانت الفريدة من نوعها فقد قدم إليه خاتماً من أَختامه الخاصة كان فصّهُ زمردة رفيعة

القدر شريفة الجوهر، نقش عليه اسم الناصر، طلب إليه أن يقتصر على الطبع به على ما ينفذه من كتبه إليه.

هذا علاوةً على صنوف من الكسى الفاخرة والأَمتِعة الرّفيعة والآلات الحربية الشريفة، من الدُّروع والتراس والدّرق والأَلوية والطبول وما أشبه ذلك.

وفي أواخر ذي القعدة من عام 328 = غشت 940 ورد وفد على قرطبة عن جزائر بني مزغنّة (الجزائر الحالية) يحمل خطاباً عن سكان تلك الجزائر يتبرأون فيه من أعمال الشيعة ويخطبون ولاء الخليفة ملتمسين إنفاذ عاملٍ إليهم من لدن قرطبة...

وقد سجلت نهاية هذه السنة حجة 328 = أكتوبر 940 حدثاً طريفاً في العلاقات بين بني أُمية وبين بني إدريس... يعتبر في نظرنا متعدّد الدلالات :

ويتعلق الأَمر بوصول كتاب من الأَمير أبي العيش بن إدريس وإبراهيم أخيه إلى الخليفة الناصر من حصنهما شمال المغرب يسألانه إنفاذ طبيب من أطبائه إلى حضرتهما لعلاج علّة بأحدهما استعصى علاجها على من عندهما... وهنا وجدنا الناصر يبادر لإسعافهما بما طلباه ويوجه إليهما الطبيب سليمان بن عبد الملك المعروف بابن باج... وليس هذا فقط ولكنه قبل أن يأذن له في الإنصراف فتح له خزائن الصّيدلة ليحتمل منها ما يصلح لعلاج العلة التي ذكراها، من الأَدْوية والأَشربة والعقاقير وغيرها... ونَفَذ سليمان نحوهما وطبّ علّتهما وأَقام مدةً عندهما...

☆ ☆ ☆

إن الذين يضعون خريطةً سياسة لبلاد المغرب على هذا العهد سيقفون لا محالة على خريطة متداخلة مضطربة فهي تمسي على حال

وتصبح على حال، فإن الأدارسة موزَّعون فيما بينهم منذ اليوم الذي قام محمد بن إدريس بعملية التوزيع بين الأبناء الثمانية، وإن بني هؤلاء الثمانية بدورهم توزعوا واختلفوا...

وإذا ما حاولنا تصنيفهم حسب انتمائهم لوجدنا أنّ معظمهم، إن لم نقل كلهم، يفضلون جانب الاستقلال وأن من اضطر فيهم للإرتماء في أحضان العُبَيْديين أو الأُمويين إنما يفعل ذلك مجاملة ومصانعة...

وقليل فيهم من يخلص حقيقةً لهذا الفريق أو ذاك... ومع هذا فإننا بحكم موقع المركز وقربه أو بعده لكلّ من المعسكرين المتنازعين، بحكم ذلك نجد تطبيق القاعدة التي رددها أحد الأُمراء الأدارسة، والتي تعرف باسم «التَّقِية» أي إظهار المرء خلاف ما يبطن تجنّباً لخطر التهلكة..!

ولعلّ من الاستقصاء أن نعدّ من الأُمراء الأدارسة الذين كانوا يوالون بني أُمية أو يضطرون لذلك إذا صَحّ القول، ذلك الأمير الجليل الذي يتحدث عنه البكري على أنه عالم بني إدريس وحافظهم للسِّير والتواريخ...

ويتعلق الأمر بأحمد بن القاسم كَنون بن محمد بن القاسم المعروف بأحمد الفاضل والمشهور بعقله وحلمه، وكان، كما يؤكد البكري وابن أبي زرع، شديدَ الميل إلى خلفاء بني أُمية وكثير التشيّع فيهم، وهو الذي استشار محمد بن عبد الله بن أبي عيسى قاضي الجماعة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة 332 = 943 ـ 944 في دخول الأندلس والغزو ومع أمير المؤمنين عبد الرحمن، فلما أعلم عبد الرحمن بذلك، أمر بمخاطبته واستحثاثه في القدوم وأن يُعلم أنه لا ينزل محلة من الأندلس ما بين نزوله بالجزيرة الخضراء، إلى نزوله بمحلة بلاط حميد من أقصى الثغر، وذلك ثلاثون محلة، إلا أمر أمير المؤمنين ببنيان قصر في كلّ

محلٍّ ينزله، ينفق فيه ألف مثقال ليكون أثر إقباله بالأندلس باقياً مع الأيام !!(1)

هكذا كان الموقف سنة 332 = 944، فماذا جدّ في العلاقات مع بني إدريس ؟ لقد أمر الناصر - في أعقاب ما وصله من أخبار عن صمود الأدارسة - قائده قاسم بن محمد باجتياز البوغاز لمقاتلة بني محمد بن إدريس بعد أن قدم الكُتُب إلى الأمير محمد بن الخير عظيم زناتة وغيره من زعماء المغرب يأمرهم بالمساعدة حيث رأينا القائد المذكور يعبر البحر في منتصف ربيع الأول عام 333 = 945 وهي الحركة التي أفشلها كبير بني محمد بن إدريس، وهو أبو العيش بن عمر بن إدريس عندما أسرع إلى تأكيد الطاعة بل وبادر بإرسال ولده محمد بن أبي العيش سفيراً عنه إلى بلاط قرطبة !(2)

لقد تغيَّر الموقف حيناً ورأينا السلطان يحتفل لدخول الأمير السفير احتفالاً عظيماً وركب الوافد مع مستقبلِه من قبل الناصر القائد أحمد بن يعلى في أهبة راقت العيون وانشرحت لها الصدور، ووصل الأمير إلى قصر الزّهراء وقعد له الناصر أفخم قعود، واستقبله وأبلغ في تكريمه ثم خرج عنه في مثل الهيئة التي دخل عليها وقد أقام بقرطبة بقية السنة قبل أن يرجع إلى المغرب على أن يعود بعد خمس سنوات إلى العاصمة الأندلسية في مهمةٍ مماثلة...

وقد دخلت بدخول مُحمد بن أبي العيش في هذا النهار على الناصر وفودٌ أُخرى لبني عمه أُمراء الغرب...

---

1) البكري : طبعة باريز ص 129 - 130، فانظر ابن أبي زرع : الأنيس المطرب I ص 128...

D. Eustache : Corpus des Dirhams I drisitcs et Contempotains Rabat, 1970-71 p. 21 N° 100-101

2) ابن عذاري : II 211 - 212.

وفي هذه الأَثناء وفي أواخر شوال بـالـذات 333 = يونيـه 945 ورد على قرطبــة سفيرٌ عن الخير بن محمــد بن خــزر يصحبــه رســول عن حُمَيْد بن يَصَل الزنـاتي يعرفـان النـاصر بمـا تمَّ لهمـا من دخول تـاهرت وإقامة الدعوة فيها لبني أُمية...

كما قدم على الناصر كذلـك في منسلخ شوال من السنـة سفيران عن أبي يزيد مَخْلَد بن كيداد الذي ثار بإفريقية ضد أبي القاسم الشيعي، وقد كانا يحملان رسـالـةً من أبي يزيـد تخبر بـالتغلّب على القيروان ورقّـادة وعملهما...

إن الناصر، كما قلنا سابقاً، لا يهمّه أن يكون وليّه وحليفه وصـديقـه سنّياً أَو خارجياً ولا عربياً ولا بربرياً..!

وقـد شـاهـدْنـا من جـديـد القـائـد حُميـد بن يَصَل في قرطبـة حيث استقبل في مطلع عـام 337 = 948 استقبـالاً حـافلاً وكرم النـاصر مـورده وأجمل موعده وقعد له قعوداً بقصر الزهراء، وقد وصل بعده منصور وأبو العيش ابنـا أبي العـافيـة، ودخل معهمـا حمزة بن إبراهيم صـاحب جزائر بني مزغنا فوصلهم وكساهم وأذن لهم في الانصراف إلى بلادهم...

ولم نلبث ـ بعد هذه الإستقبالات لهؤلاء الزعماء المغاربة ـ أن سمعنا في بحر السنـة التـاليـة 338 = 949 عن أمر النـاصر للقـائـدين أحمــد بن يعلي وحُمَيْد بن يَصَل المكناسي بالخروج إلى بني مُحمـد الأَدارسـة أُمراء الغرب ففصلاَ بمن ضمّ إليهما من الجيش إلى الجزيرة الخضراء حيث كـان خروجهما من قرطبة في النصف من رجب = دجنبر 949...

وفي عقب هــذا وصــل الأَمير محمـــد بن أبي العيش الحسني مرة أُخرى عن أبيه أبي العيش، فأقبل عليه الناصر وأبلغ في تكرمته، ثم بلغ الخبر بـوفـاة الأَمير أبي العيش فـأوصـل النـاصر ابنَـه محمـداً إلى نفســه

وعزاه عن والده وعقد له على عمله ووصله وخلع عليه وعلى الوافدين معه، وصرفهم فقصد محمد مبادراً إلى عمله بالغرب حيث كان ابن عمه قنون قد قصد بلده واحتوى عليه الأمر الذي سبب طائفة من الإصطدامات بين أنصار التعامل مع قرطبة وأنصار الإستقلال !!

☆ ☆ ☆

وقد استقبل الناصر في هذا العام 338 = 949 السفير أحمد بن الأطرابلسي الذي ورد عن ابن آخر من أبناء موسى ابن العافية، هو البوري، وكان يحمل كتاباً يتعلق بفتح الأمير الخير بن محمد بن خزر لتاهرت الأمر الذي تأكد بواسطة سفارة خاصة وردت على قرطبة في السنة الموالية، وكانت تتألّف من ابني البوري بن موسى بن أبي العافية بصحبة الأمير الخير... هناك تُلِي كتاب الإستيلاء على تاهرت بجامع قرطبة والزهراء !



وتشاء الأقدار إلا أن تعاكس باستمرارٍ الرغبة في تصفيةٍ دائمةٍ للعلاقات بين بني أُمية وبني إدريس، وهكذا فبعد فترات سلْم هشٍّ بين الجانبين سمعنا في أعقاب ذلك عن توترٍ جديد حدث عندما أقدم بنو محمد بن القاسم على بناء تطّاون، فكأنما كانوا بصنيعهم ذلك يقطعون المرافق عن سبتة على حدّ تعبير البكري..!

وهكذا فبعد سفارة عليّ بن معاذ الذي أرسله حميد بن يصل إلى بني محمد عام 341 = 952 تَرَاجَعَ الأدارسة عن مخططهم وأنقادوا لأمر النّاصر في هدم ما بنوه بالمدينة المذكورة[3] والتخلّي عن المدينة المذكورة بل أنهم اضطروا لتسليم رهائن لأحمد بن يَعْلَى قائد الأسطول

---

3) البكري : ص 120 ـ 121 ـ ابن عذاري 2 ر 216.

الأُموي الذي عاد إلى الناصر صحبة الأَميرين : حسن بن أحمد الفاضل بن إبراهيم بن محمد ومحمد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم، وصلا إلى قرطبة يوم السبت 9 رجب 341 = 30 نونبر 952 على ما يذكر البكري...

وهذه هي السنة التي وصل فيها إلى قرطبة فَتُوح بن الخير بن محمد بن خزر وافداً على الحضرة على رأس بعثة فيها وجوه أهل تاهرت ووهران يحملون بين يديهم مجموعة من رؤوس قوّاد الشيعة في صدرها رأس ميسور الخصيّ ورأس محمد بن ميمون وغيرهما من أعلام الشيعة وعشرة من بنود أدخلت منكّسة ومعها عدة من طبولهم فرفعت على باب قصر قرطبة !![4]





4) ابن عذاري 2 ر 218.

العلاقات بين العُبيديين والأُمويين تقترب من نهايتها

- □ أمر الخليفة الناصر باستنزال اللعنة على أئمة الشيعة بجميع منابر الأندلس والمغرب..!
- □ الأميرال غالب قائد الأُسطول الأُموي يتجول عبر سواحل المتوسط.
- □ صاحب الشرطة ابن يعلي يطارد صاحب إفريقية.
- □ محاولة الناصر تفادي الصدام وربط علاقات سياسية مع المعز عام 346 = 957 !
- □ مبعوث سري خاص يسلم الخطاب...
- □ جواب العُبيديين بالرفض على المبادرة الأُموية !
- □ تجدد المحاولة وتجاهل المعز...

العلاقات بين العُبَيديين والأُمويين تقترب من نهايتها

لقد أصدر الناصر أمره بعد كل الإنتصارات التي حققها بإطلاق اللّعْن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس وإنفاذ كتبه بذلك عام 344 = 955 إلى العمال بسائر الأقطار حيث استمعنا استنزال اللعنات على الشيعة في منبر جامع القرويين من مدينة فاس ![1]

ومن هنا اشتدّت حملاته على مواقع الشيعة وأنصارهم حيث رأينا الأميرال (غالب) قائد الأُسطول يقوم بجولاته على سواحل المتوسط عام 345 = 956 وهي السنة التي شاهدت مصرع الأمير محمد بن أبي العيش أمير الغرب، وشاهدت كذلك خروج القائد قاسم بن عبد الرحمن في اتِّجاه حميد بن يصل ليحمل إليه المزيد من العدة والمال تقوية له للذبّ عن الدولة المروانية.

وفي مطلع عام 347 = 958 أمر النَّاصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج بالأُسطول لمطاردة أنصار معدّ بن إسماعيل صاحب إفريقية حيث أخذ بن يعلى يُخبر الخليفة بتطورات الأحوال في المنطقة ويحيطه علماً بتحركات (جوهر) قائد معدّ بن إسماعيل، الأمر الذي جعل النَّاصر يصدر أمره سنة 348 = 959 إلى القائديْن : حَريز بن منذر، وبدْر الفتى الكبير صاحب السيف، للوقوف في وجه جوهر وكان الأمير عليّ بن يحيى قصد «شَرْشَل» لهدف مكافحة الشيعة...

لقد تمكّن جوهر من الوصول إلى فاس في حملتِه الكبرى عام 348 = 959 حيث أُسِر من جديد أحمد بن أَبي بكر الذي كان بدوره أمر

---

1) المصدر السابق II ر 220.

باستنزال اللّعنة على الشيعة ! وقد بُعث بوالي فاس مع أمير سجلماسة، كلٌّ في قفص من خشب. على ما فصلناه في العلاقات بين المغرب والعُبَيْديين.

محاولة ربط علاقاتٍ بين الأُمويين والعُبَيديين !

وهناك لقطة من التاريخ تجاهلها مؤرخو الأَندلس ممن نتوفّر على مؤلّفاتهم، وقد استأثر بالتعرض لها مؤرخو الشيعة وبخاصة القاضي النّعمان صاحب كتاب المجالس والمسايرات الذي أسلفنا الحديث عنه...

ويتعلّق الأَمر بمحاولةٍ للخليفة عبد الرحمن الناصر تهدف لإبرام الصلح مع العُبَيْديين ! فبالإضافة إلى إرساء علاقاته مع إمارة الأَغالبة التابعة للعباسيين وإمارة بني مدْرار، وإمارة بني رستم الإباضيتين، بل ومع إمارة برغواطة المارقة، نراه اليوم يسعى لإبرام الصلح مع العُبَيديين الشيعة !

وهكذا ففي أعقاب هدنة 346 = 957 بين المعز الفاطمي والروم بعد انتصاره عليهم، انتهى الخبر «إلى الأُموي الخاسر فخاف الوقيعة به، فدس رسولاً من قبله - يقول القاضي النعمان في كتابه «المجالس والمسايرات» وكتب كتباً على لسان بعض رجاله إلى بعض رجال أمير المؤمنين في الموادعة والصلح وكفّ الحرب، ويذكر ما يتوقع في ذلك من سفك دماء المسلمين واشتغال بعضهم ببعض عن غزو المشركين.! وجاء الرسول بالكتاب وأدّى بلسانه عن الخائن ما لم يؤده الكتاب من طلب الصلح والأُلفة وكف الحرب والفتنة، وذكر ذلك لأَمير المؤمنين ﷺ شفاهاً...

من مظاهر الصراع بين العُبيديين والأُمويين

لم يتردد عبد الرحمن الناصر في إبرام اتفاقيات تحالُفٍ مع ملوك الدول المعادية للعُبيديين وهكذا تحالف مع ملك إيطاليا هوج ذي بروفانس (Hugucs de Provence) الذي كان يريد الانتقام من العُبيديين بسبب تخريبهم لميناء جنوة، كذلك تحالف مع قسطنطين السابع أمبراطور الدولة البيزنطية الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من حوزة العُبيديين... وفي ذلك يقول القاضي النعمان :

وكتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلاً من قبله فأجابه إلى ذلك وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ومراكب بني أُمية في الأندلس.

والواقع أننا لا نستطيع الحكم على مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك... وأغلب الظن أن تلك المعاهدات كانت على غرار المحالفات السابقة التي أُبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني والامبراطور تيوفيل عام 225 = 840 وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأُموية ولكن دون الارتباط معهم في عمل حربي مشترك... وقد تطوّر النزاع بين الفريقين إلى الاشتباك المسلح، وقد أعطانا ابن الأثير وصفاً لبداية هذا الاشتباك بقوله :

وفي سنة 344 = (955) أنشأ صاحب الأندلس مركباً كبيراً لم يعمل مثله، وسيَّر فيه أمتعة إلى بلاد المشرق، فلقي في البحر مركباً فيه رسولٌ من صقلية (وكانت تابعةً للعُبيديين) إلى المعز لدين الله الفاطمي، فقطع عليه أهل المركب الأندلسي وأخذوا ما فيه، وأخذوا الكُتُب التي إلى المعز، وبلغ ذلك المعزّ، فعمر أسطوله واستعمل عليه **الحسن بن علي صاحب صقلية** وسيَّره إلى الأندلس فوصلوا إلى ألمرية فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع مافيه من المراكب وأخذوا ذلك المركب وكان قد عاد من الأسكندرية وفيه امتعةٌ لعبد الرحمن وجوارٍ ومغنيات، وصعد من في الأُسطول إلى البر فقتلوا ونهبوا ورجعوا سالمين إلى المهدية.

وواضحٌ من هذا النص أن السبب الأساسي للاشتباك المسلح بين الدولتين هو تلك **الرسائل** التي كان قد بعث بها والي الفاطميين بصقلية إلى الخليفة المعز بالمهدية، وقد رجح دوزي أن تكون هذه الرسائل تتعلق بمشروع هجومٍ فاطميٍّ على الأندلس، وأن قائد السفينة الأندلسية كان على علم بخطورتها ولهذا لم يتردّد في الاستيلاء عليها.

ولقد كان ردّ الناصر على هذا الاعتداء أنْ أمر عماله **بإطلاق اللعن على ملك** الشيعة بجميع منابر الأندلس كما أمر مملوكه القائد غالب بالإبحار فوراً والإغارة على سواحل الفاطميين في إفريقية...

أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي

1971 ـ 403 ـ 404 ـ 405

وهذا بعض مما ورد في الجواب الذي أمر المعز بإرساله إلى الناصر :

«وأما ما تخوفه من الحرب والفتنة وسفك الدماء، فما ظهر له منّا ما يتخوف منه ذلك، وما نحن بمَن يؤمنه منه، لكنه بغى علينا مَن بغى من أهل عمله، فانتصرنا بالله فنصرنا الله وبلّغنا فوق آمالنا، فقام وقعد، وأبرق وأرعد، ووالَى علينا المشركين الذي رَأى الآن أن اشتغالنا به واشتغاله بنا داعٍ إلى ترك جهادهم وأنّ ذلك نقص ووكف على الإسلام. فهلاً رأى ذلك إذ بعث بأمواله وهداياه ورسوله إليهم واستنصر علينا بهم ! فكيف رأى الله عزَّ وجلّ فعل بهم وبجمعَيْهم ؟[2] ألم يصرف الجمعين مغلوبين خائبين خاسرين ؟ ونحن بُعْدٌ فما رأى منّا إليه حركة. فما هذا القلق وهذه العجلة ؟

وأما ما دعا إليه من السّلم والكفّ والموادعة والصّلح وهو يزعم أنه أمير المؤمنين - كما يتسمَّى دون مَن سلف من آبائه[3] - وإمام الأمّة بدعواه وانتحاله، ونحن نقول : إنا أهل ذلك دونه ودون من سواه، ونرى أنْ فَرَضَ الله علينا محاربةَ من انتحل ذلك دوننا وادّعاه، مع ما بين أسلافنا وأسلافه، ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه من العداوة القديمة الأصلية والبِغضة في الإسلام والجاهلية، وما اعتقدوه لنا في ذلك في الإسلام، وطالبونا به من قديم الأيام من لعن رسول الله ﷺ وآله آباءهم وقتل من قتله على الشرك والكفر بالله منهم، وطلبهم بثأرهم ودمائهم، وطلبنا نحن إيَّاهم بمن قتلوه منّا كذلك في سلطانهم وأيام الله عزّ وجلّ : «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك

---

2) في الأصل : بجميعهم. والجمعان أسطولا الأندلسيين والروم كتاب المجالس. ص 168.

3) من آبائه : أي أمراء الأسرة الأموية بالأندلس من سلالة عبد الرحمان الداخل. ومعلوم أن عبد الرحمان الناصر هو أول من تلقب بالخلافة بالأندلس.

كتب في قلوبهم الإيمان». ما أنا بالمداهن في دين الله ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله ولا بالمخادع في أمْرٍ من أُمور الله !

إرجع بجوابي هذا إليه فما له عندي سواه، ومالي من الأَمر شيء، إن الأَمر كله لله «عليه توكلت وإليه أنيب». فإن حركني الله إليه وقَذَفَ في قلبي حربه وغزوه فلا أشكّ أن الله عز وجل أراد قطع دابره، واستئصال شأفتِه وتطهير الأَرض من رجسه، وحسم أيامه ومدته، وإلاّ يقذف ذلك في قلبي ويصرف إلى من سواه وجهي، فلأَمرٍ هو بالغه فيه وإملاء هو محتجّ به عليه ومدّة سبقت في علمه له. قال الله عز وجلّ : ﴿ولا يحسِبنّ الذين كفروا أنَّ ما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾. فليتنظر أَحَدَ الأَمْرَيْن وليتوقَّعْ وجهاً من الوجهين : إمَّا هلاكٌ يعجلّ اصطلامه وإما إملاءٌ[4] من الله يوفر آثامه. ونحن ننتظر من الله عزّ وجلّ إحدى الحسنيين ونرجو منه لنا خير الأَمْرَيْن : إما أن يُملى له على ما هو عليه من معاصيه ومساوئه ومخازيه، ففي ذلك سرور من رأي عدوّه عليه. فقد كان يقال : حسبك درك أَمل من عدوك أن تراه عاملاً بمعاصي الله، وذلك أَن المعاصي تعجِّل الدّمار أو تُولج عما قليلٍ عذاب النار.

وصَرَفَ الرَّسول، وأَمَر الذي ورد عليه الكتاب أن يجيب عن كتابه إليه جواباً غليظاً ويتواعده فيه، ففعل. وانصرف الرسول بالجواب والكتاب.

فوقع البائس في المكروه واستولى عليه الخوف، فردَّ الرسولَ بكلام لطيف، وكتب الجواب إلى الذي كتب إليه أولاً على لسان بعض رجاله بما ألان فيه القول، وسدد واستعطف وتواعد بعد أن جمع - فيما

4) كتاب المجالس ص 169.

يقال ـ وزراءه وكتَّابه لتـأليفـه، واحتجَّ بزعمـه فيـه وأنفـذه مع الرسول. وأتبْعه برسولٍ آخر بكتاب إلى ذلك المكتوب إليه يخبره أن ذلك الكتـاب مفتعل وأنه لا علم عند صاحبهم به ولا هو عن رأيه ليهدّئوا الأَمر !

فخاطب الرسول أمير المؤمنين عليـه السلام بـالخطـاب السهل الـذي أرسل به، ودفع الكتاب إلى الذي أرسل إليه. وجاء الرسول الثَّاني بالكتاب الآخر فـدْفـع إلى أَمير المـؤمنين عليـه السـلام وقُرئ علينـا بين يـديـه، وفيه من التَّغاير والفساد وسوء التوجيه ما سنذكره... وجعل المعز عليـه السلام يحتج لنـا على كل فصل منـه ويبين لنـا عُـواره وفسـاده، فصرف الرسولَ بلا جواب منه سوى أنْ قال له : قد قيل إن الصدق ينبئ عنك لا الوعيد !

وأمر الـذي ورد عليــه الكتــاب أن لا يجيب عنــه بحرف، وانصرف الرسول خائباً. وأمر بتجهيز الجيش إلى أرض المغرب لتتبّع كل مَن مال إلى بني أُمية بالقتل واجتياحهم عن جديد الأَرض. فـإذا طهَّرهـا الله منهم فيمــا والاه من البرّ جهـزهم إليهم إن شـــاء الله في البحر لقطـع دابرهم واصطلامهم عن آخرهم بحول الله وقوَّته !

وكـان (في) ذلـك من تـأييـد الله ونصره مـا هـو المرجـو من تمـامـه وبلوغ الأَمل فيـه بفضلـه وإنعـامـه، إذ فتـح في ذلـك لـوليّـه وسبّبـه لـه وحرَّكه إليه كعادته الجميلة لديه، عليه السلام».

☆ ☆ ☆

بين الحكم الأُموي والعزيز الفاطمي

ورد عن ابن خلكان في وفيات الأعيان لدى ترجمة نزار العُبيدي الملقب العزيز بالله، نقلاً عن أبي منصور الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر» ما يلي :

وسمعت الشيخ أبا الطيب يحكي أن المرواني صاحب الأندلس كتب إليه نزار صاحب مصر كتاباً يسبه فيه ويهجوه، فكتب إليه :

«أما بعد، فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام» ! فاشتدّ على نزارٍ وأفحمه عن الجواب.

وذكر أبو الحسن الروحي في كتابه «تحفة الظرفاء في تاريخ الخلفاء» أن هذه الواقعة كانت بين الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله وهو المرواني صاحب الأندلس وبين العزيز المذكور، وأن المستنصر كتب إلى العزيز يسبه ويهجوه فكتب إليه العزيز هذه الكلمات...

وقد ورد في «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى (ج 4 ر 149) أن الحكم المستنصر بالله كتب في أول الرسالة قصيدة مطلعها هذا البيت :

ألسنا بني مروان كيف تقلبت ... بنا الحال أو دارت علينا الدوائر

إلى أن يقول :

إذا وُلد المولود منا تهلّلت ... له الأرض واهتزت إليه المنابر !

التفسخ الأخلاقي في الأندلس !

لم يترك العبيديون وسيلة لتعقب وتسفيه خصومهم الأُمويين على الضفة الأُخرى من البحر المتوسط، ينعتونهم بأسوأ النعوت من فسق ومروق إلحاد... وأن الذين ينزعون إلى الناصر في الأندلس من أهل إفريقية والمغرب إنما هم - **يقول القاضي النعمان : الذين يستهوون ما أُبيح لهم هناك من شرب الخمور والمجاهرة بالمعاصي...**

المجالس والمسايرات ص 179...

العلاقات الإدريسية الأُموية بعد وفاة الناصر

- المستنصر بالله الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر والسياسة الخارجية إزاء المغرب.
- استقباله للموالين له من الأَدارسة.
- استقباله كذلك لسفارةٍ عن بني محمد بن إدريس...
- الحَسَن بن كَنون (من بني إدريس) «ينقض العهد» ويدعو لنفسه على منابر ولايته.
- عبور الوزير القائد ابن طملس لإسكات الحسن بصفةٍ نهاية !
- عبور قائد الشرطة العليا وقائد الأُسطول ابن رماحس...
- طنجة تستسلم بعد مقاومة ضارية من الحَسَن بن كَنون للجيوش البرية والبحرية للحكم ابن الناصر...
- فتح أصيلا وإحراق المنبر الذي كان يتردد عليه إسم الشيعة !
- إفلات الحسن إلى جبل الريح ثم مدينة دلول... ومجاهرته بالتحالف مع معدّ بن إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله المهدي.
- إجهاز الحسن على الوزير القائد ابن طملس واستنجاد الأُمويين بالوزير والقائد الأَعلى غالب بن عبد الرحمن لمقاتله الحسن !
- محاولة من الحسن لعقد السلام ورفض الحَكَم لكل وساطة وكل شفاعة ولو قائد الأُسطول ابن رماحس !!
- الأَغداق بالأَموال لصلات المنحرفين عن الحسن بن كَنون !

العلاقات الإدريسية الأُموية بعد وفاة الناصر

لقد تبع الحَكَم بن عبد الرحمن الذي خلف والده عام 350 = 961 نفس السياسة التي كان عليها سلفه من الإحتفاظ بالصّداقات القديمة والحذر ممن كان يحذره الناصر بالأَمس..!

وهكذا وجدناه يستقبل في منتصف شوال من عام 356 = 967 سفيرين وصلا إلى قرطبة عن الأُمراء الأَدارسة قعد لهما - على العادة - في قصر الزهراء وتسلم منهما الكتاب الذي يؤكد فيه الأُمراء أنهم على محبة صادقة ومودة مستحكمة مع التزامهم للطاعة واعتقادهم للولاية فقرب الحكم الرسولين وألطف جوابهما على ما يفيده ابن عذاري...

الخط يمثل رسماً نشر بمجلة الأندلس العدد 12 بتاريخ 1947 ص 293، وهو مقتبس من المخطوطة الفريدة التي تحمل رقم 970 - 350، والتي كانت من المكتبة المشهورة للخليفة الحكم الثاني، وتوجد الآن بخزانة جامعة القرويين بفاس وهي إحدى المخطوطات القديمة الأندلسية النادرة التي وصلتنا.

وكتب حسين بن يوسف عبد الإمام الحكم
المستنصر بالله أمير المؤمنين
أطال الله بقاءه وأدام خلافته
في شعبان من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة

وفي محرم سنة 360 = نونبر 970 قعد الخليفة المستنصر على السرير بقصر قرطبة على جري العادة من الاحتفال والزينة فاستقبل : عيسى بن محمد، ومحمد بن العالي، وحسن ابن علي رُسَل بني محمد بن إدريس.

لقد أوصلوا خطاب مرسليهم وذكروا ماهم عليه من الطاعة وطلبوا من الخليفة أن يساعدهم على بعثة رُمَاةٍ تقويةً لهم لما يتوقعونه من حركة قائد معدّ الشيعي نحوهم... وتقرَّبوا بإهداء خيْل وجِمال.. فقبلت منهم على ما يذكر ابن عذاري أيضاً...

ونلتقي في رمضان 360 = يوليه 971 مع أصداء العلاقات المغربية الأندلسية في القِسْم من المقتبس الذي نشره د. الحجّي... وترجمه د. كَوميز[1]

لقد وصل الخبر في هذا الشهر وبالضبط يوم السبت 18 رمضان = 15 يوليه على المستنصر بالله، بقتل زيري بن مناد الصنهاجي قائد أبي تميم معدّ بن إسماعيل بن أبي القاسم بن عبد الله المهدي صاحب إفريقية وقائده على المغرب، قتله جعفر ويحيى ابنا عليّ المعروف بابن الأندلسي من الرؤساء المغاربة القائمين على زيري يدْعون للحَكَم المستنصر بالله حيث وصل عليّ البغدادي كاتب جعفر بخطابه إلى الخليفة...

وبينما كانت بشرى مصارع رجال أبي تميم معد ابن إسماعيل تتوالى على قرطبة وجدنا الخليفة المستنصر بالله يدعو في رمضان

---

1) ابن حيان : المقتبس في أخبار بلد الأندلس تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت 1965.

Anales Palatinos del Califa de Califa de Cordoba Al-Hakam II por ISA IBN Ahmad Al-RAZI, Traduccion...Emlio Garcia Gomez.
Sociedad de Estudios y Publicaciones, Madrid, 1967.

360 = يوليه 971 وزيره محمد بن القاسم ابن طُملس ليأمره بالتأهب للخروج إلى مدينة سبتة قائداً على ما يضمه إليه من طوائف الأجناد... تمهيداً لمقاتلة الأمير الحسن بن كَنون الذي بدا «نقضه للعهد وللولاية، وانحرافه إلى دعوة قرينه مَعَدّ بن إسماعيل... ولاستدعائه أحزاب الضلالة مستعيناً بهم فيما اعتزم عليه من إيقاع الدعاء له على منابر عمله» على ما يقوله ابن حيان...

وفي أثناء استقبال الخليفة لقائده الوزير ابن طُملس... زوده ببعض التوجيهات والنصائح التي تهدف إلى «إيقاظ الرأي والعزم واستعمال الجهد والجد في مغاورة»، الفاسق حسن وإخماد ناره».

وكان من التوجيهات الذكية التي قدمها الخليفة : «أنه متى أظهر الله القائدَ على طائفةٍ من أنصار الحسن... أو غلب على أرض من طاعته... أن يأخذ بالعفو ويوثر بالصفح ويحسن التجاوز.. وأن يتحرى العدل في السيرة، وحسن النية في حب السلامة وإصلاح البلاد واستصلاح للرعية... فإن خير الولاة - يقول الخليفة - من يُصلح منهم ما أفسدت من أنفسها الرعية...

وقد أمره بالإضافة إلى هذا «أن يستعين بمن دَخَل في طاعته وَوَفَّى ببيعته وعهده على من أدبر عنه فإن إقبال المدبر بعد إدباره فتٌّ في عضد أهل المعصية وحجة عَلَى أهل المخالفة..!

وأخيراً أمره بإقامة كتاب الله وسنة رسول الله في الأرض التي يتغلب عليها وأن يمحوّ فيها آثار الشيعة المارقة ويعلي سنة الأئمة الراشدين...

وبعد أن أغدق الخليفة على قائده الوزير بالهدايا والعطايا الثمينة الرفيعة غادر القائد ابن طُملس يوم 16 رمضان وكان ركوبه البحر من

الجزيرة يوم السبت 19 شوال وهو نفس اليوم الذي وصل إلى سبتة صاحب الشرطة العليا وقائد الأُسطول عبد الرحمن بن رماحس حيث تكاملت الجيوش البرية والبحرية...

وقد صار الوزير عقب شوال إلى مدينة تطّاون التي وجدها خاليةً بمقتضى ما كان صدر من أوامر عبد الرحمن الناصر... ومن تطّاون تقدّم إلى طنجة...

وفي يوم السبت[2] (؟) رابع ذي القعدة 360 = 29 غشت 971 وصل كتاب صاحب الشرطة العليا وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس يبشر بفتح طنجة بالقوة بعد أن كان دعا أَهْلَهَا للعودة إلى سنَّة الجماعة...

«لقد أساءوا الردّ على صاحب الشرطة العليا وسارعوا إلى حربه وكان بداخل المدينة الأَمير الحسن بن كَنون الذي كان يُلهب حماس السكان».

ويصف الخطاب انهزام الأَمير وكيف أنه اعتزل رجالَه ولاذ بالفرار لايلوي على أحد، بعد أن أيقن بتفوق قوة خصومه الذين تهالكوا عليه من البر والبحر..!

وهنا لم يسع السكان إلا أن استسلموا طالبين الأَمَان وصوْن الحريم.. وأَبَاح الجند نهب ما في المدينة للغاوي حسن بن كَنون من مال ورحل وزاد... ولم يبرح القائد ابن رماحس مرتدياً لدرعه، سيفه بيمناه ودرقتِه في يسراه... وقد كلّل مراكبه البحرية بأنواع السلاح الشاكّ والعدد المتظاهرة...

---

2) يعيّن ابن حيان اسم اليوم، وقد وجدناه لا يتفق مع جداول حساب العَلاّمة الذي ينص على الثلاثاء... وسنرى ابن حيان يلاحظ نفسه تعييد الناس في المغرب بعد يومين من تعييد الأَندلس بالأَضحى ص 362...

أيام هيمنة الحَكَم على المغرب

يتحدث بعض المؤرخين الأجانب (Reinaud) عن ورود الراهب جيربير إلى الأندلس حوالي سنة 340 = 960 للدراسة أواخر أيام الناصر وبداية أيام الحكم المستنصر، كما يتحدث بعض المستشرقين الروس (Krestovitch) عن وصول جيربير هذا، الذي أصبح فيما بعد سيلفيستر الثاني فيما بين 390 = 999 ـ 394 = 1003 ـ وصوله إلى مدينة فاس وأخذه العلم عن أساتذة جامعة القرويين، وقد أحدثت هذه الرواية صدى كبيراً لدى رجال البحث في الشرق والغرب...

د. التازي : تاريخ القرويين 1، ص 1115 ـ 116 ـ 117

* * *

كتب ملك أنجلترا والغال والنرويج إلى الخليفة بالأندلس يقول له بعد التعظيم والتوقير :

«سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معالمّ العلم في بلادكم العامرة فأردنا لبلادنا اقتباس هذه الفضائل لنشر أضواء العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة على رأس بعثة من بنات الأشراف الأنجليز...

عبد الحليم الجندي : القرآن والمنهج العلمي المعاصر ـ دار المعارف 1404 = 1984 ص 177 ـ 178 ـ جون دوينبرث : كتاب العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى، وأورد المؤرخ التركي عبد الرحمن شرف في كتابه «التاريخ العام» أن هذا الخطاب ألحقت به هدية شمعدانان من الذهب الخالص طول كل منهما ذراعان مع 22 قطعة ذهبية من أواني المائدة...

كتاب الأزهر في عيده الألفي ص 189.

لقد أنفذ كتابه بالفتح من مكانه يوم الخميس[2] (؟) فاتح ذي القعدة مع فَحلون بن هذيل ومسعود ابن محمد، فوصلا إلى الزّهراء يوم السبت[2] (؟) الرابع في الشهر حيث استقبلهما أمير المؤمنين واستخبرهما فشفياه خبراً ووصل كلاً منهما بمائة دينار وخلع على الفُرَانقَيْن خرُوزاً طرازية[3]

وبعد خطاب قائد الأُسطول ورد خطاب الوزير ابن طُملس يوم الأَربعاء (؟) تاسع ذي القعدة وهو يتحدث عن «حرب شديدة جرت يوم الأَحد (؟) ذي القعدة من ضحى النهار إلى اصفرار الشمس أَجْلت عن هزيمة الأَمير وقُتل من شيعته ما ينيف على مائتي رجل، ولكن «الفاسق» تمكن مع جماعةٍ من رجاله إلى الإعتصام بجبل يدعى «جبل الريح» قبل أن يطارده الجيش الأُموي ويضطروه لمغادرة الجبل... حيث تقدّم الجيش فاحتل مدينة (دلول) وهنا لحق الوزير ابن طُملس بالجيش الذي قصد في اليوم الموالي مدينة أصيلا...

دخل الوزير القائد إلى جامع هذه المدينة وكان قد بلغه خبر منبرٍ جديد ممّا صنعه الشيعة بها منقوشاً عليه إسم الدعيّ معدّ بن إسماعيلَ !

وهنا أمر الوزير باقتلاع المنبر وإحراقه بالنار، ولكن بعد أن خلع من أعلاه اللوح الذي نقش عليه إسم معدّ بن إسماعيل، وكان فيها من الغلو في ذكره أمرٌ كبير... واحتفظ بهذه اللوحة وأرسلها مع خطابٍ إلى الخليفة ![4]

---

3) يطلق ابن حيان على الرسولين الحاملين للبريد اسم الفرانقين، وهو استعمال وارد في ديوان امرئ القيس... والجمع فرانقية، وقد غلب في المغرب منذ العهد الموحدي استعمال كلمة الرقّاص (ج رقّاصة) على موزعي البريد... راجع دوزي - المقتبس ص 90 - ابن عذاري II ر 445.

4) المقتبس نشر الحجي ص 90 - 91.

وقد انصرف الوزير بجمع العسكر إلى مدينة دلول حيث كان يحلّ حسن بن قنون الذي يُنْعَتُ دائماً بالفاسق، وهناك قام الجند بنهب ما تركه الحسن بها وهدموا أسوارها وأضرمْوا بيوتها ناراً...

وفي يوم الثلاثاء، خامس ذي الحجة بعث أمير المؤمنين إلى الوزير ابن طُملس بالأَحمال من الزاد والنفقات على الحروب القائمة إلى عددٍ من الكتب التي حملها رجال البريد... وقد توجه إلى المغرب في إطار هذه التطورات الأَمينان محمد بن أحمد بن مفرج وأبو عبيد القاسم بن خلف الجبيري للقيام بمطالعة الأَحوال واستئلاف الناس وقَضَيا من ذلك وطراً كما يقول ابن حيان قبل أن يعودا إلى قرطبة في غرة ذي الحجة...

مما ينسب لعبد الله بن جعفر الطالبي (تـ 80) :

إذا كنتَ في حاجة مرسِلاً ... فأرسلْ حكيماً ولا توصه
وإن بابُ أمر عليك التوَى ... فشاور لبيباً ولا تعصه
ولا تذكرِ الدَّهر في مجلس ... حديثاً إذا أنت لم تُحصه
ونصَّ الحديثَ إلى أهله ... فإن الأَمانةَ في نصه

وقد شهدت سنة 362 = 973 اصطدامات أُخرى بين الأُمويين والأَدارسة مما أدى إلى استدعاء الوزير القائد الأَعلى غالب بن عبد الرحمن من قبل الخليفة الحَكَم مُهيباً به لحرب الأَمير الحسن بن قنون المنازع له في عمله بأرض العدوة عندما تفاقم أمره وأثخن في قتل الجند وانتحل ولاية الدّعى الشيعي، كما يقول ابن حيان !

لقد تمكن الحسن بن قنون - يوم الأَحد 23 ربيع الأَول 362 = أول يناير 972 - من الإجهاز على محمد بن قاسم بن طُملس القائد الكبير

الذي بعث به الحَكم المستنصر لمطاردة الأدارسة ! الأَمر الذي زاد في استفزاز الحَكم الذي لم يعد يحتمل أية مناورة أو مفاتحة أو وساطة بينه وبين الحسن وهو الأَمر الذي يفسره هذا الخطاب الوارد في أثناء عام 362 = 972 جواباً على كتاب صاحب الشرطة ابن رماحس والقائدين معه بطنجة : سعد وقيصر، وعبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل القائد بأصيلا، وقد كانوا أخبروا الخليفة بأن الحسن يدعوهم إلى الدنوّ منه لافتتاح القول في إيقاع السلم والتنصّل من الذنب، والإنابة إلى الطاعة بعد الاستيثاق بأخذ الرهائن...

(... وأما سائر الناس من جميع القبائل المنْتشبين معه والواقعين تحت رهبته وسيف إخافته ونكال رهقه، فآمنون بأمان الله التام، فليكن منكم إلى خاصّهم وعامّهم دسيسٌ إعلام وتقديم تعريف باعتقاد هذا المذهب ومبايعة الرب تعالى عليه، وإشاعته في جميع الناكثين من جميع القبائل الصاغين إلى الملحد والناشبين في حبالته، ليكونوا على علم برأي أمير المؤمنين من استصلاح أحوالهم وتقبل إنابة منيبهم وإجارتهم من الظالم المستحِلٍّ لمحارمهم المستهلك لنعمهم المنتهك لحرمهم، وأن أمير المؤمنين غير مقلع عنه ولا صارف بأس عزمه دونه، واستعانته على ذلك كلّه بالله تعالى حتى يأخذ له بناصيته، فهو من ورائه محيط، تعلى جده.

وفي فصل من هذا الكتاب :

«إن أفضل من احتمل عليه به استشعار الحزم وإدراع التحفظ واستنصاح الإتّهام وإذكاء العيون وبث الجواسيس، والإستكثار منهم ومن حَمَلة الأَخبار حتى لا تخفى لحسن أهلكه الله حركة ولا يتواري له مذهب».(5)

---

5) المقتبس نشر الحجي ص 96 ـ 97.

سئل بعض العلماء : «ما الذي أذهب ملك بني مروان ؟» فقال تحاسد الأكفاء وانقطاع الأخبار قالوا : وذلك أن يزيد بن عمر ابن هبيرة كان يحب أن يضع من نصر بن سيار فكان لايمده بالرجال ولا يرفع إلىالسلطان ما يرد عليه من أخبار خرسان... فكان العباسيون يؤسسون دولتهم ولا تصل أخبارهم إلى سلطان بني أمية حتىاستفحل أمرهم وضعف أمر بني أمية...

عن المسند لابن مرزوق

طبعة الجزائر 1981 ص 176 ـ 177

ولم يكتف الخليفة بذلك الخطاب، ولكنه بعث إلى قائده في أصيلا ابن أرمطيل بهذا الكتاب أيضاً :

(... أما بعد، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابك تذكر فيه ما أتاك به حمود بن محمد وحنون بن سروح ويحيى السراقة من أتباع الملحد أهلكه الله عند خروجك لملازمة الطلائع على عادتك، ومن استئذانهم إياك في القرب منك والمشافهة لك، وأنك أجبتهم إلى ذلك وفهمت عنهم ما أبلغوك من رغبته في الإنابة وقد ضرب الله بينه وبينها بسور من الخذلان قطع به دونها في حينها وأوان قبولها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو في طغيانه مستمر وفي دينه مستبصر ولكم في كلّ أيامه محارب : هذا هو الضلال والمحال عين المحال وسبب الخبال، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره وغير من أصر إصراره وتمادى تماديه إلى أن يحكم الله عليه ويفتح فيه وهو خير الفاتحين لا شريك له، فلا يتعرض أحدكم لمقاولة أحد ممن يأتي عنه، فانظروا في أمركم وجدوا في تثقيف ما له قدمتم نظرا يدل على اجتماع نفوسكم وتآلف بصائركم وتضافر أيديكم، (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم والله المستعان لا رب سواه).

وجواباً عن كتاب آخر حول شفاعةٍ لصالح الحسن من عبد الرحمن بن رُماحس قائد الأُسطول الأَندلسي للخليفة، كتب الخليفة يقول :

(... وانه احتاج إلى إحداث تنصل مختلق فتح له أبواباً، وسبب فيه أسباباً ونهج له سبلاً، ولو كان ما عامله به أمير المؤمنين محجوباً عن الموالاة والمشاركة والمناصحة لاحتاج إلى كشفه، لكنه ظاهر مكشوف ودين معروف، فإنه لما استنصره على بني عمه المشاقين له أمر بمجاوبته معرفاً لما هو عليه من حسن الرأي فيه والإيثار له والرغبة في قوام أمره، وان الذي رآه أن يدعو بني عمه إلى الصلح الذي رضيه الله عز وجل فإنه يقول : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾، فكان جوابه عن هذا الفصل الجامع لصالح الدين والدنيا الذي يلزمه شكره أن وضع يده في بُنيان طنجة، وقد كان سلفه أقدر على ذلك فامسكوا عنه تمهيداً للعواقب واستدفاعاً للنوائب واستدامة للصلاح، ثم أطلق لسانه بما لو سمع من غيره لكان الحقيق بإنكاره للمحل الذي أحل الله أمير المؤمنين به ومحافظة على ما سبق إليه من الفضل وأسلفه من إكرامه، فقطع القربة وصار إلى هذه الحال الموبقة وصار بنوعمه إلى الانقياد والتسليم والتحكيم لما رآه، والشكر على ما قضاه، وضادهم هو فيما انتحاه، فاحفظ أمير المؤمنين ما كان منه، وتمادى هو في جماعته بلسانه ويده، فأقام الخطبة لمن أقامها مجاهراً بالمكروه ومظاهراً بالقطيعة وموقدا لجمر العقوق، حتى أخرجه عن سجيته وذهب به عن فطرته :

والنارُ قد تلتظي مِن ناضِرِ السَّلَم !

وفي فصل منه :

وأما ما دعا إليه الآن من الإنابة المراجعة والتحكيم في النفس والولد والمال والبلد فكلمة حسنة لا يدع أمير المؤمنين قبولها إذا

صدَّقها فعلٌ وحققها برهان، احتمالاً على قول النبي ﷺ إذْ أتى مكة فقال (لا تدعوني قريش إلى خطةٍ يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)، وأَخَذ بالعفو الذي وصف الله به نفسه وأحبه من أوليائه، لكن ذلك لا يكون إلا بفعلة معروفة مكشوفة، كما كان فعله ظاهراً بقتله الجند صبراً وقذفهم في النار الجامحة، فإن كان معتقداً ما قاله أو منطوياً على صحته مؤثراً له راغباً في استِجْزال حظه من حسن رأي أمير المؤمنين ورضاه وتوطين بلده لولده، وإن مذهبه تمحيص ما فرط وتكفير ما سبق والإصحار بموالاته وانقياده، أخَذَ البيعة على أهل عمله، وخرج مظهرا لنفسه إلى باب سدته، فإنه إذا أتى ذلك خرج مما دخل فيه وفاز بالقِدح المعلى والة الكبرى عنده، وصدر عنه لابساً ثوب كرامته وغذي نعمته التي عرفها ولبسها[6].

وقد فصل الوزير القائد يوم الثلاثاء تاسع رجب 362 = 15 أبريل 973 وهو اليوم الذي وَرَد فيه على أمير المؤمنين كتاب فتح من قبل القواد بمدينة أصيلا القائمين في وجه الحسن، وهم : رشيق بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن يوسف بن أرمَطيل، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن الشيخ يذكرون أنهم التقوا مع الحسن فدارت بفنائهم حروبٌ شديدة دارت فيها الدائرة عليه حيث قَتَل الجند كثيراً من حماته وأسروا منهم يحيى ابن قشاش رئيس لوائه وخَتَن حسن، وأَنَا قُول بن سبع، إلى عدد كبير من أبطالهم...[7]

وجواباً على هذه الرسالة التي سر بها الخليفة طلب إلى قواد أصيلا أن يتجنبوا الحركة إلى الحسن والتعرض لحربه إلى أن يلتحق بهم الوزير القائد الأعلى غالبٌ.

☆ ☆ ☆

6) المقتبس : نشر الحجي ص 99 ـ 100.

7) ابن حيان : ص 102 ـ 103.

وفي هذه الأثناء عرف بلاط قرطبة زيارة سفيرين اثنين عن بعض الجهات المغربية أولهما عن مدينة (الأقلام) التي يحكمها الأمير حنُّون ابن إدريس، وثانيهما عن عدوة القَرويين من مدينة فاس التي كانت آنذاك تحت امرة الأمير عبد الكريم الصنهاجي، وكلاهما كان يطلب الدخول في طاعة أمير المؤمنين والقيام بدعوته، الأمر الذي اهتبل به أمير المؤمنين وأجاب عنه أحسن جواب !

☆ ☆ ☆

وبعد أن استعجل المستنصر بالله في غرّة شعبان 362 = 7 مايه 973 أمير الأُسطول ابن رُمَاحس وقواده : سعد وقيصر وابن مروان في أمر بناء طنجة أَنَّبَهُم على الإخلاد والتواني فكأنَّهم بمفازةٍ من إنكار أمير المؤمنين !

وفي هذه الأثناء خرج صاحب الشرطة العليا قاسم ابن طُملس إلى الجزيرة مدداً للوزير القائد الأعلى غالب... وخرج بخروجه أحمد بن محمد بن حدير بالعون والمدد للجند في طنجة وأصيلا...

وأنفذ الخليفة في نفس الوقت عدداً من الأُمناء إلى أصيلا لمراقبة الحالة بالعدوة المغربية، وهم القاضي بن محمد بن أبي عامر وكيل الأمير أبي الوليد هشام، والخازن أحمد بن محمد الكلبي وخرج بخروجهم القائد محمد بن فرتون.

وفي يوم 2 شعبان من السنة خُوطب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بالبعثة إليه بعشرة آلاف دينار لصلات المنحرفين على الحسن بن كَنون يوزعها عليهم حسب مقاديرهم... إلى العدد العديد من فاخر الكسوة ورفيع الدّيباج والخز...(8)

---

8) ابن حيان 108.

وهذا هو نفس اليوم الذي وردت فيه رسالة من هذا القائد على بلاط أمير المؤمنين يذكر فيها أنه ورد عليه كتاب من الأمير عبد الكريم ابن يحيى ومحمد بن يحيى الصنهاجي صاحبي مدينة فاس، ثم كتاب إسماعيل بن البوري ويحيى بن البوري وغيرهم من وجوه أهل العدوة يذكرون ما هم عليه من الجنوح واعتقاد الطاعة، وأنه أجابهم عن كتابهم قابلاً منهم، مزكّياً لمبادرتهم...

وقد شجع الخليفة وزيره بإحْماد رأيه وحسن موقعه من سلطانه... ومن الطريف أن نجد الكتاب الخلافي يحتوي على فقرةٍ تتعلق بإرسال أحد الشعراء من الأندلس ليستعين به الوزير الذي كان التمس فعلاً التحاق الشاعر به، ويتعلّق الأمر بمحمد بن حسين التميمي...

لقد جاء في الكتاب ما يلي :

«وان أمير المؤمنين عهِد بتوجيهه محمد بن حسين التميمي الطبني[9] إليك على ما رغبتَه فيه، فقد وقع اختيارك منه على خيار وثقة في جميع أحواله مع نفاذ دربته وصدق ممارسته لما يرمي إليه... وقد اعترف أحمد بن يعلى بذلك وشكرنا له تصحيحه ومناصحته، ولن يألوك عونا وتزْييناً إن شاء الله»، لقد كان وجود شاعر إلى جانب الجيش ضرورياً ليشيد بالإنتصارات ويرفع من المعْنويات...

وقد شهد آخر شعبان وصولَ أميرٍ من الأُمراء الأَدارسة إلى قرطبة كان هو القاسم بن يحيى بن إبراهيم بن محمد بن إدريس المسمى حنون وهو ابن أخي حسن بن قنون المتمرد على الخليفة...

---

9) حول أشعار الطّبابنة انظر الذّخيرة 1 ر 1 ر ص 23-535.

لقد فارق القاسم عمّهُ وجنح إلى طاعة الخليفة الأمر الذي سر به أمير المؤمنين حيث رأيناه يكرم الوفادة وينزل الأمير في دار ابن أُمية بمدينة قرطبة.

وفي هذا الوقت قام القاسم ابن إبراهيم بن عيسى ابن حنون وابن عمه أبو العيش ابن ميمون بن القاسم - وهما من المستأمنين إلى الخليفة - بإعذار أبنائهما بمُنية المنتلي شرقيّ قرطبة حيث كانوا يقيمون... وأعلما بذلك الخليفة الحكم فاحتمل عنهما كلّ الإنفاق في غد يومهم، وعهد بإقامة صنيعٍ فخم عندهم بالمنتلي يستدعي له وجوه الناس وولى أمر ذلك الوزير صاحب مدينة قرطبة جعفر ابن عثمان، فانتهى الإحتفال إلى الغاية من تحسينه، واستُدعى لمشاهدته طبقات الأصناف من قريش ومن توافى في العاصمة يومئذ من رؤساء البربر وفرسانهم وجمهرة من وجوه أهل قرطبة وبياض أهل السوق... فطعموا وغلّفوا بأثر البخور بالغالية الخالصة وانقلبوا مكرمين... واعترف القاسم وأبو العيش للخليفة بفضل ما أجدّ من التخصيص والتكرمة.





الاستعداد الكبير لمطاردة الحسن بن كَنون

- تعيينات واسعة في ولاة العدوة وعلية الموظفين بها.
- تسلُّم سجلات التعيين في قصر الزهراء.
- «السجل» يأخذ عهداً على القادة أن يقسموا يمين الإخلاص بين يدي القائد الأَعلى غالب...
- السجل يتضمن المنهاج الذي تسير عليه الجماعة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة : (المذهب المالكي).
- السجل يُجيز دفع الزكاة لمجاهدة المُلحِدين !
- التوصية بالمؤلَّفة قلوبهم والأَمر بتلقط الأَخبار وإنهاء الأَنباء في وقتها...

الاستعداد الكبير لمطاردة الحسن بن كَنون !

وقد شهد رمضان 362 = يونيه 973 اتخاذ القرار الحاسم بتصفية الأمير الحسن بن كَنون حيث شاهدنا حركة تعيينـاتٍ واسعة في ولاة العدوة المغربية شملت خمسة عشر من كبار القادة، وطائفةً أُخرى من المتصرفين والعمال... وقد استُقدم كلٌ أولئك الرجال ليتسلموا بأنفسهم «السجلات» التي نُسميها اليوم بالظَّهائر : المراسم الملكية، ويطلب إليهم في هذه «السجلات» أن يؤدوا يمين الإخلاص أمام الوزير القائد الأعلى (غالب) الذي انتدبه الخليفة لمواجهة الحسن. وينبغي أن نتصور رحاب قصر الزهراء وهو يستقبل هذه الوفود الفخمة، بما يتبعُها من خَدَم وحشم...

ولقد عهد أمير المؤمنين يوم الثلاثاء سادس رمضان إلى الوزراء بالقعود في بيتهم للرؤساء المغاربة القادمين من العدوة لتوزيع الصلات والكُسَى التي أمر الخليفة بتسليمها لأُولئك الرؤساء.

ولما حضروا دعى بإمامهم أبي العيش ابن أيوب بن بلال رئيس تامة الذي دفعت إليه خرائطُ عدة من المال... وخلعت على ابنه خلعة فاخرة ثم دعى على من صحبه من الرؤساء أولاً بأول حيث أسلمت إليهم الصلات والعطايا...

وبهذه المناسبة سلم للرئيس الكتامي أبي العيش بن أيوب (السجل) الذي أصبح أبو العيش بمقتضاه أميراً على كتامة، وكان عدد فرسانهم ثلاثة آلاف وخمسمائة ونيّف ورجّالتهم ستة آلاف وأربعمائة...

وقد كان مما ورد في هذا «السجل» الذي كان من إنشاء الوزير صاحب المواريث جعفر بن عثمان :

كتاب من عبد الله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين لأبي العيش بن أيوب أنه ولاّهُ النظر في قبيلة إطانة مهران من كتامة، مؤثراً لَهُ ومظهراً لحسن رأيه فيه وثقته به فيما فوضه إليه للّذي أحبه من استصلاحه واستصلاح أحواله وأحوالهم وصلة أسبابهم وتمهيد أُمورهم وأمره بتقوى الله العظيم والتزام طاعته وطاعة خليفته التي افترضها عليه، مستشعراً لها محافظاً عليها معتقداً للقيام بوظائفها وشروطها والوقوف عند حدوده، والانتهاء إلى عهوده والتصرُّف معها كيف تصرفت به، وافقت محبوبه أو خالفته... وأن يعطي صفقة أَيْمانه بين يدي الوزير القائد الأعلى غالب مولى أمير المؤمنين على الوفاء بما التزمه من الطاعة والنصيحة، وأن يأخذ أَيْمان وجوه القبائل المصروفة إليه وعلى مسالمة من سالمه، ومحاربة من حاربه، دنوا منه أو بعدوا... وبعد هذا يعطي للقائد دستوراً يهتدي به فيما يتعلق بأوامر الشرع المنبثقة عن كتاب الله وسنة رسول الله وكأنه يعرّض بما ينقل عن الشيعة :

«إقامة الصلاة والأذان لها على حسب ما كان في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، والإفطار عند رؤية الهلال كما أمر به رسول الله ﷺ».

ويخصص «السجل» فضلاً عريضاً للزكاة وحدودها... وتعيين المستحقين لها من الأصناف الثمانية وكأنّ القصد قطع الطريق على الذين كانوا يتقوّون بالزّكاة من خصوم الخليفة..!

«ولا زكاة في تين ولا جوز ولا في الفواكه كلها رطبها ويابسها وتخرج زكاة النخيل والأعناب،[1] وتخرج زكاة الزيتون من زيته إذا عصر ولا زكاة على أهل الذمة رجالهم ونسائهم، ولا في شيء من أموالهم ولا مواشيهم، إنما عليهم أداء الجزية... فإن لم يجد من الأصناف الثمانية عادت إلى أولياء الحق الذين يجاهدون الكفار الملحدين على ما يراه قواد أمير المؤمنين المتصرفون بالمغرب... حتى تكون الأمة سواء في عدل أمير المؤمنين وفضله...»

وكان من أهم النقاط التي نص عليها السجل... قضية الاهتمام بتتبع الأخبار وتصيد الأنباء المفيدة في الوقت المناسب وبعثها إلى دار الخلافة...

«وأن يلتزم إنهاء الأخبار على وجهها واستطلاع الرأي فيما أظلّه منها مما لم يقع في عهده هذا فيأتي ما أتاه منها على بيان وهداية إن شاء الله، ويستشعر الحزم والعزم والمناصحة والاجتهاد في جهاد المارقين من سلطانه والفاسقين عن طاعته».

ويختم السجل هكذا «فمن قرأ عهد أمير المؤمنين هذا من أهل قبيلة أطانة أو قرئ عليه فليسمع لأبي العيش بن أيوب وليطع فإنه حجة له ولسامعيه إذا عملوا بما فيه وحجة له عليهم إذا خالفوه...».

ونظراً لأهمية هذا «السجل» فإننا نورد نصّه الكامل نقلاً أيضاً عن ابن حيان سيّما وأنّه سيكون قدوة للحاكمين من أمثال الخلفاء الموحّدين :

---

1) جرت مناظرة بين الإمام مالك والقاضي أبي يوسف بمحضر الخليفة هارون الرشيد وابنيه الأميرين : الأمين والمأمون، في المدينة المنورة، وكان مما أثير فيها اعتراض الإمام على فرض الزكاة في الخضراوات وأخذ القاضي أبي يوسف بقوله بمحضر الخليفة... راجعْ كتاب الخراج، المقدمة لإحسان عباس... بنك الكويت الصناعي 1985.

دور مذهب مالك ورسالة أبي زيد

كان في أبرز ما اعتمد عليه الحكام في الأندلس والمغرب لمقاومة المدّ العُبيدي الشيعي حمل الناس على اتباع المذهب المالكي في كلّ أطراف البلاد.

ومن ثمت قرأنا في المقتبس لابن حيان حديثه عن الرسائل التي راحت من الأندلس في العشر الأواخر من شوال 363 هـ والتي تؤكّد أداء الطاعة والدخول في الجماعة واتباع السنة والعمل بمذهب مالك بن أنس أمام أهل المدينة... كما قرأنا فيه عن أحداث السنة الموالية 364 هـ أن الخليفة الحَكَم طلب إلى الشيخ يحيى بن عبد الله الليثي، ارفع مسندي الحديث في وقته بقرطبة لإجلاسه عند الأمير أبى الوليد هشام ولده المرشح لولاية عهده، لأن رواية يحيى المذكور للموطأ عن عمّ أبيه أبى مروان بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس...

ومن جهة أُخرى فإن كل واحد في بلاد المغرب يقدر النّصر الذي حققه الزناتيون والمغراويون على خصومهم الصنهاجيين ولاة العُبيديين وذلك بظهور رسالة الشيخ أبي زيد القيرواني (تـ 386) في عقر ديار العُبيديين ! لقد انتشرت الرسالة انتشار البرق في كل بيت، وقد ساعد وضوحها على استظهارها من لدن أبناء المغرب ولم يكن غريباً علينا أن نرى أن أحد الزناتيين كان أول من شرح هذه الرسالة شرحاً مسهباً، كما نرى أحد المغراويين يقوم بدوره بترويجها وإشاعتها بين المجالس العلمية في بلاد المغرب.

د. التازي : المغراوي وفكره التربوي

نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج

(... كتاب من عبد الله الحَكَم المستنصر بالله أمير المؤمنين، لأبي العيش بن أيوب، إنه ولاه النظر في قبيلة اطانة مهران من كتامة، مؤثراً له ومظهراً لحسن رأيه فيه، وثقته به فيما فوضه إليه للذي أحبه من استصلاحه واستصلاح أحواله وأحوالهم وصلة أسبابهم وتمهيد أُمورهم، وأمره بتقوى الله العظيم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، والتزام طاعته وطاعة خليفته التي افترضها عليه، مستشعراً لها مخاصاً فيها محافظاً عليها معتقداً للقيام بوظائفها وشروطها، والوقوف عند حدوده والانتهاء إلى عهوده، والتصرف معها كيف تصرفت به وافقت محبوبه أو خالفتْه، عالماً بما له في ذلك من خير العاجلة والآجلة، وأن يعطي صفقة أيمانه بين يدي الوزير الأعلى غالب مولى أمير المؤمنين على الوفاء بما التزمه من الطاعة والنصيحة، وأن يأخذ على ذلك أيمان وجوه القبائل المصروفة إليه، وعلى مسالمة من سالمه ومحاربة من حاربه، دنوا منه أو بعدوا عنه.

كتب مشرقية بالمغرب قبل أن
تقرأها بغداد !

كان الحَكَم المستنصر محبّاً للعلوم، جمّاعاً للكتب على اختلاف أنواعها حتى لقيل إن عدد الفهاريس التي فيها تسمية كتب خزانته أربع وأربعون فهرسة.

وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار يزودهم بالمال الجم لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهد، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنّفه أبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب العين ثمنا لنسخة من كتابه، فبعث إليه أبو الفرج نسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق، وكذلك جعل مع أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم...

المعجب ص 42 ـ التعليق 1

وأمره أن يحتمل في أحكامه على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة محمد ﷺ المرسل بهما، وأن يأخذ أخذَ نفسه بمراعاتهما والاهتداء بهما، فإنهما مفتاح جنته، والنور الذي لا يضل من استضاء به ولا يُستبهم باب من أبواب الصواب عليه، وأن يقف عندما أمره به من استصلاح أحوالهم والعفاف على أموالهم واستعمال العدل فيهم والأَخذ لهم ومنهم وعليهم، والتسوية فيه بين شريفهم ومشروفهم وقويهم وضعيفهم، وفتح بابه، ورفع حجابه، ومباشرة أُمورهم بنفسه، وحملهم على واضح الديانة ومناهجها المستقيمة، وما عقده منها الكتاب والسنة، ومراعاة الصلاة لأَوقاتها وإقامتها على كمالها لحدودها، والأَذان لها على حسب ما كان في عهد رسول ﷺ والراشدين من بعده وما عليه جماعة المسلمين فيه، والإفطار عند رؤية الهلال كما أمر به رسول الله ﷺ فإنه قال : «صوموا لرؤيته، وافطروا لرؤيته، فإن غم غليكم فاكملوا العدة ثلاثين يوما». وأن يأخذ زكوَاتكم من الحبوب المرفوعة عندهم، والثمرات الموجودة بأرضهم، وصدقات مواشيهم على حدودها وشرائعها غير مقصر عنها ولا متجاوز لها ولا مبدل لشيء منها، وذلك من الذهب والفضة ربع العشر إذا كان المال حاصلاً بيد المزكي وغير خارج عنه في دين أو تجارة، وليس فيما دون عشرين مثقالاً زكاة، ولا فيما دون مائتي درهم زكاة، والزكاة كلها في كل عام مرة، وزكاة الإبل في كلّ خمس شاة، وليس فيما دون هذا زكاة إلى أن تبلغ إلى عشر ففيها شاتان، فإذا انتهت إلى خمس عشرة ففيها ثلاث شياه، وإذا انتهت إلى عشرين ففيها أربع شياه إلى أربع وعشرين، فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها بنت مخاض، فإن لم توجد فابن لبون ذكر إلى خمس وثلاثين فإذا كانت ستاً وثلاثين ففيها ابنة لبون إلى خَمْسٍ وأربعين، فإذا كانت ستا وأربعين ففيها حقة إلى ستين، فإذا كانت إحدى وستين ففيها جذعة إلى خمسة وسبعين، فإذا كانت ستا وسبعين ففيها

ابنتا لبون إلى تسعين، فإذا كانت إحدى وتسعين ففيها حقتان، فإذا كانت مائة وعشرين فما زاد، ففي كلّ أربعين ابن لبون، وفي كل خمسين حقة. وفي كل أربعين من الغنم شاة وليس فيما دون هذا العدد صدقة، إلى مائة وعشرين، فإذا زادت شاة...[2] وإذا ازدادت على هذا العدد ففي كل مائة شاة، وإذا بلغت البقر الثلاثين ففيها تَبِيع ذكر، وليس فيما دون هذا العدد زكاة إلى أن تبلغ أربعين ففيها مسنة، فإذا زادت على ذلك ففي كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين مسنة. ولا يجمع بين مفترق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة،[3] وذلك أن يكون لثلاثة رجال مائة وعشرون لكل واحد منهم أربعون تلزمه عنها شاة واحدة، وأن يكون لرجلين مائتا شاة وشاة يجب عليهما فيها ثلاث شياه، فإذا أظلهم المصدق فرّقاها فلم يكن على كل واحد منها إلاّ شاة، والمأخوذ في الصدقة الثّنْيُ والجذع ولا توخذ الرُبّى وهي التي قد وضعت، ولا الأكولة ولا فحل الغنم، وأن تؤخذ الزكاة من جميع الحبوب المدخرة، وليس فيما دون خمسة أوسق زكاة، والوسق ستون صاعاً، والصاع أربعة أمداد بمد النبي ﷺ فإن زاد العدد على هذا كانت الزكاة فيه العشر إذا سقته السماء والعيون، وإن كان بعلا أو سقي بالنواضح ففيه نصف العشر، ولا زكاة في تِينٍ ولا جوز ولا لوز ولا في الفواكه كلّها رطبها ويابسها، وتخرج زكاة النخيل والأعناب وتخرج زكاة الزيتون إذا عصر، ولا زكاة على أهل الذمة رجالهم ونسائهم ولا في شيء من أموالهم ولا مواشيهم، إنما عليهم أداء الجزية، وان ضربوا من بلد فعليهم العشر بعد أن يبيعوا.

---

2) بياض بالأصل، وتتمة النقص : فشاتان إلى مائتين، فإن زادت واحدة على المائتين ففيهما ثلاث شياه إلى ثلاثمائة. المقتبس (الحجي) ص 113.

3) مذهب مالك يحرم استعمال الحيلة فراراً من أداء الواجب... راجعْ قول ابن عاصم في مرتقاه :

وجلّ أهل العلم يمنع الحيَل   لقلب حكمٍ أو لإسقاط عَمَل

وعليه أن يعدل في قبض الزكاة وتوزيعها على الثمانية الأَصناف الذين سماهم الله، فإن لم يجد في بلاده جميعهم عادت حصص المفقودين منهم إلى أولياء الحق الذين يجاهدون الكفار والملحدين على ما يراه قواد أمير المؤمنين المتصرفون بالمغرب، وإلاَّ يستاثر منها بغير الثمن الذي أوجبه الله العاملين عليها غير متزيّد ولا متجاوز له. ولا يبق في شيء من البلد المصروف إليه مرصداً يأخذ فيه من مجتاز أو عابر سبيل شيئاً، ولا يتعرض لهم في إتاوة ولا قبالة ولا مغرم من المغارم ولا رسم من رسوم المأكل ولا ظلامة ولا كلفة يعود اثقلها على أموالهم في بره وبحره.

وأمره أن يعرف للمؤلَّفة قلوبهم وأهل الطاعة السابقين لهم حقوقهم ويقرب منازلهم، وأن يقمع أهل العداء والظلم وقاطع السبل حتى تأمن طرق المسلمين بأرضه فلا تهتك حرمة ولا تستهلك نعمة ولا يبطل حق ولا يعطل حدّ حتى تكون الأُمة سواء في عدل أَمير المؤمنين وفضله، وينال المقيم والظاعن بركة عهده، وأن يلتزم انهاء الأَخبار على وجهها واستطلاع الرأي فيما أظله منها مما لم يقع في عهده فيأتي ما أتاه منها على بيان وهداية إن شاء الله، ويستشعر الحزم والعزم والمناصحة والاجتهاد في جهاد المارقين من سلطانه والفاسقين عن طاعته.

فمن قرأ عهد أمير المؤمنين هذا من أهل قبيلة أطانة أو قرئ عليه فليسمع لأَبي العيش بن أيوب وليطع فإنه حجة له ولسامعيه إذا عملوا بما فيه، وحجة له عليهم إذا خالفوه، والله المستعان لا ربَ غيره).



القرار الحاسم للتخلص من الحسن بن كَنون

- ☐ الخليفة يفتح قصره للذين يعلنون انفصالهم عن حركة ابن كَنون.
- ☐ الوزير القائد الأعلى غالب يجتاز البوغاز وينزل على مقربة من طنجة.
- ☐ متابعة محلّة ابن كَنون في جرماية والتجاؤه إلى جبل الكرم.
- ☐ تحرك الأُسطول نحو أصيلا.
- ☐ الخيمة الحمراء من الخليفة لوزيره غالب.
- ☐ قرطبة تشهد استعراضاً كبيراً للمقاتلين...
- ☐ الطابع المتميز لاستقبالات عيد الفطر لعام 362 = 973.
- ☐ البريد مستمر بين الأندلس والعدوة...
- ☐ غالب يطارد الحسن الذي احتل جبل مهران..
- ☐ الاصطدام بين الفريقين وتعزيز القائد غالب بقواتٍ أُخرى.
- ☐ الحسن يعيد تنظيم جيشه ويستميل ابن عمه صاحب البصرة.
- ☐ الاصطدام ومصرع الرئيس ابن فرتون !

القرار الحاسم للتخلص من الحسن بن كَنون

وفي هذه الأَثناء وصل إلى قرطبة عدد جمّ من قبائل البربر(1) الجانحين إلى الطاعة المتعرضين للنّوال، كان فيهم من الأَعلام نحو من ستين فارساً... كانوا يقرون بالانحراف عن مُغويهم حسن بن كَنون..!

وقد شملهم الخليفة بالعطاء وصبّ المال في أطنابهم صبّاً، وقعد لاستقبالهم قعوداً فخماً محكم النظام شهده الوزراء وأكابر أهل الخدمة فتوصلوا يقدمهم رئيس غمارة مع أصحابه من سواه من وجوه القادمين، فشكر لهم طاعتهم وأحمد بدارهم ووعدهم بالإحسان والإنعام...

وقد بلغت الأَخبار في هذه الأَثناء بركوب الوزير القائد الأَعلى غالب بن عبد الرحمن البحر في الأُسطول من مدينة الجزيرة يوم 11 رمضان بعد أن استكمل أهبته فيها، وقدّم إجازة الأَجناد والخيل والأَثقال وآلات الحروب.

وقد وافى كتابُ الوزير القائد غالب يوم الإثنين 26 رمضان يذكر أنه احتلّ بمرسىً على مقربة من مدينة طنجة يوم الخميس 22 رمضان وقد أنفذ كتابه عشية ذلك اليوم.

وفي يوم الأَربعاء خامس شوال، ورد الخبر بانتقال الوزير غالب من محلته بطنجة يوم الأَحد ثاني شوال في اتجاه محلة الحسن بن كَنون بجرماية حيث وصل كتاب القائد يوم عاشر شوال يذكر احتلاله بمحلة الأَمير الإدريسي يوم الأَربعاء خامس شوال 362 = 9 يوليه 973 وحكى أن الحسن التجأَ إلى الجبال المتصلة بجبل الكرم فراراً من القائد !

---

1) ابن حيان : المقتبس، نشر الحجى ص 115.

وورد كتاب صاحب الشرطة وقائد الأُسطول ابن رماحس يذكر تحرك الأُسطول نحو ميناء أصيلا نظراً لما في الاقتراب من الوزير القائد الأَعلى واجتماع الأُسطولين، من صواب التدبير والأَخذ بالحزم... الأَمر الذي وافق عليه أمير المؤمنين الذي أجاب الوزير غالب بمثل الجواب... وتكريماً للوزير غالب أرسل الخليفة إليه بقبة حمراء فخمة المرأى بديعة الصنع، كان أمر باتخاذها له خصيصاً ليأخذ مكانه فيها في وسط محلته إسماءً لقدرته، ورغماً لقلب عدوه، كانت القبة غريبة الإبتداع، عجيبة الاختراع، لها منظر فائق ومرأى فائق، جرى في اتخاذها كلام كثير كما رَوَى ابن حيان...[2]

وقد كان الخليفة أنفذ الأَمر قبل هذا باحتمال مظلة فخمة بفرشها وآلتها إلى زعيم كتامة أبي العيش ابن أيوب بن بلال...[3]

وفي منتصف رمضان من هذه السنة 362 = يونيه 973 ورد كتاب محمد بن حسن بن قاسم صاحب عدوة القرويين من مدينة فاس يؤكد راسخ محبته للحكم المستنصر وصادق ولائه له...

وقد أجاب الخليفة بأنه إذا اتبع مذهب أمير المؤمنين ازداد اغتباطاً بما صار إليه، ويطلب إليه أن يتمادى في طريقه ويبادر إلى مواصلة القائد الأَعلى غالب مولاه ليستظهر بذلك على مذكور طاعته...

وفي إطار الاستعداد الضخم لمواجهة الحسن بن كَنون شاهدنا في قرطبة استعراضاً نسمع به لأَول مرة في التاريخ العسكري لبني أُمية، ويتعلق الأَمر بالرجال الشداد الجلاد الذين أرسل بهم قائد طليلطة وانتقاهم في ثغرها من ذوي البأس والرجولة، وكانت عدتهم ألفاً

---

2) المقتبس : 116.

3) ابن حيان : المقتبس : ص 115.

وسبعمائة، وكان دخولهم معبئين في الزي الجميل والشكل التام، قد لبسوا الأقبية البيض وتقلدوا السيوف الإفرنجية وبأيديهم التراس الملوثة والرماح المستوية الأسنة، فتقدموا إلى الزهراء وعليهم العرفاء الموكلون.. وقعد الوزراء لاستعراضهم وأصحاب الحشم معهم، فكمل استعراضهم والإنفاق فيهم وأزعجوا مع النظار عليهم إلى العسكر بالدعوة المغربية !

وفي العشر الأواخر من رمضان عاد الأمناء من المغرب إلى الأندلس : صاحب الشرطة الوسطى والمواريث قاضي إشبيلية محمد ابن أبي عامر... وصاحب الشرطة الصغرى قاضي الثغر الأعلى محمد ابن علي بن أبي الحسن والخازن أحمد بن محمد الكلبي...

وقد استقبلهم الحَكَم في عشية مقدمهم وسألهم عما أرسلهم من أخبار العدوة، واستقصاهم عن جميع ما هنالك فأوسعوه علماً وشفوه خبراً... فسكن إلى صحة أخبارهم وأثنى عليهم... وأمر يومئذ بإنفاذ خطاب إلى الوزير القائد الأعلى غالب ابن عبد الرحمن مع عددٍ كبير من الهدايا والعطايا له ولعدد من الزعماء والأعيان ممن سماهم الكتاب من أمثال : وارث بن سعادة، ومخلد ابن مروة وحسين بن خيران وورقان بن عون وإدريس بن حماد وضيفان ابن خليفة وحنُّون بن عبد الله...

وقد تميزت احتفالات عيد الفطر هذا العام بعددٍ من المظاهرات التي كان يقصد بها إلفات النظر لما تعيش عليه المملكة من ظروف، وخاصة منها تلك التي واجهت الحَكَم بالحَسَن !

لقد قعد أمير المؤمنين على السرير أفخم قعودٍ وأكمله، وأذن للناس فدخل عليه أولاً الإخوة وقعد منهم ذات اليمين الشقيق أبو الأصبغ عبد العزيز وبعده أبو المطرف المغيرة الصغير، بينما قعد عن اليسار أبو القاسم الأصبغ ثم الوزراء الذي قعدوا... بعد التسليم ـ على مراتبهم بإثر

الاخــوة، وقعـد جعفر ابن علي تحتهم، وقعـد على جــانبي السرير من الفتيان الأكابر عن ذات اليمين صاحب البيّازة[4] والصاغـة جؤذر الفتى الكبير وتحتــه مرسن الفتى الكبير إلى آخر الــوصف الــدقيــق لنظــام التشريفات المتبع منذ ذلك العهد في مثل هذه المناسبات...

ولمـا استقرت هـذه المراتب أذن لطبقـات قريش الأقرب فـالأقرب فتقـدمـوا للسـلام، ومن المهم أن نـلاحـظ في صـدر هـؤلاء أولاد علي بن يحيى الإدريسي وكلّ من كان يوجد في قرطبـة من رهـائن بني إدريس فتـوصلـوا زُمراً وأُقعِدُوا في البهـو الـذي قعـد فيــه أمير المـؤمنين... ثم الحكام... ثم قبائل البربر ثم الطنجيين...

كان وصف ابن حيان لاحتفالات هذا اليوم رائعاً بديعاً حرك عبقرية الشعراء الذين توالوا على الرحاب يشيدون بشأن الخلافة بهذه المنـاسبـة، ولكنهم، أي الشعراء، تجنَّبــوا هـــذه المرة النيــل من نسب بني إدريس الذين كان معظمهم حاضراً، على عكس مـا كـان في عيـد الفطر من السنـة الماضية[5].

وفي صدر شوال أرسل الخليفة محمـدَ بن أبي عـامر بـأحمـال المـال والحلى لتوزيعها على أنصار بني أُمية وولاّه أيضا قضاء القضاة بالعـدوة

---

4) يلاحظ أن المهتمين بالقنْص بالصقر : البيازة، يعتبرون من أُطر الدولة...
د. التـازي : القنص بـالصقر بين المشرق والمغرب ـ المطبعـة العصريـة الربـاط 1980. ـ تحقيق الفريد في تقييد الشريد للفجيجي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1983.

5) كان مما أنشد بين يدي الخليفة بتلك المناسبة :

كيف يُرجى بـــأن يـــوفي قريشـــاً	حقهــــــا وهُــــــو من قريش نفيّ ؟!
قـــدمتـــه الطغـــام أن قـــال جـــدى	حسنيّ، وليتــــــــــــــــه حسنيّ !
فيرى في أُميـــــــــة مـــــــــا رآه	حسن الفــــــــاضــــــــل التقي الرضيّ

يعني لو كان حسنيا ـ كما يزعم لآمَن بحق بني أُميـة في الخلافـة كمـا فعل الحسن بن علي رضي الله عنه حين تنازل عنها لمعاوية. ابن حيان : المقتبس، نشر الحجي، ص 85.

المغربية إضافةً إلى ما يتقلّده من خطتيْ الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء إشبيلية...

وفي اليوم 26 من شوال أرسل الخليفة إلى محمد بن أبي عامر - وهو بطنجة - مالاً واسعاً لينفقه بطنجة وأصيلا، وكان مما كتبه في فصل الرسالة النافذة إلى قاضي القضاة: وما يشك أمير المؤمنين في مناصحتك واجتهادك وشكرك للنعمة بك والمشتملة عليك».

وقد كان يوم السبت منتصف شوال موعداً لاستقبال الخليفة لبني خَزَر الذين كانوا ما يزالون مقيمين بقرطبة منذ أن أتوا مع جعفر ابن علي ابن حمدون، حيث بسط لهم وشكر سلفهم وأمرهم بالتهيؤ بدورهم للالتحاق بعسكر القائد الوزير غالب لإسكات حسن بن كَنون...

وقد كان من الذين حضروا هذا المجلس من زعمائهم: عبدوس بن الخير ومقاتل بن عطية ومسعود بن أبي الغمر وعبد الله بن أبي دواس، وسرغين وحمليل...

وفي اليوم العاشر من شوال ورد كتاب الوزير القائد الأعلى غالب يتحدث عن ميل عددٍ من القبائل إليه، ومطاردته للحسن الذي وجده قد ضبط جبل مهران بابنه وابن عمه، وضبط هو جبل الكرم بنفسه مؤملاً أن يمنع الجيش من الانبساط في الوادي الذين بين جبل الكرم وجبل مهران وهو نهر المصارة!

ولم يكن للجيش الأُموي بدٌّ من النزول عليه لمنعه الماء..! واصطدم الفريقان يوم الجمعة 14 شوال وطال أمر الحرب وحال الليل دون اقتفاء أثر الفارين، لكن القائد غالب تمكن من كسرِ قوة الحسن وقطع رؤوس كثيرٍ من رؤساء حماتهم والاستيلاء على كمية من سوامِهم، الأمر الذي طير القائد أخباره إلى الخليفة الذي أجاب عنه أمير

المؤمنين بأنه «جادّ فيٰ حرب» الفاسق حسن ومحاكمته إلى الله ما امتدت به حياة حتى يحكم الله بينهما بعدله».

وإن أمير المؤمنين قد أمر بإرسال قوة أُخرى إلى العدوة من القادة التجيبيين مع مائة من الرماة المماليك وطائفة من فرسان الرياضة. وإن بني خَزَر لاحقون بالقائد غالب كذلك إلى أن يلتحق بهم بنو عمهم إذ صاروا اليوم في بادية فاس على ما ذكره رسول عبد الكريم صاحب عدوة الأندلسيين منها...

وقد طلب الخليفة من القائد غالب أن يكرم القادمين ويتلقاهم أحسن التلقي لشرفهم وقديم طاعتهم...

وقد ورد كتاب من الوزير القائد يوم السبت 15 شوال يتحدث فيه عما دار بينه وبين «الملحد» حسن بن كَنون من قتال عظيم كانت له، أي للوزير، النصرة، وهو الخبر الذي سر له أيضا الخليفة حيث رأيناه يبعث بالعطايا والهدايا علاوة على الذخيرة الحربية...

وفي يوم الإثنين ثاني ذي القعدة 362 = 4 غشت 973 ورد كتاب الوزير القائد الأعلى عن محلته بالمصارة يتحدث فيه عن تنبّه الحسن بن كَنون لضعف أركانه وعمله على إعادة تنظيم جنده ونجاحه الآن في استمالة ابن عمه «الناقض للعهد» محمد بن أحمد بن عيسى صاحب البصرة... وانه أخرج خيْلاً كثيفة نحو الوزير يوم الثلاثاء 20 شوال متعرضاً للحرب... وحَمِيَ الوطيس... واتصل العراك وقتاً كانت الدائرة فيه على «الفاسق» ورجاله... وأُصيب من الجند مَن كتب الله له الشهادة... ونالت في هذه الوقعة محمد بن فرتون جراحة منها يوم السبت تاسع وعشرين شوال على ما يدقق ابن حيان...

لقد كان ابن فرتون من الرؤساء البارزين للجند الأندلسي الذين رافقوا الوزير القائد الأعلى منذ التحاقه بالمغرب لحرب الحسن.

وفي نفس اليوم الإثنين ذاك، صدر جواب من الخليفة لصاحب عدوة الأندلسيين، من فاس، الأمير عبد الكريم بن يحيى عن كتابه الذي أكّد فيه الولاء لأمير المؤمنين معتذراً عما كان بدر به...

(... وقد قبل أمير المؤمنين معا ذيرك، وأصغى إليها، فإن يرد الله عز وجل بك خيراً في عاجلتك وآجلتك يشرحْ صدرك لطاعة أمير المؤمنين وموالاته، وييسرك لما يلبسك رضاه ويقربك منه، فإنه جامع في ذلك أحوالاً تحمد مواردها ومصادرها وإحياء ما أماتته الأيام منها وتجديد ما أخلقه المنحرفون عنها ورفع بأس الجور الذي أظل أهله وغشيهم وشملهم وأطبق عليهم وأوقعهم تحت الذل والصغار والتغرير بحرمهم ونعمهم واستهلاكها وانتهاكها من بين أيديهم ومن خلفهم، وأن تكون زكواتهم التي أوجبها الله عليهم مصروفة إلى الأصناف التي وضعها الله فيهم، فإن فقد صنف منها صرف إلى مصالحهم لا يستكثر بشيء من ذلك في مال الفَيْء، فإن الله عز وجلّ قد وسع فيه عليه وبسط يديه في وجوهه وسُبُله التي يذب الله بها عن بيضة المسلمين ويحمي حوزتهم ويدرأ عنهم عدوهم ويملأ من مغانمهم أيديهم، حتى أخضع الله تبارك وتعالى بفضله لهم رقابهم، وأسكنهم قواعدهم، وكثر في عيونهم عددهم بروابط الخيل التي ارتبطها أمير المؤمنين في دروبهم وعلى أيديهم وجيوشه المصروفة إليهم إذْ ليس اليوم في جميع الأندلس من مشارقها إلى مغاربها باسطٌ يداً رافعٌ رأساً إلا تحت الرغبة والرهبة من الله تعالى عليه وعليهم، فله الحمد كثيراً كما هو أهله، إلى أن قام حسن بن قاسم، الظالم لنفسهِ الحاطب على ظهره فاتح باب الفتنة بخساره، الكاسر أقفلها باختياره، والمستوقد لنارها لحين أطفأها الله وأخمدها، لغير ضرورة حافزة له من تلقاءِ أمير المؤمنين، ولا مكروه ناله، بل قابل الحسنة بالسيئة وكافأ الصلة بالقطيعة...)[6]

☆ ☆ ☆

6) المقتبس (الحجي) ص 127.

حصار الأمير الحسن بن كَنون

- ◻ الوزير يحيى التجيبتي في طريقه إلى المغرب على رأس نجدة كبيرة أُخرى !
- ◻ إصدار العفو عن المخالفين في مقابلة تجنيدهم !
- ◻ اجتماع التجيبي في طنجة بالقائد الأعلى غالب.
- ◻ تعزيز الجيش الأندلسي العامل في المغرب بالقائد ابن علي !
- ◻ القائد الأعلى يتخذ من «المصارّة» مقرّاً لقيادته.
- ◻ الخليفة يتخوف من سقوط سبتة بين يدي بني إدريس، فيبعث بالمزيد من المال والعتاد.. ويطلب من قائده الصمود إلى أن ينتصر أو يموت فيعذر !!
- ◻ استيلاء غالب على حصن الكرم بمداخلة قبيلة حليمة الكتامية...
- ◻ الخليفة يشيد بقائده ويطلب إليه تعزيز البريد بطنجة وأصيلا.
- ◻ عيد الأضحى 362 = 972 يَشهد تنافس الشعراء الذين هنأُوا بسقوط حصن الكَرَم !
- ◻ بسيط قرية (احين) يشهد معركة كبرى يوم 23 من ذي الحجة كانت قاصمة لأنصار الأمير...
- ◻ سقوط البصرة وحمل رأس حاكمها بالوكالة إلى قرطبة !
- ◻ بنت الأمير الحسن بن كَنون كانت ضمن الحريم المستولَى عليه وقد أمر الخليفة بإلحاقها بوالدها بالحَجَر !
- ◻ سقوط جبل العيون المتصل بالحَجَر.

حصار الأَمير الحسن بن كَنون

وفي خطّ القرار الصارم الذي اتخذه الخليفة للتخلّص من الحسن بن كَنون[1] وخاصة بعدما بلغه عن مصرع القائد ابن فرتون، وجدناه يقوم يوم الخميس خامس ذي القعدة من نفس العام 362 = 7 غشت 973 بإحضار الوزير يحيى بن هاشم التُّجيبي مع جملة من أصحابه من الوزراء حيث أبلغه قراره بإنفاذه عاجلاً إلى العدوة المغربية قائداً معززاً للوزير القائد الأَعلى غالب بن عبد الرحمن...

وبعد أن توصل الوزير التجيبي بما يتوصل به عادة القواد أمثاله من جزيل العطايا وضروب العون، خصص يوم السبت السابع من الشهر لاستقبال رسميّ مشهود حيث دعا الخليفة إخوة الوزير المنتدَب لهذه المهمة، وهم يوسف ومحمد وهاشم وهذيل، كما استدعى آخرين ممن كانوا يمتون بصلةِ عمومة إلى الوزير يحيى حيث باسطهم بالقول الجميل، ووعدهم بالإحسان الجزيل وأمرهم بالخروج مع زعيمهم الوزير القائد يحيى... فأجابوا وأثنوا وشكروا وأُخرجت إليهم الصلات والخلع الرفيعة.

ولا شكّ أن التفكير في إنفاذ أفراد الأُسرة مع الوزير إنما كان يهدف لتأْنيسه حتى لا يبقى باله مشغولاً مع أفراد عائلته ثم ليكون له محيط يثق فيه ويطمئن إليه. وحتى لايهمل الخليفة أية جهة يمكن أن تفيده في التغلب على عدوه رأيناه يصفح عن عددٍ ممَّن «فارقوا» الخدمة العسكرية في المغرب من أمثال رشيق البراغواطي والقائدين : إسماعيل

1) يظهر أن هذا اللقب (كَنون) آتٍ من الكلمة البربرية كَناون التي تعني باللهجة الزناتية المُزْن والسحاب، فكأنهم كانوا يتفاءلون به لاستدرار الأمطار...

نماذج من القرارات الخلافية بترفيع
كبار القادة...

وفي يوم السبت سلخ ربيع الأول (361) رأي الخليفة المستنصر بالله، إيقاع اسم القيادة العليا على الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن، تشريفاً له وتنويهاً بذكره، لحميد غنائه وجميل مقامه، ووقَّع له بذلك إلى الوزراء على ظهر كتاب كان خاطبه به منتصحاً له في معاني الجند والارتباط الذي إليه، قصد منها نصيحته والاحتياط على المال، فحسَّن موقعه منه، وأخرج كتابه إلى الوزراء فوقَّع على ظهره بخطٍ قيَّده : «هذا ما تضمنه غالبٌ لنا بلسانه، وأبانه عندنا وبين أيدينا له صامتاً ثم خطه بيمينه في كتابه هذا، وقد قبلناه وأمضيناه ورضيناه وأجزناه، فليلزم توقيعنا هذا ويستقر في البيت عندكم، إن شاء الله، ورأينا أن نوقع اسم القيادة العليا على غالب مولانا لغنائه وجميل مقامه، فلا يخاطب من الآن إلا به تشريفاً له، إن شاء الله، والله المستعان».

ابن حيان : المقتبس ص 69 تحقيق الحجي

بن عبد الرحمن بن الشيخ وعبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل الذين عادوا إلى العدوة للإنضمام إلى الجيش من جديد.

وفي يوم الإثنين سابع ذي القعدة غادر الوزير يحيى التجيبي قرطبة نافذاً إلى العدوة وبين يديه التعبئة الكاملة والترتيب المنظوم بصحبة إخوته وبني عمه التجيبيين... وخرج بخروجه الخازن أحمد بن حاجب وبين يديه ستة عشر حملاً من المال المعين وعدة أحمال من الكسَى الفخمة والسيوف المرسلة إلى الوزير غالب من أجل توزيعها على الأكابر...

ولما بلغ الوزير يحيى إلى الجزيرة الخضراء بعث بكتابه إلى الخليفة يخبر بالوصول يوم الأربعاء 11 من ذي القعدة ثم وافى كتابه يوم الأربعاء 25 من ذي القعدة بعبوره البحر بجميع من معه واحتلاله بمدينة طنجة واجتماعه بعسكر القائد الأعلى غالب في موضوع هذا التعزيز... ومن ثمت وجدنا ابن حيان يتحدث عن أن الخليفة ضمّن جوابه إلى الوزير غالب فصلاً في إظهار أَثْرتِه وتشريفه ورفع منزلته...

«وأن العهد عند الوزير القائد يحيى بن محمد مقرر بالخُفُوف إليك والبدار نحوك، متى ورد كتابك في ليلٍ أو نهار وأن يتصرف كيف رأيت تصريفه، فهو مدد لك وعون على محاولتك، فانظر في جميع ما بين يديك ومن يحويه عسكرك نَظَر من أفردَهُ أمير المؤمنين ببعثه، وقلده ما بين يديه».

ودائماً وفي إطار استقطاب كلّ القوى والعناصر للِدّفع بها في المعركة الفاصلة بينه وبين الحسن، استقبل الخليفة في أواخر ذي القعدة القائد يحيى بن علي الأندلسي الذي كان يطلب الأمَان، فأمره بالتأهب للالتحاق بمعسكر القائد الأعلى غالب مع من يصحبه من الرجال القادمين معه، الأمر الذي ارتاح له القائد المذكور وأبدى سروره به حيث وجدنا الخليفة يغدقه بالعطايا والهدايا.

وقد ورد على الخليفة في هذا الوقت كتاب من الوزير القائد الأعلى غالب حرره من مقر قيادته بالمصارّة يذكر فيه حلول بعض بني إدريس أقارب «الملحد» الحسن منحازين إلى الطاعة ومعهم شيخهم أحمد بن عيسى وأخوه إبراهيم في بنيهم وعبيدهم ومَن لفَّ لفهم... كما يذكر وصول بني خَزَر إليه... وهو أي القائد الأعلى يخاف من جُمُوح السِّعر باكتمالهم وكثرة كراعهم عنده !!

وقد أجابه الخليفة بكتاب طويل متناسق الفصول، حيث بدّد مخاوفه فيما يتعلق بتعذر الأقوات، «وقد كفاك الله الاشتغال بالتفكير في مال أو طعام فمواردها موصولةٌ بك، متلاحقة لديك حتى يفتح الله في الظالم القاطع بعدله، ولو أتى ذلك على بيوت الأموال المترعة وأهراء الأندلس المغتصة !!»

ومن المهم أن نجد أمير المؤمنين يتوقع ـ بعدما وصله من أصداء حول شراسة المعارك وصمود الأدارسة ـ استرجاع سبتة من لدن الأدارسة ! ولذلك نراه يقول في خطابه هذا للقائد الأعلى :

«كما أنه لو تقاصرت يدك والتوى عزمك وانتكأت الأحوال بك، ـ ولن يفعل الله ذلك ـ لاستسهل أمير المؤمنين التحرك إلى الجزيرة واتخاذها وطناً ومستقراً، ولأجاز ـ بعد هذا ـ لمجاهدَة الفاسق كل جندي في ديوانه، مع كل متصرف في مملكته...» وأمير المؤمنين مع هذا يقوي معنوية قائده الأعلى وينصحه بأن لا يفكر في العودة إلا بعد تحقيق النصر أو تحمل الأخرى !

فاقبلْ على ما بين يديك إقبال من لا يناجي نفسه بانصراف أو إنحراف إلا بعد الظهور على عدوك أو إضطراره إلى الجنوح والرجوع عن غيه والإنابة إلى سدّة أمير المؤمنين... أو نفيه عن أرضه وإخراجه عن جميع البلد...

وبعد أن يغدق الحكم المستنصر على قائده الأعلى في صفات البطولة والشهامة والثبات التي حلق بها في القمة والتي «تأبى الرضى بغير ما يرضاه أمير المؤمنين منك... فاستقبلْ نظرك استقبال من استشعر المذهب ووطنْ فيه على أن لا ترجع له عنه إلا بما يحب أو تموت فتعذر» !(2)

وقد أدرج لغالب مع هذا الجواب درج بتفسير السلاح والصلات والكُسى التي أنفذها الخليفة الحكم مع الخازن أحمد بن محمد بن محمد بن حاجب إلى الذين سماهم الكتاب من أكابر المستأمنين إليه من أعالي بني إدريس وغيرهم من وجوه البرابرة...

لقد أتى ابن حيان بتفصيلٍ دقيق لصلة أحمد بن عيسى شيخ بني محمد المعروف بحنون، وصلة أخيه إبراهيم بن عيسى... وصلة حسن بن أحمد بن عيسى... وصلة علي بن أحمد بن علي... وصلة إبراهيم بن الحويطي، وصلة أيوب بن أبي الحسن... وصلة حجاج بن خلوف... وصلة بني خزر الذين لم يلبثوا أن بعثوا للخليفة بمائة وثلاثين جملا...

☆ ☆ ☆

وفي يوم الإثنين 11 في القعدة ورد كتاب الوزير القائد الأعلى غالب يبشر بما صنع الله له من استباحة (حصن الكرم) وفرار حسن بن كَنون عنه مع صهره محمد بن حنُّون صاحب البصْرة ومعهما علي بن

2) الإشارة إلى شعر امرئ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرْب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لاتبك ويحك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

خلـوف وغيره من الحـاشيـة... ويتحـدث الكتـاب عن الحيلـة التي استعملها القائد الأعلى عندما توسل بمداخلة قبيلة (حليمة)، وهم من كتامة، لمطاردة الحسن الذي نراه يتراجع إلى معقله حصن الحجر حيث استباح الوزير حصن الكرم واحتوى على ما فيه وأحرق كل أثاره وأطلق سراح مَن وجده فيْ سجن الأمير من رهائن وخصوم من أمثال سليمان بن أبي الجوشن وابن أبي غرقلة وغيرهما...

ولقد أجيب القائد الأعلى على بشراه برسالة تقدير وتجذير في الوقت ذاته : «وليس يخفى عليك أن الشتاء بين يديك والبحر دونك، وربما تعذر ركوبه فاجعلْ الطعام ذخيرتك وحفظه تجارتك، والأموال موفورة... إن هناك في سبتة ألف ألف دينار بالقرب منك... ووطن نفسك على الصبر ولا تمنّها برجوع إلى بيتك حتى يقطع الله دابر الفاسقين..! وبعد أن ينصح الخليفة بإقبال السكان على ازدراع الأرضين المسترجعة من المارقين، إذ مذهبه تعمير البلد وتأمين أهله وتعريفهم ألا إقلاع له عن عرصته حتى تكون كلمة أهله واحدة، وقد ضمن هذا الكتاب تعليمات الخليفة حول تعزيز البريد بمدينتي طنجة وأصيلا بما يراه الوزير القائد كافياً للركض بالأخبار لانتظام الناحية فتعجل ـ يقول الخطاب ـ باتخاذ الدّواب لذلك وتعهد إلى الخارجين بدفع أجْر خدمته لكل شهر وإلى الخازن بإجراء العلوفة على الدواب والنفقة على الفرانقين والخدمة إن شاء الله.

وقد كانت استقبالات عيد الأضحى الثلاثاء 362 = 11 شتنبر 972 لهذا العام في قرطبة فرصةً لتباري الشعراء حيث استمعنا إلى فتح (حصن الكرم) وانتزاعه من «المارق حسن» حيث قال محمد بن شخيص في جملة ما قال :

لقـد حـل بـأس الله بـالكَرَم الـذي | غـدا وهـو في حـزب الضـلال بـلاقـع
ومـا حجر النسر المنيـع بـزعمـه | منيـع، وهـل حصنٌ من الله مـانـع
فلو طـار فـوق الأرض أو غـار تحتهـا | لمـا خـال أن المنتـأى عنـك واسـع !

وفي الرسالة التي بلغت يوم الإثنين 14 من ذي الحجة ورد كتاب صاحب الشرطة العليا والمواريث : قاضي الجماعة بالمغرب محمد بن أبي عامر يذكر تعييد الناس في المغرب يوم الخميس - بعد يومين من تعييد الأندلس ! - وقيام الخطبة في المصليات قبل الصلاة... واستهلالهم بالشكر له على ما وسعهم فيه من فضل أمير المؤمنين وسعادة دولته...

وقد كان يوم الثلاثاء 22 من ذي الحجة موعداً لاستقبال عدد من السفراء فيهم المسلمون ومنهم المسيحيون، وهكذا وجدنا في صدر من استقبلهم أمير المؤمنين رسل أبي العافية ثم رسل أحمد بن عيسى، ثم رسل ميمون القاسم ثم رسل علي بن حنُّون رئيس كتامة ثم رسل جرثم، ثم استقبل بعد هؤلاء محمد ويوسف ابني أبي سفيان ثم محمد بن منجفان الأَصيل وغيرهم، حيث أدوا رسائلهم وعرضوا مسائلهم وأجيبوا بموافقهم قبل أن استقبل رسل ملوك العجم.

وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ذي الحجة ورد الخبر بالهزيمة التي مني بها «الملحد» حسن بن كَنُّون حيث نجد الوزير القائد غالب يركب عشية الأَحد، من محلته بالمصارّة إلى جبل الكرم بمعية الوزير القائد يحيى التجيبي للوقوف على أعمال البناء الجارية فيه... وفي صباح الإثنين 23 من ذي الحجة تمكن الجند من استجرار «الفسقة» أنصار «الفاسق» حسن إلى السهل... حيث شهد بسيط قرية «احين» على بعد ملين من المحلة استمرار القتال واشتداد النزال إلى الظهيرة... تراءات مخايل انهزام الحسن وأعلن فريق من أتباعه الدعوة لأَمير المؤمنين، فكان الصنع - يقول ابن حيان - عظيماً والفتح مبيناً...

واستمر القتل في الصامدين، فحز من رؤوس مشاهيرهم مائة رأس..! وقتل في هذه المعركة محمد بن أبي العيش الكتامي، وكان من الحسن محل أخيه تارة ومحل ابنه تارة أخرى...



وقد حلت سنة 363 لتسجل بدايتها قدوم مبعوث خاص من القائد غالب، كان هو فتاه قند الذي حمل أخبار الاستيلاء على مدينة البصرة التي كان يعتصم بها محمد بن كَنون في ظروف مثيرة، لقد ثار أهلها على محمد بن عبد السلام الذي استخلفه عليها ابن أخته محمد ابن كَنون، والذي كان مكروهاً عند أهل البصرة... وهكذا قطع ثعبان بن أحمد البربري رأس محمد بن عبد السلام وبادر الناس إلى الاتصال بالقائد الأعلى غالب الذي تقدم نحو المدينة تاركاً الوزير يحيى التجيبي في حصن الكرم...

لقد أمسى رأس ابن عبد السلام في قرطبة يطاف به في أهم أرصفة العاصمة وجلس أمير المؤمنين بالروضة وأوصل إلى نفسه الوزراء وأكابر الخدمة واستقبل الفتى قند الذي جلب الرأس، فأدناه واستفهمه عن أخبار العسكر...

وفي الكتاب الذي رفع إلى الخليفة من لدن القائد وجدنا هذا ينتظر تعليمات الحَكَم المستنصر في أمر زوجة ابن جنون التي هي بنت لحسن بن كَنون ! والتي عثر عليها ضمن الحريم المتروك في البصرة... ونجد أن الخليفة يستوصي بها خيراً وعنايةً ويطلب إلحاقها بوالدها بمعقله بالحجر..! الأمر الذي تم في ظروف جد حسنة...

وقد تبع هذا وصول ثعبان البربري إلى قرطبة فأنزل أحسن نزول وكانت الأخبار قد وصلت عن تسمية القائد الأعلى لعبد الرحمن الليث

حاكما على البصرة، عندما انتقل عنها إلى قبيلة رهونة التي لاذت أيضا بالطاعة ورغبت في السلام...

«إنه لم يبق في الغرب ـ يقول القائد غالب ـ منا بذّ سوى حسن، والحين به محيط وصنع الله فيه قريب» !

☆ ☆ ☆

وفي منتصف صفر 363 = منتصف نونبر 973 ورد كتاب الوزير القائد غالب من محلته بالكرم يؤكد فيه منصرفه من البصرة بعد أخذه الرهائن وأنه قد استولى على الجبل المعروف بجبل العيون المتصل بالحجر الذي هو معقل الحسن...

وبعد تحقيق هذه الانتصارات المتوالية أصبحت قرطبة كعبة المبعوثين والسفراء الذينُ وردوا لتأكيد الولاء وأداء مراسيم الطاعة، وهكذا رأينا الخليفة يقعد أتم قعود بقصر الزهراء يوم الإثنين 18 صفر ليستقبل عيون هاته الوفود الحاشدة بمحضر الوزراء والكبراء...

لقد استقبل عبد الرحمن ابن محمد بن أبي العيش، وحسين بن يحيى بن حسن ابن إبراهيم، وحسن ابن حنون ومعهم رجالهم، ثم استقبل مشيخة مدينة البصرة وحَمَلَة العِلم فيها، فأقبل على جميعهم وتوسع في مساءلتهم واستمع لأجوبتهم...

وفي هذا اليوم بالذات وصل إلى قرطبة سفيرا حنُّون بن أبي العيش، وهما (المؤمل) كاتبه و (خلوف بن أبي فلوس) خادمه، ومعهما رسول أخيه إبراهيم بن أبي العيش : وهو عيسى بن موسى قاضيه...

وفي فاتح ربيع الأول قدم إلى قرطبة عيسى بن عبد الله قاضي أحمد إلى إسماعيل الحسني وقدم إثره محمد وإبراهيم إبنا عيسى بن يحيى بن القاسم بن إدريس...

ولما اكتملت الرسل والوفود قعد أمير المؤمنين واستقبل الرسل القادمين من فاس ثم رسل الأمراء من بني حسن : رسل أحمد بن عيسى ورسل حنون ابن أبي العيش ورسل أخيه إبراهيم بن أبي العيش ثم رسل أمراء البربر ورسول ابن مدين، ورسل لقمان ابن خزر ورسول ابن جرثم، وغيرهم من رسل أمراء العدوة...

وفي يوم 28 من ربيع الأول دخل إلى قرطبة كَنون بن عيسى الحسني أخو حنون فأكرم مثواه، وقد قدم بقدومه فرج بن علي بن عمر وإبراهيم بن عبد الله بن محمد مع وجوه رجاله وكذا حجاج ابن مخلوف قاضيه، ووصل إلى قرطبة بوصولهم الخيل التي بعث بها صاحب عدوة القرويين من فاس وعددها 35 فرسا...



الظفر بالأَمير الحسن بن كَنُّون
وإِصدار البلاغات بذلك لسائر الأَقاليم

- ◻ ضرب الحصار على الأَمير في الحَجَر...
- ◻ ابن الحسن منصور يلوذ بالأَمان مع أُخته وأُمها وآخرين !!
- ◻ الحارس يطلق سراح رهائن الأَمير فيتسابقون لتقديم الطاعة..!
- ◻ الأَمير الحسن بن كَنون يبعث بابنه عليّ للقائد الأَعلى غالب يعلن ببيعته للخليفة !!
- ◻ خطبة الجمعة بالحجر ليوم 22 جمادى الثانية 363 = 20 مارس 974 تشيد بذكر أمير المؤمنين !!
- ◻ بعض الشعراء ينالون في حفلات عيد الفطر من نسب بني إدريس في البلاط الأُموي !!
- ◻ تحرير البلاغات والرسائل في صدر ذي القعدة 363 = يوليه 974 إلى سائر العمال تخبر بإزعاج الحسن إلى الحضرة وعودة الوزير غالب بعد أن حصل على بيعة زعماء البلاد وفرض المذهب المالكي كمذهب واحد في جميع البلاد.

الظفر بالأَمير الحسن بن كَنون

وفي يوم الأَربعاء سابع ربيع الثاني ورد كتاب من الوزير القائد غالب يتحدث عن صلاح حال العسكر وتدهور حال الحسن بسبب إحكام الحصار المضروب عليه... ويبشر الكتاب بأن المنصور ولد الحسن لاذ بالأَمان مع أُخته وأُمها مع رجالٍ لأَبيه مستعجلين طلب الراحة..!

وحدث أن الضابط الذي كان مكلّفا من قبل الحسن بحراسة المرتهنين في السجن، أقدم على إطلاق سراح المساجين الذين بادروا بتقديم الطاعة للقائد غالب..!

ولا شكَّ أن كل هذه الأَحداث كان لها أثر على معنوية الحسن الذي أصبح قاب قوسين من مصيره..!

وفي يوم الجمعة آخر جمادى الثانية 363 = 27 مارس 974 شهد الخليفة المستنصر بالله صلاة الجمعة بجامع قرطبة... وقعد بعد انتهاء الصلاة ليستقبل الوزراء ويعلمهم باستسلام حسن بن كَنون... وأنه ورد عليه بذلك كتاب الوزير القائد غالب، وأنه وجه إليه بذلك ابنَه علي بن حسن الذي كان سنده وأن الخطبة قامت لأَمير المؤمنين في الحجر يوم الجمعة 22 من جمادى الثانية (20 مارس) وقد أمر الخليفة بإرسال الخيول والعدة ليتلقَّى بها علياً والمنصور ابنى حسن، وابن عمه إبراهيم بن حسن ومحمد ابنه، وكان الخبر قد ورد بأنهم على الجواز...

وفي صدرْ رجب من عام 363 = 28 مارس 974 أذن الخليفة لمن كان اجتمع بباب السلطان من رسل أُمراء العدوة ووفودهم... وقد دفعت إلى السفراء منهم أجوبتهم عن مرسليهم فانقلبوا إلى العدوة، فكان منهم

رسل عبد الكريم صاحب فاس وهم : أبو صالح، وعزر، وعمر بن أحمد... ورسل حنُّون بن أحمد بن عيسى : كاتبه المؤمل وخادمه خلوف ابن أبي فلوس وقاضيه عيسى، وإبراهيم رسول حسن ابن حنُّون، ومحمد بن أبي سنديب رسول جرثم بن أحمد... وزيري ابن بياضة وقاسم رسولا إدريس بن حماد الغماري ومحرز المواتي رسول مقاتل بن عطية، ورسل إبراهيم بن أبي العيش، وغير هؤلاء من رسل ملوك العدوة... «فانطلقوا نُفُج الحقائب» على حد تعبير ابن حيان.[1]

وفي آخر رجب إلتجأ إلى قرطبة قياطن بن يعلى أمير بني يفرن وكان والده صاحب مدينة أفكان قد غدر به وقتل من لدن جوهر الرومي قائد معد الشيعي، وقد وجد كامل الترحيب والتكريم كما هي العادة في السياسة المغربية لِبَنِي أُمية... وقد تميزت حفلات عيد الفطر لهذه السنة 363 = 25 يونيه 974 بجلوس الخليفة أفخم قعود وأبهاه زينة، تعبيراً عن السرور بالظفر بحسن بن كَنون ومثواه بين يديه واتساق سلطانه ذاك ببلد العدوة، وكان ممن شهد هذا الموسم حسن ويحيى ابنا حنُّون... وتوصل بتوصلهما علي ومنصور وحسن، بنو حسن بن كَنون وسائر بني إدريس...

وتوصل للتسليم بعد أبناء قريش الفقهاء وأهل الشورى والعدول والجند الأندلسيون والطنجيون (يعني المغاربة).

وقد تبارى الشعراء في مدح أمير المؤمنين مما يكوّن ديوانا على حدَة ! وفيهم من أمثال محمد بن شخيص، من لم يفته النّيل من نسب الحسن بن كَنون !! ولو أنه على حال لم يَعد يَحتمل مثل هذه الحمْلة..!

---

1) يعني أن حقائبهم ممتلئة منتفخة بالهدايا والصلات، ومثلها بُجُر الحقائب كما في قوله :

«ويرجعن من دارين بُجْر الحقائب»

المقتبس ص 154.

يقول هذا الشاعر من بائية طويلة :

أُشابةٌ تـدّعي في هـاشم نسبـا ... ومـا يصح لها في معشر نسب !![2]
ومـا ونت عـزمـة الجنـد الـذين إذا ... ما صاح باسمك فيهم (غـالب) غلبوا !
تقلب الحـال بـالمخـذول يخبرنـا ... أن الـزمـان بـأهـل الرفض منقلب !!

وكان مما أنشده عبد العزيز القروي :

وقـد كـاده من آل إدريس بـائس ... سفيـه دعـاه للجهـالـة مـوق
تـوهم أن البحر ينجيـه مـانعـاً ... ودار مـداهـا في المجرة نيـق
أتى خـاضعـاً يرجـو الإمـام وعفـوه ... وسيف منـايـاه عليـه ذليـق
لقـد طلعت في الغرب شمس خـلافـة ... أضـاءلهـا في المشرقين شروق
أطلت على أهـل العراق ومن بهـا ... مـذاهب فيهنَّ الضـلال عريـق !
وكم ببـلاد القيروان سفـاهـة ... تهب بهـا ريـحٌ هنـاك خريـق

وكـان من جملـة مـا أنشـده عبـد القـدوس بن عبـد الـوهـاب يشير لانـدراس مـدن بني إدريس في شمال المغرب وتخريبها وفي صـدرهـا البصرة :

يـا آل إدريس قـد أمست منـازلكم ... مثلَ اسمه بـاختلاف الريح والـديم !
إذا يمر بهـا الغـادي تـذكّره ... مـا صـار يتلـوه من عـاد ومن إرم
كأنمـا السّقب في تلـك الـديـار رغـا ... فعـوجلـوا من عـذاب الله بـالنّقم
إن الإمـام إذا مـا صـال قـام لـه ... صرف الحـوادث من خـوف على قـدم
قـد قـدر الله أن تحـوي كتـائبـه ... ملـك العراق وملـك الشـام والحرم..!

---

2) **يشير الشاعر للفكرة التي نقلها البكري في (القاسم) :**

قـل للـزنيم زنيم طنجـة عش بهـا ... لا يحسـدنـك في بـلادك حـاسـد
منتـك نفسـك أن تكـون خليفـة ... هيهـات هـذا من حـديثـك بـارد
لمـا رأيتـك للئـام مصـافيـاً ... أيقنت حقـاً أن جـدك راشـد !!

ولا شك أن كل هذا ضرب من ضروب الحرب الباردة التي كانت توجه ضد بني إدريس.

وكان مما قاله ابن مجاهد الأَستجي في أُرجوزةٍ لامية :

ضـل الـــذي عـــانـــده ضـلالا   ولُقِيَّ الحتــــوف والأَهـــــوالا
لقـــد تمنّى في الخـــلا محــــالا   وجــال مغــويــه بـــه المجـــالا

وكـان بيت المـال إلى جـانب تلـك الانتصـارات مـا ينفـكُّ يبعث بـالأَمـوال للمقـاتلين والمـوالين... وفي العشر الأَواخر من شـوال 363 = آخر يوليه 794 ورد كتاب الوزير القائد الأَعلى غالب يذكر فيـه انصراف سفيريـه محمـد بن وليـد ومحمـد بن موسى من بني الطويل إلى مـدينـة فاس، وكانا توجها إلى أميرى المدينتين : عبد الكريم بن يحيى صـاحب عـدوة الأَنـدلسيين، ومحمـد ابن حسن صـاحب عـدوة القروييين... حمـلا رسالة القائد الأَعلى إليهما باستجـابـة جميعهم لمـا دعوا إليـه من الطـاعـة والقيام بالبيعة واتباع السنة والعمل بمذهب مالك ابن أنس وإقامة النافلة في رمضـان وتـوقفهم عن العمـل بمـا كـانت ضـلالات الشيعـة زرعتـه عندهم... إنهم تقبلوا جميع ما أمروا به..!

وقد ذكر الوزير القـائـد في رسـالتـه هـذه أن الأَمير عبـد الكريم بن يحيى ومحمد بن حسن وجها إليه برهـائنهمـا مع كتـابي بيْعتهمـا... وان علي بن خلـوف أميرٍ غمـارة وجـه هـو الأَخر بـابنـه رهينـــة مـع كتــاب بيعته..!

وقد ساق ابن حيان نص بيْعـة عبـد الكريم التي لم تكن تختلف عن نصــوص بيعــة مُحمـــد بن حسن صــاحب مــدينـــة القرويين وعلى بن خلوف... إن الأُمراء يتبرأُون من الشيعة وأهلها... وقـد أرخت البيعـة في عقب رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة = الأَربعاء 24 يونيه 974.(3)

---

3) ابن حيان : المقتبس ص 174 ـ 175، د. التازي : جامع القرويين 1، ص 58.

نص بيعة والي فاس للحَكَم

«بسم الله الرحمن الرحيم

... كتاب بيْعة عبد الكريم بن يحيى وجماعة الأَندلسيين بني عمه من أهل حاضرة فاس، كتبوه وثيقة وحجة على أنفسهم وأشهدوا الله وملائكته وأنبياءه ورسله وأُولي العلم من خلقه ومن حضر من جماعة المسلمين أنهم بايعوا الله عز وجل والإمام العدل الحَكَم المستنصر بالله أمير المؤمنين وألزموا أنفسهم طاعته ليوالوا من والاه ويعادوا من عاداه وينصروا من نصره، ولا يلبسوا ولا يدلسوا ولا يوالوا أَحداً سواه، ألزموا ذلك أنفسهم بالأَيمان المؤكدة اللازمة لهم، وفي أعناقهم عهد الله المؤكد اللازم لهم والمشي إلى مكة وعليهم صدقة أموالهم للمساكين، وبالله الذي لا إلاه إلا هو الطالب الغالب المهلك المدرك الرحمان الرحيم إنهم لبرءاء من الشيعة وأهلِها وأن يواقوهم ولا يراسلوهم سرّاً ولا إعلاناً، تقاربوا منهم أو تباعدوا عنهم، وأنهم مستمسكون بالطاعة العاصمة من الزيغ والخلافةِ المكرمة القائمة بالحق التي وطّد الله مبناها وشرفها وعظمها على من سواها، وأشهدوا الله وملائكته ورسله وأهل العلم من خلقه على ما ألزموه من القيام بالطاعة والعمل بمفروضها ومسنونها، وأوجبوا ذلك على أنفسهم كوجوب ما الزمهم من فروض دينهم، إذْ لاتتمُّ ديانتهم إلا بالتصحيح لإمامهم واتباع أمره والوقوف عند نهيه، فعند أدائهم الطاعة يسلم لهم دينهم ودنياهم وآخرتهم وأولادهم، ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيُؤتيه أجراً عظيماً﴾.

ولم تلبث قرطبة أن شاهدت وصول عبد الكريم بن يحيى ورهائن علي ابن خلوف، حيث أنزل الجميع في دار ابن غانم...

وقد ورد مع هذا كتاب الوزير القائد غالب يذكر بأنه قد أعلم عيسى بن أحمد بن محمد بن إدريس المعروف (أي عيسى) بحنُّون شيخ بني

محمـد بن إدريس، وإبراهيم أخـاه، وميمـون ابن القـاسم ويحيى أخـاه وغيرهم من بقية آل إدريس بالتوجه إلى باب السـدة... وأنهم قـد أخـذوا في التأهب فعلا...

وقـد صـدر الأمر في هـذه الأثنـاء إلى الـوزير القـائـد بـالعـدوة من المغرب على أن ينوب عنه في المهام هنا الوزير القـائـد يحيى التجيبي الأمر الذي نفذ، حيث رأينا الوزير غالب يكتب من محلته بسوق كتـامـة مخبراً بأن انـدفـاعـه من البصرة كـان يـوم السبت 22 من ذي القعـدة، ووجـدنـاه بـالجـزيرة الخضراء في عشرين من ذي الحجـة، حيث تلقى هناك تعليمات الخليفة بأن يُرجع للمغرب أحد الرجال الـذين كـانوا معـه وهـو الشـاعر محمـد بن حسين الطبني[4] نظراً لكـون الـوزير التجيني طلب أن يبقى معه بالمغرب لمعرفته بالمنطقة وللاستئناس به كذلك !

وبمنـاسبـة الانتصار على حسن بن كَنون حررت عشرات الرسـائـل في صدر ذي القعدة سنـة 363 = يوليـه 974 إلى العمـال والقواد من شتى الأقطـار لتخبر بإزعـاج الحسن إلى الحضرة وعودة الوزير القـائـد غـالب بعد أن أنجز مهمته وبعد أن أخذ البَيْعـة من زعمـاء الصقع، وكـانت تلـك الرسـائـل من إنشـاء الـوزير الكـاتب جعفر ابن عثمـان صـاحب المـدينـة بقرطبـة، وقـد أورد ابن حيـان نصها الكـامـل على هـذا النحـو وهي من الأهمية بمكان :

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحيط الذي لا يحـاط بـه، والظـاهر الـذي لايظهر عليـه، الـواحـد الـذي لا يكـاثر، والقـادر الـذي لايقـادر، مقـدر الأقـدار، ومصرف الأعصـار، ومكور الليل على النهـار، المتعـالي عن العيـان، والممكن بكـل

4) راجع الذخيرة ج 1 ق 1 حول أشعار الطبابنة...

مكان، الموصوف بما علمنا من صفاته، المعروف بما أرانا من آياته، المعين على طاعته بقدرته، الميسر لموجبات جنته برحمته، الذي أنطق كلّ شيء خلقه برحمته، وألزمهم الدليل على الافتقار إليه، وأوقعهم تحت مهانة الفناء قبل خلقه لهم، ولم يجعل لأحد منهم أجلاً معروفاً ليسكن إليه ولا أمداً مكشوفاً يطمئن إليه بل أبقاه على شك من كرّة لحظ أوردة نفس، وأرسلهم بين أمد ممدود، وأجل محدود، حتى إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله رب العالمين، الذي اصطفى من عباده صفوة اختصهم بكرامته، وأعزهم بفضيلة نبوته، وجعلهم وسائط بينه وبين عباده، فأيدهم بالسلطان والبرهان، وعضدهم بالآيات البينات، والشواهد المعجزات، وبعثهم مبشرين ومنذرين مرغبين في ثوابه، محذرين من عقابه. يتلو بعضهم بعضا من كل جيل وعلى كل زمان، ثم ختمهم بأكرمهم عنده مكاناً، وأرفعهم لديه منزلة، محمد ﷺ، أرسله إلى الناس كافة بدين الإسلام الذي نسخ الأديان ونهج به مناهج الإيمان، وأيده بالقرآن، والحجة القاطعة والبرهان، فدعاهم إليه تبارك وتعالى ودلهم عليه وشرع لهم شرائع طاعته، وأوضح لهم الأعمال الموجبة لجنّته، وأفصح عن الحلال والحرام والمفروض والمسنون وأراهم الصراط المستقيم، وهداهم السبيل المستبين، وأنبأهم أن الإسلام دين أصفيائه، وملّة أنبيائه وأوليائه، الذي كرم الله دعوته، وأفلح حجته، وأعلا منزلته، وجعل كلمة حزبه العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى وأظهر فضله لقوله تبارك وتعالى ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ وقوله : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ وقوله : ﴿ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ فجاهد، ﷺ، حقّ جهاده من رغب عنه أو أبي منه أو فارق جادّته، أو أخرج رأسه من ربقته، حتى أبان الله عز وجل فضله، وكثر عدد أهله، ودخل الناس أفواجاً فيه، ولزمت به الحجة،

وارتفعت عنه الشبهة، وقامت به المعذرة، وتمَّت نعمة الله على من اعتقده، وأرشده ووفقه وسدده، وجعل له نوراً بين يديه ومن خلفه، ثم رفعه الله تبارك وتعالى إليه عزيزاً عليه، مكرما عنده، أثيراً عليه، وجعله الشهيد على جميع العالمين، وأفرده بالشفاعة يوم الدين، إكراماً له ومن آمن به ﷺ، وعلى جميع المرسلين وآله الطيبين وسلام عليه وعليهم في العالمين، والحمد لله الذي اصطفى من عترته، وانتخب من دوحته، خلائف في أُمته حملة لسنته، حفظة على شريعته، دعاة لخلقه، قَوَمَةً بعقوده، وجعلهم خلفاء على عباده، ذادةً عن حزبه، علما بهم، وتكريما لهم، وتزكية لبصائرهم وتنبيهاً على فضل سرائرهم، فقاموا بحقه عليهم، ولم يرضوا من أحد بغَيْر ما رضيه الله لهم، ولا أغمضوا على داخلة أدخلها مارق، ولا شبهة قام بها فاسق، ويتعاقبون ذلك بينهم ويورثه سالفهم خالفهم. حتى أورث الله تعالى مقامهم واورث شرف أنسابهم، وحائز كرم أحسابهم، والمهتدي بهديهم، والمتحمل على سننهم، والسائر سيرتهم، والرافع لمعالم مناقبهم أمير المؤمنين، بجميل نظره فيما قلده الله من رعاية خلقه، فاعمل لذلك جهده وصبره وكده، حتى عاد الدين غضاً على حاله في عهدهم، واجتمع الناس على أوضحه منهاجا، وأعدله طريقا، وأهداه سبيلاً، وصاروا على الحق أعْواناً، وفي تعاطيه بينهم إخوانا واطمأنت بهم قواعد الإيمان، واعتدلت بعدله عليهم صروف الزمان، فالصلاح شامل، والخير شائع، والسبل مبسوطة ودروب المسلمين محصنة، وأطرافهم مثقفة وعدو الإسلام مقموع، وأيدي المسلمين عليهم غالبة، فضلا من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم.



ولما كف أمير المؤمنين غرب المشركين ودفع بأسهم وأوقعهم تحت الخشية والذلة والخشوع له والاذعان إليه، وصارت أوامره ونواهيه نافذة

عندهم وماضية لديهم، عاد بشرف نفسه، وعلو همته، وتمكّن رغبته في رعايته المسلمين حيث كانوا، وحمايتهم وتحصين شرائعهم، وجهاد المتطاولين إلى تبديلها ونقض ما أحكمه الكتاب والسنة منها، أرباب البدع، وغواة الشيع، وأئمة الإلحاد المارقين عن الدين، إخوان الشياطين فكان أول جانب من نواحيهم ردّ إليه نظرَه ووكل به همته، جانب المغرب لقربه منه، وانكشاف ما كان يركبه أهله به من سوْمهم تبديل دينهم، والدخول بينهم وبين ربهم، وإخراجهم عن سنة نبيهم ﷺ، وما أمضاه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم من أحكامهم على سبيلِ إجماع أسلافهم، وما ينالونهم في التوقف عن ذلك من انتهاك حرماتهم واستحلال محارمهم، إذْ لم يسعه الإمساك عن تلافيهم وانتشالهم من أيدي المردة الظلمة لهم، وقد بسط الله يده ومكن له في أرضه، وأعز سلطانه وكثر عدده وقامت حجته عن وجهه عليه بما آتاه من فضله، وأحضره إياه من توفيقه وإرشاده واستهلاله لكل جليلة في ابتغاء مصلحة من مصالح المسلمين يكرمه بعاجلها، ويدّخر له خير أجلها، ويثبت قدمه في السعي لها، ويؤتي أعوانه وأصحابه في كل ذلك عزماً نافذاً، ورأياً ثاقباً، ونية لا تدخلها فترة ولا تعتريها سآمة. فأيد الله تعالى جنده، ونَصَرَه وأعلاه وأظفره بمن قد كان جاهره بمعصيته وأعلن مخالفته، وتجانف عن طاعته، وأخذ له بناصيته وأوقعها تحت رغبته ورهبته، حتى استوثقت الطاعة في جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده، وارتفعت الخطباء عليها بما يجب من تعظيم الله عز وجلّ وتحميده وتمجيده، والثناء على رسول الله ﷺ واصلة ذلك الدعاء لأمير المؤمنين ولجماعة المسلمين.

ولما أن عاد الوزير القائد غالب مولى أمير المؤمنين إلى البصرة للذي كان بلغه من تحرك الفاسق بن الفاسق بُلُقين بن زيري إلى جانب تاهرت واستقر بها عاملاً على التقدم إليه، وحاول الحركة إلى الجانب

الذي يليه، كر عدو الله راجعاً، وعاد على عقبه ناكصا،، قد ملأً قلبه ذعراً وجوانحه فَرَقاً، فعهد أمير المؤمنين إليه ألا يتقدم عن مكانه إشفاقاً من معرة الجيوش على من يليه من أولياء الطاعة إلى جانب فاس وما يليها، وأن يذهب بالكثير من معايشهم وأقواتهم، إذْ كانت زروعهم غير مستحصدة ولا متمكنة، فأتاه وجوه من رجال فاس، وذلك المغرب كله، ووجه إليه عبد الكريم بن يحيى ومحمد بن حسن صاحبا عدوتي فاس رهائنهما ووجه علي بن خلوف المتيلي بابنه وبرهائنه أيضا، وتوالى عنده رسل بني أبي العافية سائلين موالاتهم من عز سلطانه ورفع عنهم من بأس الفرقة الضالّة المضلة الذي كان أطبق عليهم وأحاط بهم مستظهرين بذلك على خالص معتقدهم وتمكن طاعتهم والتزامهم إياها مخلصين، واجابتهم داعيها مهطعين، وإحراقهم منابر الضالين المعمورة بما لا يرضي الله تعالى جده، ولا رسوله ﷺ، وامتثالهم مذهب الجماعة في صلواتهم وآذانهم وسننهم وأحكامهم، وضربهم السكك باسمه وعلى عياره، فتمت بذلك نعمة الله تعالى على أمير المؤمنين وعليهم به، واستلت طاعتُه أضغانهم وألّفت بين قلوبهم وتضافرت على المخالفين أيديهم والحمد لله رب العالمين.

وأمير المؤمنين يأمرك أن تقرأ كتابه هذا على منابر عملك لتُسِرَّ المسلمين بما تضمنه، ويحمدوا الله عليه إن شاء الله، وهو المستعان.

وكتب في صدر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة)).

☆ ☆ ☆

وقد اقترنت حفلات عيد الأَضحى لهذا العام بتوالي أخبار النصر والتوفيق من كل الجهات، وهكذا جلس أمير المؤمنين أفخم جلوس

لتقبل التهاني... وكانت «الترتيبات» رائعة ودقيقة وقد كان في صدر من أعلموا بالحضور في هذا اليوم حسن ويحيى ابنا القاسم حيث أديا حق التسليم على الخليفة وعلى الأمير أبي الوليد هشام فكان حضورهما مذعنين، بعدما كان من عتوهما محاربين، دليلاً على اكتمال العزة...

وعلى العادة تقدم الشعراء لإنشاد روائع النظم فكان مما أنشده أحمد بن عبد الملك :

وما اعتز قومٌ لم يكونوا أعزة	على الخلق حتى قبّلوها تذللا
وأمو ولي العهد في المحفل الذي	تمنى العدا أن يخدموا فيه محفلا



وثيقة تحبيس خيل أو سلاح أو حلي
أو دواوين علم أو مصاحف أو ثياب العواري

حبس فلان بن فلان الفلاني فرسه الورد الأغرّ القارح في سنه، ووقف للجهاد في سبيل الله عز وجل، ووسمه في فخذيه بسمة الحبس... أو بسمة كذا أو سيفه الهندي أو الأفرنجي أو السريجي ليقاتل به أهل الاستحقاق في سبيل الله عز وجل، أو ديوانا كذا عدد كتبه كذا أو الحلى الجامع الذي له وصفته كذا أو ثوب خز صفته كذا وكذا أو ثوباً آخر صفته كذا أو ظهارة كتان صفتها كذا أو خشخاشية أو زهرية أو مقنع خز صفته كذا أو رداء شرب (صفته كذا) أو شطوياً صفته كذا ليعار ذلك كله **أهل الضعف عند بناء أزواجهن عليهن.**

وتقول في الكُتُب «ليستعيرها ثقات طلبة العلم للنسخ والمقابلة والدراسة»، وفي المصاحف «لتعار لمن يريد القراءة فيها»...

وإن كان التحبيس في عبد قلت «مملوكة الأفرنجي أو الجليقي المسمى بفلان ليخدم الغزاة في سبيل الله... **ولا يحل تحبيسه على وجه الضرر بالعبد...**

عن كتاب الوثائق والسجلات للفقيه الموثق
محمد بن أحمد الأموي المعروف بابن العطار
330 ـ 399 هـ
المعهد الإسباني للثقافة ـ مدريد 1983

ترحيل الحسن بن كَنون إلى قرطبة !

- عودة القائد الأعلى الوزير غالب بمعية الأمير حسن (3 محرم 364 = 23 شتنبر 974)... وأمير مدينة الأقلام الشيخ حنُّون بن أحمد بن عيسى حفيد محمد بن إدريس.
- النساء يلتحقن بالأماكن المخصصة لإقامتهن تحت جناح الظلام..!
- مواكب ضخمة تسير في الركب تحمل الرايات المصورة : بالأسود والنمور والثعابين والعقبان...
- الأدارسة الموجودون بقرطبة من قبل ينضمون إلى الورادين للسلام على الخليفة في ترتيب خاص... يتقدمهم الشيخ حنُّون...
- استعراض للفرق العسكرية : فرقة الأُردن ـ فرقة فلسطين ـ فرقة مصر فرقة دمشق الخ...
- المشاكل التي أثارها الوجود المكثف للمغاربة بالأندلس !
- النفرة بين حسن بن كَنون وبين الخليفة ـ استثقال نفقات الأشراف والأذن لهم بالرحيل إلى المشرق.

ترحيل الحسن بن كَنون إلى قرطبة !

مهما يكن، فلنتركْ ما تمخضت عنه الأَحداث لنشهد مع الجمهور في قرطبة مقدم القائد الأَعلى الوزير غالب وبمعيته حسن بن كَنون وشيعته الذين كانوا إلى الأَمس القريب شجىً في حلق الحكم !!

وهكذا ففي يوم الأَربعاء ثالث المحرم 364 = 23 شتنبر 974 قفل القائد من بلاد العدوة، ومعه بنو إدريس ملوك الغرب المستنزلون من معاقلهم حافين بشيخهم المشتهر بحنون واسمه أحمد ابن عيسى بن أحمد ابن محمد بن ادريس بن عبد الله صاحب مدينة الأَقلام وما والاها من بلد العدوة ومعه أخوه إبراهيم بن عيسى وابن عمه ميمون بن القاسم وأخوه يحيى بن القاسم وبنوهم وأهلوهم... وبعد أن احتمل العيال - تكريماً لهم تحت جناح الظلام - إلى أماكن مناسبة مؤثثة مزوَّدة على أَتَمِّ حال صدرت الأَوامر بالاستعداد لاستقبال - القائد غالب، لقد كان الترتيب رائعاً...

وقد تحرك بتحرك الوزير القائد غالب بنو إدريس وتقدم جميعهم في موكبه... وتقدم الوزير والأَشراف وراءه قد رتبوا في الموكب على أسنانهم ومنازلهم ونزل الأَشراف في مظلات رفعت لهم فأقاموا بمحلتهم هذه يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي يوم السبت نفذ الأَمر إلى الوزير القائد غالب بالحركة فركب الأَشراف مع بنيهم وبني عمهم ورجالهم... أصحاب البنود والرايات الرفيعة الرائقة وما معها من الرايات المصورة، من صور الأُسُود والنمور والثعابين والعقبان وغيرها من التصاوير الهائلة، وتقدم الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن فدخل على باب السدة إلى القصر، وبنو إدريس معه، وقعد أمير المؤمنين أفخم قعود وأسراه، وأعظمه وأبهاه.

وأخذ علية الناس يتوافدون... ويأخذون مكانهم على ترتيب جليل... الأمراء، الوزير، والقضاة والأكابر... وعند استيعاب هذه المراتب واستواء نظمها أمر بنو إدريس بالخروج : أحمد بن عيسى، وإبراهيم أخوه وميمون بن القاسم، ويحيى ابن القاسم، وعيسى بن محمد بن إدريس بن ميالة ويحيى بن عيسى، وحسن بن محمد، والقاسم بن محمد، فقدموا منهم الأسن فالأسن... إلى أن انتهوا إلى المجلس الذي قعد فيه أمير المؤمنين، فقدّم عليهم شيخهم حنون بن أحمد بن عيسى فدنا وسلم وعزز وعظم، فكرمه أمير المؤمنين بالقعود ورفع منزلته في الجلوس،[1] فلما استوى مجلسهم أثنى عليهم أمير المؤمنين وتشكر طاعتهم ووعدهم بإحسان مكافأتهم...

ثم أمر بإيصال بنيهم الأكابر تشريفاً لهم فكان ممن وصل من أولاد أحمد ابن عيسى شيخهم حسن بن أحمد مع ابنه علي، والقاسم بن أحمد، وحسين بن أحمد، وحمود بن أحمد، ووقف على الوصول منهم أصاغرهم وكانوا أحد عشر غلاما : عليّ آخر، وهارون وإسماعيل وعبد الله وإبراهيم والنصر وعيسى وعبد الملك وإدريس وميمون وكَنون، ووصل من أكابر ولد أخيه إبراهيم بن عيسى ثلاثة وهم أبو العيش وعيسى ومحمد، ووقف معهم صغيراهم : قاسم وحسن، ولم يصل من أولاد ميمون بن القاسم أحدٌ لصغرهم، وكانوا خمسة غلمة وهم أبو العيش وإبراهيم والقاسم وحنّون ومحمد. واثر خروج بني إدريس أذن أمير المؤمنين لمن حضر من عسكر أهل الأقاليم بالوصول، فقدموا على مراتبهم... جند دمشق - جند حمص - جند الأردن - جند فلسطين - جند قِنَّسْرين - جند مصر إلى آخره...

---

1) يذكر ابن أبي زرع أن الحسن بن كَنون سلم على الحَكَم فأقبل عليه وعفا عنه، ووفى له بعهده وأوسع له ولرجاله في العطاء... الأنيس المطرب. طبعة الرباط 1936 ج I ص 138 - 139.

ضيوف مشارقة على فاس

وفي سلخ شهر رجب (362 هـ) وصل إلى قرطبة أحمد بن محمد ابن عبد الله ابن إسماعيل بن طاهر بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضوان الله عليه من المدينة الهاروتية بالشام[1] الذي غلبت عليه الروم في هذا الوقت، قدم زائراً للخليفة المستنصر بالله... وقد كان رحل عنها مع أبيه... فانتقلا عنها إلى الغرب واستوطناه متنقلين في مواطنه ما بين (تشمس ؟) من عمل أولاد البوري بن أبي العافية إلى (لواته ؟) من عمل أخيه مدين بعدوة القرويين من عمل فاس...

ابن حيان : المقتبس (تحقيق الحجي) ص 105

---

1) بنيت «الهارونية» من قبل هارون الرشيد عام 183 واستولى عليها الروم يوم 23 شوال عام 348. وقد كان البكريَ هذا رحل عنها قبل احتلالها مع ما يليها من ثغور الشام فقضى فريضة الحج ودخل اليمن ولقى ملوكهم وجال بتلك البلاد مع أبيه ثم رجعا إلى مصر يريدان «الهارونية» فلما علما بما حدث توجها إلى المغرب...

لقد اعتقد الحَكَم المستنصر بالله أنه تغلب على هذا المشكل : مشكل المناوئين له في المغرب من بني إدريس وأنصارهم... ولكن المشكل الحقيقي كان يكمن في حلِّ ذلك المشكل !

وهكذا فبمقدار ما كان عبد الرحمن الناصر حذرا في الثقة بأهل العدوة، بقدر ما وجدنا الحَكَم ـ بعد إسكات مناوئه ـ يشجع استقدام المغاربة للأندلس بمن فيهم الخوارج والإباضية ! الذين كانوا ـ بحكم المذهب ـ مخالفين لمعتقدات الحَكَم.!!

☆ ☆ ☆

لقد استمر الأمير حسن بن كَنون مقيما زهاء سنتين على مرأى ومسمع البلاط إلى أن وقعت نفرة بينه وبين الخليفة ! ويذكر صاحب روض القرطاس وصاحب كتاب مفاخر البربر أن السبب في ذلك يرجع لرغبة الحكم المستنصر في الحصول على قطعة عنبر غريبة الشكل ثقيلة الجرم ظفر بها الحسن في بعض سواحل المغرب الشمالي فسوَّاها منْشُورة كان يتوسدها أوقات تجمله، بلغ الحَكَمَ خبرُها فسأله حملها إلى خزانته على أن يرضيه عنها..! فحمله تهوره ـ يقول كتاب مفاخر البربر ـ على الضنِّ بها عليه، وفي بعض أجوبته ساق هذه العبارة «يقول الله في قصة داوود : ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نجعة ولي نجعة واحدة﴾ الآية فكأنما قدح في قلب الحكم ناراً أضرمت سريعاً العداوة، وبعثت مكامن الضغينة... وما انفك الحَكم يبحث عن تلك العنبرة حتى استولى عليها..!

☆ ☆ ☆

وعندما ضعف الخليفة أمام الفالج الذي نزل به، أصبح الأمر بيد وزرائه وكان على رأسهم جعفر ابن عثمان المصحفي الذي تخوف شر حسن بن كَنون وصحبه... واستثقل نفقاتهم ! فرأى إخراجهم عن أرض

الأَندلس وأذن لهم بالرحيل، وشرط عليهم الاتجاه نحو المشرق، وأخذ على زعيمهم بذلك العهد ولا يكون له إلى المغرب تعريج، وانه متى نكث بالذمة برئ منه، وأطلق لهم مالا استعانوا به على سفرهم، ووكل بهم من أخرجهم على طريق ألمرية، فعبروا البحر هناك في سنة 365 = 975 ـ 976 إلى تونس وساروا نحو مصر ووصلوا إلى صاحبها : خليفتها الفاطمي : العزيز بالله نزار بن معد، إثر ولايته، فقبلهم... ووصل أرحامهم وأجرى عليهم من فضله وأقرهم مدة، ثم تهيأ الحسن بن كَنون للحج في جملة من أصحابه...

وهكذا نجد أن إخراج الأَدارسة من الأَندلس كان مما استبد به الوزير جعفر علي سائر الوزراء في حينٍ كان يرى سائرهم إبقاءهم تحت سمع وبصر الحكومة...

رفع الضريبة في قرطبة عن الزيت !

أَمَرَ وليّ العهد هشام في يوم عاشر صفر الخير 366 بإسقاط ضريبة الزيتون المأخوذ في الزيت بقرطبة وكانت مستكرهةً إلى الناس ! فسرُّوا بذلك أعظم سرور، وقد نسب شأنها إلى محمد بن أبي عامر وأنه أشار بذلك فَأَحَبُّوه لذلك !

ابن عذاري : البيان المغرب 2، 259

العلاقات المغربية الأندلسية
في أيام هشام

- ☐ الحاجب محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور يتولى شؤون الدولة عوضاً عن هشام !
- ☐ الحسن بن كَنون يعود إلى المغرب بتشجيع من الفاطميين !
- ☐ دعوة الحسن لنفسه في مدينة الأقلام.
- ☐ محمد بن أبي عامر يقرر مطاردة الحسن بجيش كثيف.
- ☐ استسلام الحسن وطلبه الأمان، ثم الغدر به في جمادى الأولى 375 - اكتوبر 985 !
- ☐ ظهور زيري بن عطية ومساندته لقرطبة...
- ☐ تعيين الحسن السلمي والياً لابن أبي عامر...
- ☐ قمة في قرطبة بين ابن أبي عامر وبين زيري ابن عطية.
- ☐ زيري يسهر على تنفيذ السياسة الخارجية للعامريين بالمغرب.
- ☐ زيري في قرطبة للمرة الثانية مصحوباً بالهدايا الرفيعة.
- ☐ موقفه من «مجاملات» ابن أبي عامر !

العلاقات المغربية الأَندلسية
في بداية أيام هشام

وهلك الحكم المستنصر بالله فبويع ابنه المؤيد بالله هشام... فقام حاجبه محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور بتدبير شؤون الدولة بالأَندلس والمغرب...

وبالرغم من بعض الحوادث المناوئة التي شهدها المغرب بزعامة بُلُقين بن زيري بن مناد[1] فإن البلاد ظلت على العموم تدين بالولاء للأُمويين إلى أن دوَّت بالمغرب من جديد أصداء حسن بن قنون !

فلقد نازعته نفسه بالعودة إلى وطنه... ووجد في حكام مصر الفاطميين المساعدة والتشجيع، حيث نجدهم يكتبون إلى عاملهم بُلُقين في إنفاذِ الأَدارسة إلى المغرب وإعانتهم على ما يحاولونه، فأمضى بهم بُلُقين لسبيلهم وقدَّم حسنا عليهم، وأوعز إليه ـ على ما يقال ـ بتحريض البلاد على بني مروان...

وقد التف عليه جميع مَن أسنده بُلقين، وشرع الأَمير في إظهار دعوته، لكن بُلُقين لم يلبث أن هلك عام 373 = 983 فولى ابنه المنصور الذي شغل عن الأَمير حسن وغيره، ولها عن مذهب أبيه، فانفضَّ عن حسن كثير ممَّن كانوا يساندونه فالتجأ إلى «مدينة الأَقلام» ودعا إلى نفسه !

1) إلى بُلجين هذا والي الفاطميين يُنسب هدم البصرة المغربية، وقد كانت بعد القضاء على الأَدارسة ـ دار مُلك ابن الأَندلسي وبها عمارة عظيمة.
ابن خلدون : كتاب العبر ـ المجلد السادس، القسم الأَول ص 11 ص 319 ـ 320 ـ.

رسالة أرسلها المنصور بن أبي عامر لما أصبح صاحب السلطة في الأندلس إلى الخليفة الفاطمي في مصر :

منع العينَ أن تذوق المناما	حبها أن ترى الصفا والمقاما
لي ديون بالشرق عند أناس	قد أحلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأماني وإلا	جعلوا وزْنها رقاباً وهاما
عن قريب نرى خيول هشام	يبلغ النيل خطوُها والشآما

الحلة السيراء لابن الأبار ج 1، 275

☆ ☆ ☆

المنصور بن أبي عامر

وألح المنصور بن أبي عامر على ملوك قشتالة بالغزو والإضاقة، يوالي عليهم الصوائف والشواتي حتى أذعنوا... وفقد تقرب إليه بعضهم بإهداء ابنته، فقبلها المنصور أحسن قبول وتزوجها وحسن إسلامها، وكانت من خيرات نسائه دينا متينا وحسبا أصيلاً، وأولد منها ولده عبد الرحمن الملقب من أجل ذلك شنجول (تصغير شانجو) من أسماء خؤولته، ولم تزل الأيام حتى ورد أبوها الملك على بابه زائراً مستصرخاً، فخرج عبد الرحمن بن المنصور حفيد الملك الوارد : ابن ابنته إلى لقائه بالجيوش والأبهة الفخمة طفلاً يرقد في السرج، فنزل جده إليه وقبله رجله ويده... حتى كان ذلك مما يتحدث به في فنون السعد ومواتاة الأيام...

أعمال الأعلام لابن الخطيب، تحقيق بروفنصال
دار المكشوف، بيروت 1956، ص 66

وهنا أنفذ محمد بن أبي عامر لمطاردته ابن عمه عمرو بن عبد الله المدعو عسكلاجة في ربيع الأول سنة 375 = غشت 985، حيث أخذ في تجويز الناس إلى العدوة بالعتاد الكثيف والمال الوافر والرجال الأشداء.

ولما لم يكن للحسن سند فقد التجأ إلى الاستسلام طالباً من ابن عمه القائد عسكلاجة الأمان على نحو ما فعله بالأمس مع القائد الأعلى غالب !

... وقد أعطاه عسكلاجة ما طلب وأشخصه إلى الحضرة موكلا به... لكن الحاجب ابن أبي عامر لم يُمض أمان عسكلاجة، وهكذا بعث من ثقاته من أمره باستقباله وقتله، فلقوه بالقرب من بريد الثنية وعدلوا به عن الطريق فضربوا عنقه ووارَوْا جسده رحمه الله بعد أن حمل رأسه



الأمير الحسن بن كَنون
بريشة عبد السلام الكَنوني

إلى قرطبة، وكان ذلك في جمادى الأُولى عام 375 = شتنبر - اكتوبر 985.[2]

☆ ☆ ☆

إنه إذا كان هناك من مثل ينبغي أن يضرب في الدنيا للثبات والجلد والصبْر والدأب من أجل الحفاظ على الكيان المغربي، فهو هذا المثل المنقطع النظير الذي قدمه الأَدارسة طوال أزيد من مائتي سنة ظلوا فيها يصارعون ويصانعون دولتين عظيمتين، حتى لَنُعِتوا بالتقلب والتلون، وحتى لاضطروا إلى إبرام عقود محكوم عليها سلفا بالفشل، وحتى لبلغ بهم الإصرار أن رضوا بتقسيم العاصمة فاس بين دعاة المهدية وقرطبة..!

وقد قيل : إنهم عُبَيديون في أعماقهم، وقال آخرون : إنهم كانوا أُمويين في عواطفهم، ولكن الحقيقة أنَّهم كانوا مغاربة بكل ما في الكلمة من معنى، كانوا حريصين على أن يظلوا مستقلّين عن كلّ تيار، محايدين تجاه كل معسكر... لكن ضعف سلطانهم وقلَّة ذات يدهم كانت تُلجئهم أحياناً إلى مجاملة هذا أو مداهنة ذاك، سيما بعد أن اضطروا لتسليم فاس عاصمة آبائهم والاكتفاء بالبصرة أو الأَقلام أو أصيلا أو قلعة حجر النسر..! لقد لزمتهم روح الطموح إلى آخر لحظة من حياتهم بل إن مطامحهم ظلت في الأَندلس - ممثلة في تلك المجموعة التي احتفظ بها الخليفة الحكم في ديوانه بقرطبة منذ عام 364 = 924 والتي تكونت منها الطلائع الأُولى لدولة عليّ بن حمود ابن ميمون بن حمود... ابن

2) ابن عذاري : البيان المغرب 2، ص 281.

إدريس بن إدريس الذي سنراه يدخل قصر قرطبة يوم 28 محرم 407 = أول يوليه 1016 فيجعل بذلك حدّاً لدولة العامرين..![3]

☆ ☆ ☆

وباختفاء الأدارسة من المسرح السياسي بالمغرب برزت جيداً مناصرة زيري بن عطية المغراوي للنظام الأموي، وكانت مغراوة وبنو يفرن قبيلتين من زناتة تُواليان بني أُمية منذ أن أسلم جدهم صولات بن وانزمار على يد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاتضح حينئذ اتجاه المغرب بإخلاصٍ نحو بني أُمية، وهكذا ندب المنصور بن أبي عامر في إثر نهاية بني إدريس، وزيرَه الحسن بن أحمد ابن عبد الودود السلمي لحكم بلاد المغرب وأمره أن يعمل على استمالة البربر في تلك الأقطار، وسار الوزير لفاس 376 = 986، واتخذ من زعيم مغراوة : زيري بن عطية الذي ساعد على تصفية الأدارسة مستشارَه ومفوضَه الأول.

وإعراباً لتقدير المنصور ابن أبي عامر للعون الذي أسداه إليه زيري ابن عطية وجه إليه الدعوة لزيارة قرطبة حيث احتفى به احتفاء بالغاً وأسبغ عليه من مظاهر العطف والتكريم ما كانت تقتضيه المهمة الجديدة التي تنتظره، فلقد أوعز إليه المنصور بالتجرد لمقاتلة بني يفرن من بقايا أولياء العُبَيديين الذين انضموا بالأمس إلى الحسن ابن كَنون !

وقد قام زيري بما عهد إليه فقاتل يدُّو بن يَعْلَى زعيم بني يفرن لكن هذا استطاع أن يهزم عملاء بني أُمية بل وأن يُثخن وزيرهم الحسن

3) يرى الإمام ابن حزم أن نسب علي بن حمود وأخيه القاسم يصعد إلى الإمام إدريس (جمهرة أنساب العرب) القاهرة ص 43 وهو ما عند عبد الواحد المراكشي (المعجب ص 24) وابن عذاري (البيان المغرب ج 3، 119 وروض القرطاس 1، 143، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص 128، وفيهم قال الشاعر :

انظرونا نقتبس من نوركم   إنّه من نور رب العالمين !

حَجر النسر

إهتم عدد من الباحثين بمحاولة تحديد الحصن الذي قاوم فيه الحسن بن كَنون جيوش الأُمويين لآخر لحظة من الدولة الثانية للأَدارسة بالمغرب...

وقد اكتفى ابن أبي زرع في كتابه الأَنيس المطرب بنعته بأنه (قريب من سبتة) (لعلّه يعني سماته ؟) لكن المؤلفين من بعده لم يقنعوا بهذا الوصف الواسع وراحوا يبحثون عن الموقع من خلال ما كتب عن المعارك وبخاصة من لدن شيخ المؤرخين ابن حيان...

وإذا كانت دائرة المعارف الإسلامية وصلت إلى القول بأنه «غير معروف» فإن الأُستاذ عبد الله كَنون يعتقد أن الحصن يقع بقبيلة سُماتة (بضم السين) وأن هذا الموقع الحصين يسمى إلى الآن بحجر النسر، قال : ولم نجد من نعتمد عليه في ذلك ونعتضد به حتى وقفنا على ما يثبت ذلك عند النسابة ابن رحمون في كتابه «شذور الذهب» فإنه جزم به في مواضع من الكتاب المذكور. وقال : إنه يعرف أيضا بحجرة الشرفاء وبدار القرار لقرار الأَدارسة فيه عند تقلب الدول عليهم، وإن كان وقع له في أحد النقول أنه في قبيلة بني زجّل حول شفشاون، والأَول أثبت، ومثله عند النقيب الريسوني في كتاب فتح العليم الخبير وعليه فما في دائرة المعارف الإسلامية من أن هذا الموقع غير معروف فيه قصور...

قلت : وبحسب الأَعلام الجغرافية التي تتضمنها خريطة المنطقة المشار إليها فإننا نجد ضمنها اسم «دار الشريف» **شمال قبيلة بني عروس**، حيث نلاحظ أن هذا الموقع يكتنف مدينة سبتة وتطاون وطنجة وأصيلا والبصرة، إذ إنه يقع في قلب هذا الإقليم على ما يظهر في الخريطة :

السلمي جروحاً قضت عليه يوم الثلاثاء 18 محرم عام 381 16 أبريل 991[4].

وعقد المنصور في أثناء هذه الأحداث لزيري، على المغرب كله طالباً إليه أن يتعاون مع جيش الخلافة... وقد كان زيري حقا في مستوى الثقة التي وضعها فيه المنصور ابن أبي عامر حيث نراه يحقق انتصاراتٍ ساحقةً أيضاً ضد أبي البهار الذي نكث عهد المروانيين في تلسمان ووهران والمهدية بعد أن تلقى عهد المنصور وهداياه وخلعه مع أربعين ألف دينار...!

وقد كتب زيري بأمر هذا الفتح إلى المنصور بن أبي عامر وبعث له هذا العام 381 = 991 بهدية عظيمة، فيها مائتا فرس من عتاق الخيل وخمسون مهرية سوابق، وألف درقة من اللمطية[5] وأحمال كثيرة من قِسِيّ الزارة[6] وقطوط الزبد والزرافة وأصناف من الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره، وألف حمل من التمر الجيد في جنسه، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة المجلوبة دون شك من مدينة سجلماسة العظيمة، الأمر الذي أدخل سروراً كبيراً على المنصور !

ولهذا فقد وجه إليه المنصور سنة 382 = 992 الدعوة مرةً ثانيةً لزيارة قرطبة... وهكذا استخلف زيري على المغرب ولده المعز وأمره بسكنى تلمسان، كما استخلف على عدوة الأندلس من مدينة فاس عبد

---

4) العبرج 1 ص 40، القرطاس 1، 156 تعليق 2 - ص 179.

5) الدرقة : الترس من جلد اللمط، وقد عرفت قبيلة لمطة بدرقها الجلدية الأصيلة، ينقعون جلود اللمط في الحليب سنة ويعملونها فينبو عنها السيف القاطع... القرطاس 1، 160 تعليق1 .

6) الزارة : أرض في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس بنحو 15 كلم كانت مشهورة بصنع القسى الجيدة.
الطاهر الزاوي : معجم البلدان الليبية طبعة 1968 ص 148.

الرحمن ابن عبد الكريم بن ثعلبة، وعلى عدوة القرويين علياً بن محمد بن علي ابن قشوش، وولى قضاء المدينتين الفقيه أبا محمد عامر الأزدي، ثم سار في طريق الأندلس يحمل معه هدايا عظيمة وثمينة، كان جملتها طيْرٌ فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ودابة من دواب المسك ومهاة وحشية تشبه الفرس وحيوانات غريبة وأسدان عظيمان في قفص من حديد وتمر كثير في غاية الفخر، التمرة منه تشبه الخيارة في عظمتها..! وقد صحبه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل... فصنع له المنصور بروزاً عظيماً وأنزله بقصر وزيره جعفر المصحفي ووسع له في الجرايات والإكرام ولقبه باسم الوزير وأعطاه مالا جسيما وخلعا نفيسة، وودعه إلى مقر عمله مجدداً له العهد على المغرب وعلى جميع ما يتعلق به من أطراف البلاد.(7)

جارية المصحفي

«... وجميع بلاد أرض النوبة في نسائهم الجمال وكمال المحاسن وشفاههم رقاق وأفواههم صغار وملابسهم بيض وشعورهم سبطة... وأن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاثمائة دينار... ولهذه الخلال التي فيهن يرغب ملوك أرض مصر ويتنافسون في أثمانهن ويتخذونهن أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن، وذكر بعض الرواة أنه كان بالأندلس جارية من هؤلاء الجواري المتقدم ذكرهن عند الوزير أبي الحسن المعروف بالمصحفي، فما أبصرت عيناه قط بأكمل منها قداً ولا أصبح خداً ولا أحسن مبسما ولا أملح أجفاناً ولا أتم محاسن، وكان هذا الوزير المذكور مولعا بها، بخيلا بمفارقتها، ويذكر أن شراءها عليه مائتان وخمسون دينارا من الدنانير المرابطية، وكانت هذه الجارية المذكورة مع تمام محاسنها وبديع جمالها إذا تكلمت أسحرت سامعها لعذوبة ألفاظها وحلاوة منطقها لأنها ربّيت بمصر فكانت بذلك تامة الصفات...»

عن الإدريسي في نزهة المشتاق

---

7) القرطاس 1، ص 160 / 161.

ويظهر أن زيري لم يبتهج بلقب «الوزارة»، بل إنه استاء منها حيث كان يعتبر نفسه في مرتبة الإمارة، وهكذا عبر البحر إلى العدوة وهو يشعر بالمرارة والخيبة، ويذكر صاحب روض القرطاس أن زيري لما وصل إلى طنجة وضع يده على رأسه وقال : «الآن علمت أنك لي !» لقد استقل ما وصله به المنصور فاستقبح اسم «الوزارة» التي سماه بها، ولقد خاطبه بها بعضهم فنهاه عن ذلك قائلا : ويحك ! وزير مَنْ يالَكَع ؟! لا والله، أمير ابن أمير، وأعجبا لابن أبي عامر ومخرقته ! لأَنْ تسمعَ بالمعيدي خير من أن تراه ! ولو كان بالأندلس رجل (يعني هشام بن الحكم) ما تركه على حاله !».

ومن جهة أُخرى فقد اقترن وصوله إلى طنجة بالأَخبار التي نميت إليه عن خصومه بني يفرن الذين انتهزوا فرصة غيابه بالأَندلس فانقضوا على مدينة فاس بقيادة زعيمهم يدُّو بن يعلى واستولوا منها على عدوة الأَندلس. وهنا بادر إلى العاصمة وحقق نصراً ساحقاً على خصومه وقتل زعيمهم يدُّو، وبعث برأسه للمنصور سنة 383 = 993، وهلك في المعركة حول المدينة خلق كثير من مغراوة وبني يفرن.

وهكذا أصبح زيري صاحب الكلمة في بلاد المغرب كلها وقد استمر في الظاهر موالياً للمنصور مؤيداً للدعوة الأُموية ولو أن نفسه أخذت تجيش بمطامح أُخرى الأَمر الذي يفسره اعتزامه على إنشاء قاعدة جديدة لحكمه تقع بين المغرب الأَقصى والأَوسط، وهكذا كانت مدينة وجدة سنة 384 = 994 التي أسس بها قصبة منيعة وقصراً وأحاطها بأسوار ضخمة ونقل إليها أمواله وذخائره وسكنها بأَهله وحشمه، قبل أن يحدث بها يعلى بن بلكّين مدينة أُخرى بعد أربعين وأربع مائة...(8)

8) البكري ص 87 ـ 88.

وجدة

«... ومن جهةٍ أُخرى فقد أخذت الآمال تداعب زيري لاحتلال إقليم شِلْف واستعادة سطو المغراويين على المغرب الأوسط الذي أخرجوا منه بالأمس ! وبالأحرى إحياء المملكة الزناتية لبني خزر..! ·

وقد شعر ـ وهو يفكر في هذا ـ أن موقع مدينة فاس كعاصمة للمستقبل، لا تتناسب وطموحه في أن يسترجع ما ضيَّعه جدوده بالأمس، ومن هنا ورد خاطر إنشاء هذه العاصمة، وجدة سنة 384 = 994 التي أصبحت قاعدة للحكم والتي كانت تعبّر في اختيار موقعها عن المساحة الشاسعة التي استمد إليها حكم زيري شرقيّ وغربيّ المدينة... وكانت تعبر في دلالة اسمها : (وجدة) على أنها العاصمة التي «يوجد» فيها كلّ ما تميل إليه النفس مما لا يتوفر في غيرها من قواعد المغرب !

... وإنني أَظلُّ أتساءل عن أسباب حديث البكري عن تاريخ تأسيس وجدة الثانية عام 440 هـ من قِبَل يعلى بن بُلُجين وإهماله لتاريخ تأسيس وجدة الأُولى عام 384 هـ من قبل زيري بن عطية ؟ إنّ هذا الصنيع من البكري ـ وهو رجل دولة ـ عرف باعتماده على أرشيف قرطبة ـ يحتاج منا إلى بحث، وهل إنه لا يدل على أن بناء وجدة الأُولى كان أمراً غير مرغوب فيه من لدن المنصور ؟! لقد علمتنا الممارسة أن تشييد العواصم وافتتاح المدن من لدن القادة والزعماء قد يصبح كارثة سياسية بالنسبة إليهم..! ألم نسمع عن مصير موسى ابن نصير عندما أوغل في افتتاح المدن الأندلسية ؟ ألم نسمع عما استهدف له إدريس عندما افتتح تلمسان وقرر بناء عاصمة فاس ؟

د. التازي : زيري بن عطية وسياسته الخارجية
محاضرة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بوجدة يوم 14 مارس 1986

تأزم العلاقات بين المغرب والأندلس

- سفارة أم الخليفة هشام لدى زيري بن عطية بين المصادر والمراجع !
- زيري يتجاهل السياسة المتوسطية ويُغضب المنصور بن أبي عامر.
- تعبئة الجيوش والأساطيل، بقيادة واضح، لتأديب زيري !
- هزيمة القائد واضح وإرسال المنصور، لولده عبد الملك !
- الحروب الطاحنة تنتهي بانتصار جيش الأندلس.
- قراءة أخبار النصر على سائر منابر الأندلس والمغرب !
- استبدال منبر الفاطميين في جامع القرويين بفاس بمنبرٍ للأُمويين يحمل اسم حكامهم، في ذي القعدة 387 = دجنبر 997.
- عودة زيري لموالاة الأُمويين وإدراكهُ لأهمية السياسة المتوسطية.
- نص الاتفاق بين المعز بن زيري من جهة وبين هشام المؤيد بالله ثم أخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول.
- أعظم هدية في تاريخ العلاقات بين المغرب والأندلس.
- انقراض دولة الأُمويين وظهور ملوك الطوائف.

سفارة أُم الخليفة هشام لدى زيري ابن عطية بين المراجع اللّاحقة والمصادر السابقة !

بالإضافة إلى ما نعرفه مما رددته كتب التّاريخ من وجود بعض التشنج أحياناً في العلاقات التي كانت تربط بين العاهل المغربي زيري ابن عطية وبين بعض قادة بني أُمية بالأَندلس وخاصة الحاجب المنصور الذي كان يهيمن على سلطة الخليفة هشام الملقب بالمؤيد ومعه أُمه الأَميرة صبح (Aurora) البُشكنسية...

وبالإضافة إلى ما نعرفه كذلك عن الرغبة الحقيقية لزيري ابن عطية في أن تظلّ بلاده مستقلة عن النُّفوذ الأُموى الأَمر الذي كان سبباً دون شكّ، في الاصطدام الحاسم الذي سنشهده بين جيش المنصور وجيش زيري في أواخر ذي القعدة عام 387 = دجنبر 997.

بالإضافة إلى هذا وذاك ظهر عنصر جديد في بعض المراجع الحديثة التي اهتمت بتاريخ الأَندلس، ويتمثل هذا العنصر في أن هناك وراء ذلك الصدام بين المنصور وبين زيري عملاً سرياً قامت به الأَميرة صبح لدى زيري لكي يساعدها على التخلص من المنصور وإرجاع السلطة لابنها هشام، ومعنى هذا أن هناك بعثةً سياسية قصدت بلاد المغرب للاجتماع بزيري الذي اقتنع بأن من واجبه أن يُجهز على خصمه المنصور !!

وهكذا قرأنا مثلاً في تأليفٍ للأُستاذ الزميل محمد عبد الله عنان يحمل عنوان : دولة الإسلام في الأَندلس، الطبعة الثالثة بالقاهرة عام 1380 = 1900 ص 503.

قرأنا أنَّ الأَميرة الوالدة (صُبْح) شعرت ـ وقد اتخذ المنصور ألقاب السيادة والملك، بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع... فاتهمت المنصور باغتصاب سلطان الخلافة... وخطر لها أن تتصل بزيري ابن عطية حاكم المغرب وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور فبعثت إليه رسلها، وانفذت إليه الأَموال سرّاً، ليحشد الجند ويتأهب للعبور إلى الأندلس... وكان زيري ـ يتابع عنانٌ كلامه ـ ينقم على المنصور سياسته في الحجر على هشام، وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور لما أساء به في حقه حين زيارته إلى قرطبة، وإذاً فقد لبّى زيري دعوة صبح وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته وحجره على الخليفة ويدعو إلى مقاومته ورد الأَمر إلى الخليفة الشرعي..!

انتهى كلام عنان الذي قدم إلينا في الهامش كشفاً بالمصادر التي اعتمدها في أمر تلك السفارة، ويتعلق الأَمر بكتاب نُبَذ تاريخية في أخبار البربر (ص 27) وقد نشره وصححه بروفنصال 1934، وكتاب البيان المغرب في أخبار الأَندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي ج 2، ص 302 وقد حققه وراجعه جورج كولان وليڤي بروفنصال 1948.

ويظهر أن زميلنا الدكتور الأُستاذ أحمد مختار العبادي شعر بما يكتنف هذه «السفارة» من رِيبَةٍ فسلك أُسلوباً في الرواية يعتمد على القولة المشهورة : «حاكي الكفر ليس بكافر !».

وهكذا نراه في كتابه : التاريخ العباسي والأَندلسي المطبوع سنة 1971 في بيروت ص 448 يعتمد على ما «يرويه المؤرخون» من أن السيدة صبح حاولت أن تأتي بجيش من المغرب على نفقتها للقضاء على المنصور وأنها أخذت الأَموال من بيت المال في القصر الخلافي بالزهراء ووضعتها في جِرَارٍ لإرسالها على شكل هدايا إلى حليفها المغربي زيري بن عطية ولكن المنصور استطاع بفضل عيونه أن

يكتشف المؤامرة ويستولي على هذه الهدايا، ولكي لا تكرر هذه الحادثة نقل المنصور بيت المال فوراً من مدينة الزهراء إلى مدينة الزاهرة التي بناها لنفسه...

وقد أضاف هذا الزّميل مصدراً جديداً أحالنا عليه لِمتابعة الموضوع، ويتعلق الأمر بكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، القسم الرابع، المجلد الأول ص كذا وكذا...

وهنا سهل علينا العمل من أجل أن نعرض رأينا حول أمر هذه السفارة المزعومة !

إن كل المصادر التي تمت الإحالة عليها... من الذخيرة إلى البيان، إلى النُّبَذ التاريخية... كلها وبدون استثناء لم تشر من قريب أو بعيد لقضية تلك الوفادة ! بل إن ابن بسام - وهو ينقل عن ابن حيان - يعطي تاريخاً دقيقاً لظروف «الوحشة» التي حدثت بين ابن أبي عامر والخليفة هشام ووالدته صبح... والتي أدت إلى اكتشاف أمر «الكيزان» المختومة والمنقولة على أعناق الخدم الصقالبة...

وهذا التاريخ هو يوم الثلاثاء الثالث من جمادى الأُولى سنة ست وثمانين وثلاثمائة (24 مايه 996)، أي قبل عشرين شهراً من إجْهاض مؤامرة أم هشام وإخماد تطلعاتها إلى تدبير الأمر...

فكيف إذن يمكن ربط انتفاضة زيري بسفارة صُبح، وصبحٌ كانت قد أمست في عداد الأحياء المقبورين ؟!

أعتقد أن قضية الربط بين الحركتين تحتاج إلى مزيدٍ من التروي سيما وأن المصادر المعاصرة للحدثين وعلى رأسها موسوعة ابن حيان التي نقل عنها ابن بسّام لم تجرؤ على القول بأن هناك صلةً بين العناصر المتمردة في قرطبة وبين القادة المغاربة في فاس..!

وقد كان يهم المؤرخين جداً النص على مبررٍ آخر للتدخل العسكري للمنصور في المغرب... يتجلى في تجاوز زيري حدود بلاده للاشتغال بجهةٍ أُخرى بعيدةٍ عنه على نحو ماسيفعله يوسف بن تاشفين بعد أَقلّ من قرن عندما تدخل في وقعة الزلاقة 479 = 1086 !

الواقع أن مناوأة زيري بن عطية للبلاط الأُموي كانت بدافع وطنيّ صرف يتلخص في رغبته في الاستقلال التام... وليس أبداً في حشر أنفه في السياسة الداخلية لجيرانه وحلفائه بالأَمس !

لقد عوّدنا المغرب طوال تاريخه أن لا يهبّ لنجدة أحدٍ ـ لا عمودياً ولا أُفقياً ـ إلا إذا تلقّى طلباً بتلك النَّجدة، وهذا ما عرفنا منذ ولاية موسى بن نصير، عصر الولاة إلى دولة يوسف بن تاشفين !![1]

☆ ☆ ☆

كان رد فعل المنصور بالنسبة لزيري بن عطية قطْعَ أرزاق الوزارة عنه وتنحية اسمه من ديوان الخلافة واعتباره خارجاً عن القانون..!

ولم يكن موقف زيري بأقل مما سلكه المنصور، ولهذا نراه يقدم على الاقتصارِ في الدعاء على المؤيد ومنعِ ترديد اسم المنصور من خطب الجمعة، وطردِ سائر عماله من المغرب وإجلائِهم إلى سبتة وإعلان الاستقلال التام عن قرطبة !

وهنا جهز المنصور جيشاً عظيماً بقيادة فتاه (واضح) قائد الثغر الأَوسط وآمده بالأَموال والذخائر... وعبر (واضح) البحر في قواته إلى طنجة وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة

---

1) د. التازي : زيري ابن عطية وسياسته الخارجية، محاضرة بكلية الآداب بوجدة، مارس 1986.

وحالفته على قتال زيري... واحتدمت المعارك طوال ثلاثة أشهر لكنها انتهت بهزيمة القائد واضح الذي التجأ مهزوماً إلى طنجة ليبعث باستصراخه إلى المنصور !

ولأجل ما كان يوليه هذا من أهمية لثورة زيري خرج بنفسه من قرطبة حتى الجزيرة الخضراء بالرغم مما كان يشكوه من النقرس حيث أشرف من هناك على حشد جيوش كثيفة سيَّرها عبر أُسطول ضخم بقيادة ابنه عبد الملك نفسه... وقد استنفر زيري بدوره جميع بطون زناتة، ودارت بينهم حروب لم يسمع بمثلها قط،[2] وتمت الهزيمة هذه المرة بأحواز طنجة على جيوش زيري الذي فر إلى الصحراء مثخنا بالجروح التي أصابته من طعنات غلامٍ أسود اسمه سلام كان زيري قتل أخاه.

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً في نهاية شوال سنة 387 = 4 نونبر 997 وكتب إلى أبيه المنصور يبشره بالاستيلاء على العاصمة.

وتعبيراً عن البهجة في الأَندلس تلى نص الكتاب على منبر جامع الزهراء في قرطبة الذي كان يضاهي منبر جامع القرويين في فاس، وعلى منابر قواعد الأَندلس كلها شرقاً وغرباً... واعتق المنصور زهاء ألفي مملوك ومملوكة شكراً لله... ووزع أموالاً كثيرة على أهل الفقر وذوي الحاجات، وفيما كان عبد الملك المظفر ينتظر تهنئة والده المنصور بفتح مدينة فاس مترقبا مرسوم تقليده ولاية المدينة قام في جامع القرويين بتشييد المنبر الجديد : المنبر الأُموي. لقد اختفى منبر الصنوبر الفاطمي وعوضه منبر من عود الأَبنوس والعُنّاب..! وإذا

---

2) البيان المغرب 2، ص 282.

تجهيز الجيش لزيري بن عطية

قال بن درّاج القسطلي يمدح المنصور بن أبي عامر ويذكر تجهيزه الجيوش إلى زيري بن عطية بواسطة قطع الأُسطول :

لـك اللـه بـالنصر العـزيـز كفيـل ... أجَـدٌّ مقـام أم أجَـدٌّ رحيـل
هـو الفتـح، أمـا يـومُـه فمعجـلٌ ... إليـك، وأمـا صنعـه فجـزيـل
وآيـاتُ نصرٍ مـا تـزال ولم تـزل ... بهنّ عمـايـات الضـلال تـزول
سيـوفٌ تنير الحـقّ أنّى انتضيتَهـا ... وخيـلٌ يجـول النصر حيث تَجـول
ألا في سبيـل الله غـزْوُك مَن غـوى ... وضـلٌ بـه في النـاكثين سبيـل !
لئن صدِئتْ ألبَابُ قومابُ قومٍ بمكرهم ... فسيفُ الهُـدَى في راحتيـك صقيـل
فـإن يحيَى فيهم بغْيُ جـالـوتَ جـدِّهم ... فـأحجـار داودٍ لـديـك مُثـول

☆ ☆ ☆

تحمَّـل منـه البحرُ بحراً من القَنَـا ... يروع بهـا أمـواجَـه ويهـول

☆ ☆ ☆

كريم التـأني في عِقـاب جُنـاتـه ... ولكن إلى صـوت الصريـخ عَجُـول
ليـزْهُ بـه بحْرٌ كَـأن مُـدُودَه ... نـوافـلُ من معروفـه وفُضُـول
تهـادتْ بـه أنفـاسُ رَوْحٍ من الصَّبـا ... وخـدٌّ من البحر الخِضَم أسيـلُ
وقـد أومت الأعـلامُ نحـو حلـولـه ... وحنٌّ من الغُرّ الجيـادِ صهيـلُ
فجلّى سنـاه «العـدوتين» وبشَّرت ... خـوافـق رايـاتٍ لـه وطُبُـول
فيهنيـك يـا منصـورُ مبـداً أنْعُمٍ ... عـوائـدُه صنـعٌ لـديـك جميـل
ويهنيـك شهرٌ عنـد ذي العرش شـاهـدٌ ... بـانـك برٌّ بـالصّيـام وَصُـول

ديوان ابن دراج القسطلي تـ 421 = 1030 - تحقيق وتعليق وتقديم د. محمد علي مكي، طبع دمشق 1381 = 1961

كان العُبَيديون قد أغفلوا تسجيل أسمائهم - هذه المرة - على ذروة المنبر، فإن هؤلاء الأُمويين اليوم خلدوها في هذه الكلمات :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، هذا ما أمر بعمله الخليفة المنصور سيف الإسلام عبد الله هشام المؤيد بالله أطال الله بقاءه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن أبي عامر وفقهم الله تعالى وذلك في سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.[3]

ولا شك أن عِظم الفرحة أخذت بلب المظفر وهو يستمع من أعلى منبر القرويين الجديد يوم الجمعة منسلخ ذي القعدة 387 = 3 دجنبر 997، يسمع اسمه واسم والده واسم الخليفة الأُموي !

وكتب المنصور إلى ولده عبد الملك بعهده على المغرب، وعاد القائد واضح إلى قرطبة بالجيش لكن عبد الملك لم يلبث أن عاد للأندلس بعد ستة أشهر مستخلفاً صاحب الشرطة عيسى ابن سعيد القطاع الذي استمر إلى شهر صفر 389 = ينـاير 999 حيث أقيل وخلفه القائد واضح...

وفي هذه الأثناء كان زيري بن عطية قد جمع فلوله في قوات من زناتة، ولكن لا ليصارع قوات هشام المؤيد بالله بل ليزحف شرقاً على بلاد صنهاجة، وينتزع من يد بادس بن منصور بُلكين، مدينةَ تاهرت

---

3) هذه رواية الجزنائي في زهرة الآس وهي التي تتفق مع تسلسل الأحداث التاريخية التي مرت بها البلاد. القرطاس 1، ص 166.
د. التازي : تاريخ القرويين 1، ص 59، 63.

غزوة مع الإسبان

بلاغ وجهه المنصور بن أبي عامر سنة 390 هـ إلى قواد جيشه وأفراده وغلمانه بعد غزوته الهائلة لقشتالة :

غزا المنصور الإسبان سنة 390 هـ وكاد يهزم، ولم ينتصر إلا بعد حرب شديدة هائلة، وبعد انتهاء المعركة وجه إلى الجنود والقواد البيان التالي، وهو من إنشاء كاتبه عبد الملك بن إدريس.

فصل منه :

وكثيرا ما فرط من قولكم أنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون، وتشتاقون ملاقاة الرجال الفحول، فحين جاءكم شانجة بالأمنية، وقاتلكم بالشريطة، أنكرتم ماعرفتم، ونافرتم ما ألفتم، حتى فررتم فرارَ اليعافير من آساد الغيل، وأجفلتم إجفال الرئال عن المقتصين، ولولا رجال منك رحضوا عنكم العار، وحرروا رقابكم من الذل لبرئت من جماعتكم، وشملت بالموجوة كافتكم، وخرجت للإمام والأمة من عهدتكم، ونعمت المسلمين في الاستبدال بكم، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر وحسن عقبى، فلا بد أن ينصر دينه بمن شاء.

وفي ذلك يقول صاعد يهنئ بالفتح :

اليوم عاش الدّين وابتدأ الهُدى	غضّاً وعاد الملك عذب المورد
ووقفتَ في ثاني حنين وقفةً	فرأيتَ صنعَ الله يوخذ باليد
مَن فاته بدْرٌ وأدرك عمره	جَرْبَيْرَ فهو من الرحيل الأسعد...

ابن الخطيب : أعمال الأعلام، تحقيق بروفنصال، ص 72 ـ 73

فتوى الإمام الأَصيلي لابن أبي عامر بالصلاة إيماءً على متن العمّارية...

كـان من أبرز الشخصيـات المغربيـة التي ظهرت في القرن الرابع الهجري شخصية الإمام أبي محمد عبد الله الأَصيلي، نسبةً إلى أصيلا المدينة المعروفة على مقربة من طنجة، وكانت دار علمٍ، تَمكّن فيها من أخـذ نصيب من المعرفـة قبل أن ينتقل إلى قرطبـة لمتـابعـة دراستـه، وقـد رحل إلى المشرق : فـزار القيروان ومصر ومكة والعراق فكانت له اتصالات بعددٍ من رجال الفكر قبل أن يعود إلى الأَنـدلس حيث انتهت إليه رئاسة المالكية بهـا، وكـان نظير ابن أبي زيـد القيرواني، وقـد أمسى قاضيا للمسلمين في سرقسطة.

ومن فتـاويـه لابن أبي عـامر جواز الصلاة في العمّـاريـة «الهودج» التي كان يلازم الصلاة فيها أثناء أسفاره، وكان يصلي إيمـاءً للنقرس الـذي أصـاب قدميه... توفي سنة 392 قبل الفتن والمحن التي عمت الأَندلس.

الحجوي : الفكر السامي، طبعة الرباط

وتلمسان ويحاصر مدينة (أشير) قاعدة صنهاجة[4] معلناً في نفس الوقت عن دعوته للخليفة هشام !

وقد بعث بسفارةٍ إلى المنصور - برئاسة الحاج دقاق والقاضي فتوح بن الأزرق - تؤكد التقرب والتعلق وتطلب الرضى... وعفا المنصور عن خصمه السياسي بالأمس وأعاده لولاية المغرب بيد أنه لم يعمر طويلا فقد توفي 391 = 1001 متأثراً بجراحه من الغلام الأسود. وخلفه في الولاَية ابنه المعز وأقره المنصور على هذه التولية، ولبث المعز والياً للمنصور مقيماً على دعوة بني أُمية إلى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس.

وبعد وفاة المنصور ابن عامر عام 393 = 1003 حدا ابنه عبد الملك حذوه فيما يتعلق بالسياسة المغربية فظل مواليا لزناتة ومغراوة ومؤيدا للمعز بن زيري الذي لم يفته، وقد بلغته أخبار وفاة المنصور، أن بادر بإعلان الطاعة لعبد الملك، حيث تلقى عهداً مكتوباً على عدوتي فاس وكافة أقطار المغرب على أن يؤدي المعز مقادير معينة من المال والخيل والدّرق ويبعث بولده معنصر رهينة إلى قرطبة !

وقد كان العقد مؤرخا بذي القعدة عام 397 = يوليه - غشت 1007 وهذا نص العهد عن كتاب (مفاخر البربر) لمؤرخ مجهول.[5]

---

4) (أشير) مدينة في جبال البربر أسسها زيري بن مناد الصنهاجي، لما استقل بولاية الزاب سنة 324 وبنى على جبلها حصناً منيعاً ليس إلى المتحصّن به طريق إلا من جهة واحدة... والي هذه المدينة ينتسب إمام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب خاصة، والشام عامة، الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري، استدعاه ابن هبيرة وزير المقتفي والمستجد وطلبه من الملك العادل نور الدين محمد بن زنكي فسيره إليه وقرأ له كتابه الإيضاح في شرح معاني الصحاح بحضوره. البكرى : ص 64 - ياقوت = المعجم ص 252 - القرطاس 1، ص 168.

5) مفاخر البربر : نشر ليفي بروفينصال، الرباط 1934 ص 40/39.

((... بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد

من الحاجب المظفر، سيف دولة الإمام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر.

إلى كافة مدينتي فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله.

أما بعد أصلح الله شأنكم، وسلّم أنفسكم وأديانكم، فالحمد لله علاّم الغيوب، وغفار الذنوب، ومقلب القلوب، ذي البطش الشديد، المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، بل له الملك والأمر، وبيده الخير والشر، إياه نعبد وإياه نستعين، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، صلى الله على محمد سيد المرسلين، وعلى آله الطيبين، وعلى جميع النبيئين والمرسلين، والسلام عليكم أجمعين.

وان المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله، تَابَع لدينا رسلَه وكتبه متنصلا من هنات دفعته إليها ضرورات، ومستغفراً من سيئات حطتها من توبته حسنات، والتوبة محاء للذنب، والاستغفار منقذ من العتب، وإذا أذن الله بشيء يسَّره، وعسى أن تكرهوا شيئا ولكم فيه خير، وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة، ولزوم الجادة، واعتقاد الاستقامة، وحسن المعونة، وخفة المؤنة، فولّيناه ما قِبَلكم، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم، وأن يرفع أحكام الجور عنكم، وأن يعمر سبلكم، وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلاّ في حدود الله تبارك وتعالى، وأشهدنا الله عليه بذلك وكفي بالله شهيداً. وقد وجهنا الوزير أبا محمد علي بن حدو له أكرمه الله، وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا، ليأخذ ميثاقه، ويؤكد العهد فيه عليه بذلك وأمرناه بإشراككم فيه، ونحن بأمركم معتنون، ولأحوالكم مطالعون، وأن يقضي على الأعلاء للأدنا، ولا يرتضي فيكم بشيء من الأذى، فثقوا بذلك واسكنوا إليه، وليمض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدوداً ظهره بنا، معقودا سلطانه بسلطاننا، ولا تأخذه في الله

لومة لائم، فلذلك ظننا به إذْ وليناه وأملنا فيه إذ قلدناه، والله المستعان وعليه التكلان، لا إلاه إلا هو. فبلغوا منا سلاما طيبا جزيلاً، ورحمة الله وبركته والسلام عليكم.

وكتب في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين وثلاثمائة...))

واستمر المعز بن زيري وفياً لقرطبة كذلك أيام أخي عبد الملك عبد الرحمن الملقب بشنجول[6] الذي تولى سنة 399 = اكتوبر 1008.

وهكذا نراه يبعث لشنجول بسفارةٍ هامة تحمل هدية عظيمة، فيها مائة وخمسون من عتاق الخيل... وقد تأثر عبد الرحمن لمبادرة حليفه المعز بن زيري فأحضر معنصرْ بن المعز الذي كان رهينة بقرطبة على ما يؤكد صاحب «روض القرطاس»، أحضره حاجب عبد الرحمن بن المنصور وخلع عليه وعلى السفراء الذين قدموا عليه بالهدية وأعاد به إلى والده مكرما... وقد وقع هذا الصنيع من عبد الرحمن موقعاً حسناً من المعز الذي اجتمع بولده بعد طول غياب... ولهذا نراه يجمع جل الخيول التي كانت توجد تحت تصرفه ويبعث به إلى قرطبة وكان مبلغها تسعمائة فرس ! ولم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها في تاريخ العلاقات بين المغرب والأندلس.[7]

ولم يطرأ على الصلات بين البلدين ما يكدر صفوها وقد اشتغل كل منهما بأحداثه الداخلية، فمن جهة المغرب استمر بنو مغراوة وبنو يفرن في منافساتهم، بل وتقاتل الإخوة من القبيلة الواحدة على امتلاك

---

6) أتى لقب شنجول أو سانشول أو شانجة الصغير من أنه حفيدا السانشوغرسيه ملك نافار، وكانت أمه حينما تزوجت المنصور اعتنقت الإسلام، وتسمت باسم (عبدة). عنان 2، ص 570.

7) روض القرطاس 1، ص 169 ـ 180 ـ 181.

نص إعلان ولاية عهد المسلمين لشنجول سنة 399 هـ
من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن بُرد

«هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أطال الله بقاءه إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر، وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعل الله إليه من إمامة المسلمين، واتّقى حلول الأجل، بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه، ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علما تأوي إليه، أن يكون بلقاء الله مفرطا فيها، ساهيا عن أداء الحق إليها، ونظر عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر إليه، ويعول في القيام به عليه، بعد إطراح الهواده والتبرئ من الهوى، والتحري للحق، والتزلف إلى الله جل جلاله بما يرضيه وان قطع الأواصر وأسخط الأقارب، عاملاً بألاّ شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح، وموقناً ألا وسيلة إليه أزكى من الدين الخالص، فلم يجد أحدا هو أجدر أن يقلده الخلافة في فضل نفسه، وكرم خيمه، وشرف موكبه، وعلو منصبه، مع تقواه وعفافه وحزمه وثقافه من المأمون الغيب، الناصح الجيب، النازح عن كل عيب، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر وفقه الله، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً إلى الخيرات مستولياً على الغايات، جامعا للمأثرات، وارثاً للمكرمات، يجذب بضبعه إلى أرفع منازل الطاعة، ويسمو بعينيه إلى أعلى درج النصيحة، ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه، فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه، مع أن أمير المؤمنين أبقاه الله لكثرة ما طالعه من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، أمل أن يكون ولي عهده القحطاني الذي جاء فيه الأثر عن النبي ﷺ : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه، فلما استولى عنده الاختيار، وتقابلت فيه الآثار، لم يجد عنه مذهباً ولا إلى غيره معرجاً، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته، وفوض إليه النظر في أمور الخلافة بعد وفاته، طائعاً راضياً، مجتهداً، متخيّراً، غير مُحَاب له، ولا مائل بهوادة إليه، ولا شرك نصح الإسلام وأهله فيه، وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة، بولاية عهده فيها، أن رأى، ذلك في بقاء أمير المؤمنين أعزه الله وبعده، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله عهده هذا، وأنفذه وأجازه وبتله، لم يشترط فيه مثْنوية ولا خياراً، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره، وقوله وفعله، عهد الله وميثاقه، وذمة نبيه محمد ﷺ، وذمم الخلفاء الراشدين من آله وآبائه، وذمة نفسه، بأن لايبدّل، ولا يغير ولا يحول ولا يتأول، وأشهد الله على ذلك وملائكته، وكفى بالله شهيداً، وأشهد من أوقع اسمه في هذا الكتاب، وهو - أبقاه الله - جائز الأمر، ماضي القول والفعل، بمحضر من وليّ عهده المأمون، ناصر الدولة، أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور، وفقه الله، وقبوله لما قلده، والتزامه لما التزمه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلاثمائة».

عن كتاب البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب لأبي عذاري، جزء ثالث دار الثقافة - بيروت طبعة ثالثة 1083 ص 44 - 45 - 46

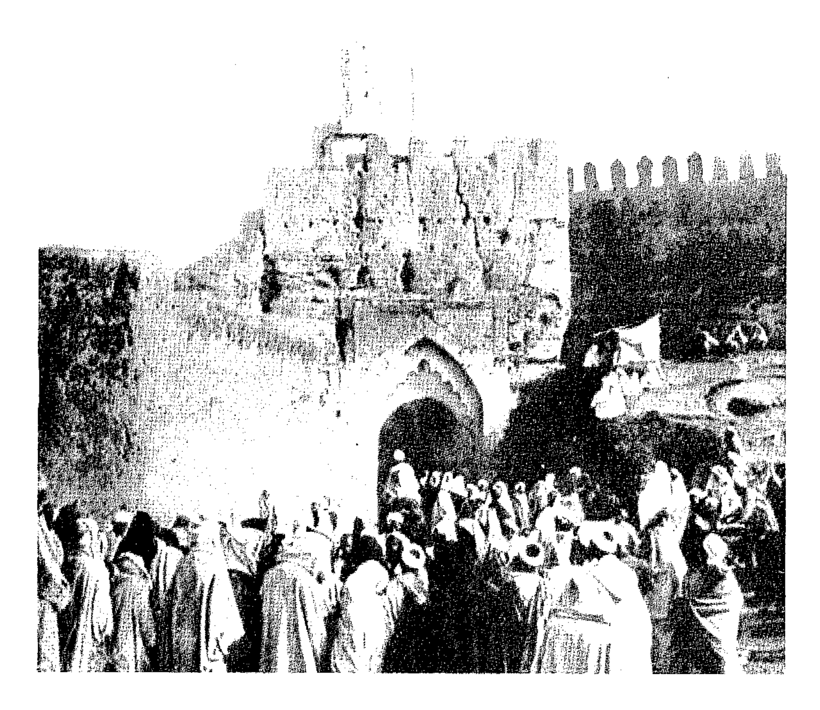
العاصمة فاس. وكما شاهدنا بالأمس ظروفاً عصيبةً دُعي فيها بعدوة القرويين من فاس لحكام القيروان، ودعي فيها بعدوة الأندلس لحكام الأندلس، فقد عشنا في هذه الفترة أياماً (452 = 1060) استبد فيها الأمير (الفتوح) بضفة الأندلسيين التي كانت تدعو له وجعل لها باباً يحمل اسمه، كما استبد الأمير (عجيسة) بضفة القرويين التي كانت تخطب باسمه وجعل لها باباً يحمل اسمه !!



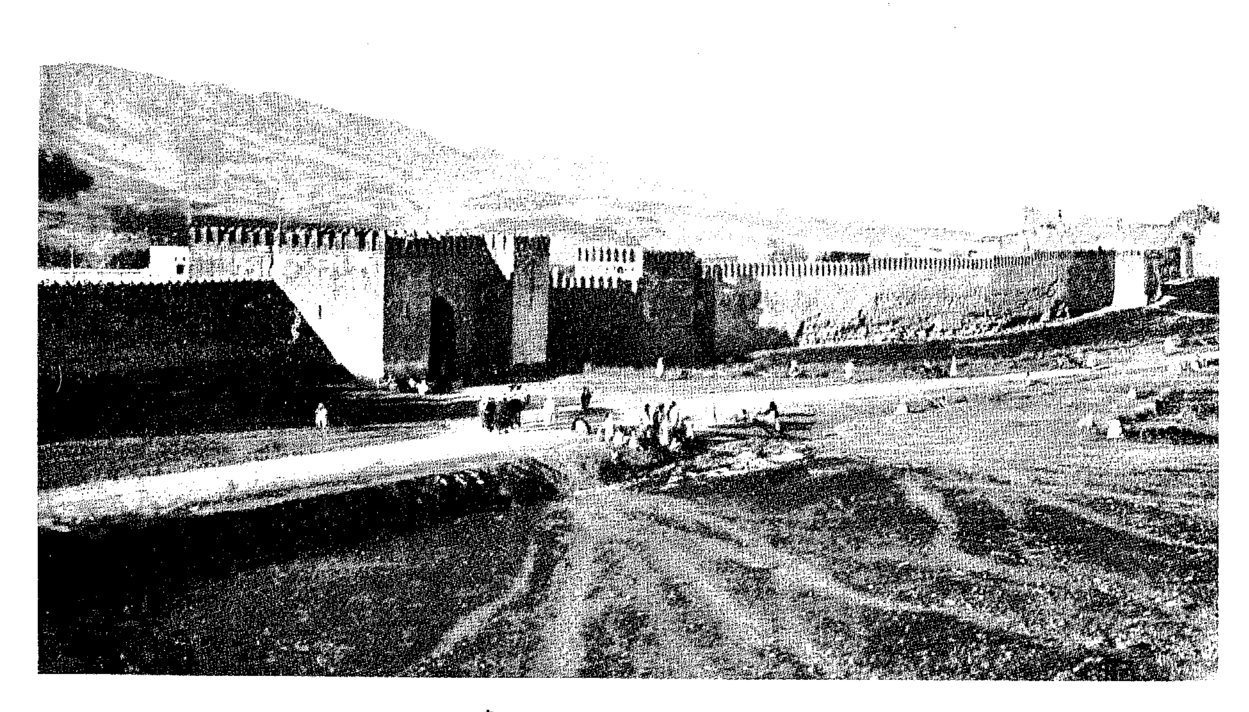
ومن جهة الأندلس فإننا نلاحظ تضعضع السلطة المركزية وتوالى المؤامرات التي انتهت سنة 407 = 1016 بانقراض الخلافة الأُموية وقيام دولة بني حمود الإدريسية على ما أشرنا، وظهور ملوك الطوائف واستبداد كل منهم بجهة : بنو عباد ملوكٌ في إشبيلية... وبنو ذي النون في طليطلة... وبنو هود في سرقسطة وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو جهور في قرطبة...







باب عجيسة من عدوة القيراونيين



باب الفتوح من عدوة الأندلسيين

العلاقات المغربية الغير المباشرة بالأُمم الأُخرى...

- □ المغرب عندما كان يرتبط بالمهدية أو بقرطبة.
- □ تاريخنا تاريخٌ للعالم الإسلامي.
- □ علاقات المغرب ـ عبْر الأُمويين ـ بليُّون، ونافار، وقشتالة وبرشلونة...
- □ علاقات المغرب بقيصر القسطنطينية وملك الفرنج وأمبراطور أَلمانيا والبابا يوحنّا الثاني عشر...
- □ علاقات المغرب ـ عبْر العُبيديين ـ بجنوة وسائر الجزر المتوسطية.

العلاقات المغربية ـ الغير المباشرة ـ بالأُمم الأُخرى على عهد الأَدارسة والزناتيين...

وإذا ما عرفنا أن المغرب، منذ التدخُّل العُبَيْدي وفي أعقاب اتّخاذ عُبَيْد الله المهدي لقب الخلافة إثر اتّخاذ عبد الرحمن الناصر أيضاً لقب الخلافة عام 316 = 929، أصبح يسير في ركب أُولئك مرة، وهؤلاء مرة أُخرى، فإنه سيسوغ للمغرب، من الناحية العملية، أن يعتبر نفسه صاحب صلةٍ بكل ما كان يربط المهْدية أو قرطبة بالأُمم الأُخرى...

وسيكون علينا بمقتضى هذا، أن نلتفت إلى ما كان يبرم من عقود وما يجري من صلاتٍ هنا وهناك بين مشرق العالم ومغربه.

وسيكون علينا أن نأخذ هذه الملاحظة بعين الاعتبار عندما تصبح بعض الأَمارات المغربية داعيةً لبغداد، وسيكون من المقبول ـ على ما يبدو ـ أن نتتبع صلات بني العباس بمن جاورهم أو بعد عنهم من الأُمم الأُخرى...

إضافةً إلى ذلك فإن هذا الكتاب ـ كما قلنا في المقدمة ـ هو تاريخ للعلاقات الدَّولية التي تربط العالم الإسلامي، الذي يكوّن المغرب جانباً مهمّاً منه، بزعماء العالم المسيحي وملوكه ورؤسائه...

ولكن حتى لا نخرج عما رسمناه لتصميم هذا الكتاب من اختصاره، وعدم انتشاره، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض الملوك المسيحيين المقيمين داخل الجزيرة الإيبيرية ممن كانت لهم صلة بملوك بني أُمية

أو حجّابهم العامريين... على أن نُتْبع ذلك بالملوك الآخرين الموجودين خارج الجزيرة، ممن كانت تربطهم علاقات كذلك بالأُمويين، أو العبيديين.

فعن الطائفة الأُولى نجد أن العلاقات مع الملوك المسيحيين داخل الجزيرة كانت من الكثرة بحيث إنَّ الخليفة يستقبل في اليوم الواحد عدداً من السفراء الواردين عليه سواء من مملكة نافار، أو ليون أو قشتالة وغيرها...

وقد كان من تلك الصلات السفارة التي بعث بها أوردونيو الثالث ملك ليون سنة 344 = 955 والتي اتبعها عبد الرحمن الناصر بسفارةٍ من لدنه برئاسة محمد بن الحسين، إلى ليون...

كما كان من تلك الصلات زيارة تودة (Toda) ملكة نافارّ البشكنس (Basqunes) بنفسها إلى قرطبة سنة 347 = 958 صحبة ولدها كَارسيا شانشيز الأُول لعقد السلم مع الناصر وإقرار ولدها ملكاً على نافار.

وكان منها أيام الحَكَم المستنصر بالله، وفادة أُوردونيو الرابع، صفر 351 = مارس 962 ليعاونه على استرداد عرشه حيث قام أُوردونيو أولاً بزيارة ضريح الناصر خالعاً قلنسوته منحنياً أمام القبر ![1] ثم استقبل من لدن الحكم المستنصر بالله حيث سجد أمامه وقبل يده ثم أخذ مكانه على كرسي من الديباج المثقل بالذهب، وقد تولى الترجمة وليد بن حيزون قاضي الذمَّة بقرطبة ووعده الخليفة بنصرته.

---

1) مجاملة لطيفة كان لها صداها الطيّب في نفس الحكَم الأمر الذي تفسره استجابته لمطالب السفارة.

كما كان منها السفارة التي استقبلها الحَكَم يوم 16 شوال 360 = 11 غشت 971 وكانت من ملك قشتالة كَارسيا فرنانديز برئاسة كَارسيا ولد أُتون...

> **السفارات الأندلسية المقيمة**
>
> وكان الخليفة المستنصر بالله الحَكَم بن عبد الرحمن قد رتب ابن أبي عمروس العريفي وصاحبه سعيدا، المسلمَيْن الماهرين بالخدمة، المعروفين بصدق اللهجة، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ولقاء قواميسها والتردد إليهم كل وقت لتعرّف أخبارهم والتجسس لأنبائهم وحمل الكتب إليهم كل وقت وصرفها عنهم فيصح الصحيح وتحسن الفائدة.

كما وفدت الراهبة ألبيرة الوصية على ملك ليون راميرو الثالث حيث قوبلت في قرطبة بمظاهر التّرحاب والتكريم، وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج... وقد قام بالترجمة عيسى بن منصور قاضي النصارى بقرطبة، ومعاوية بن لب قومس أهل الذمة وعبيد بن قاسم مطران إشبيلية... وكانت اللغة المستعملة هي الرومانية أو اللاتينية وهي التي تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية...

وكان منها ـ أيام المنصور حاجب هشام المؤيد بالله ـ قدوم برمودو الثاني ملك ليون إلى قرطبة عام 375 = 985 مستجيراً بالمنصور ليعاونه على توطيد عرشه، وقد قدَّم برمودو ابنته (Teresa) عروساً للمنصور..! كما كان من أشهر الحوادث الشائقة التي وقعت أيام المنصور مقدم سانشو كَرسية ملك نافار لائذاً بعفوه ومهادنته، والوجه الشائق في ذلك أنه كان صهراً للمنصور فقد كان هو الآخر قدم إليه ابنته عروساً، فتزوجها المنصور منذ عام 973 = 362 ثم رزق منها ولده عبد الرحمن

الملقب (شنجول) أي شانجه ! ثم ساءت العلاقات... ولكنها انتهت بمقدم سانشو لطلب الصلح يوم 3 رجب 382 = 4 شتنبر 992 فخُصص له استقبال حافل كان على رأسه ولده عبد الرحمن وهو طفل في مهده ! فلما وقعت عيناه على حفيده ترجّل وقبل يده ورجله...

وقد استقبله المنصور في هيئة فخمة هوى فيها سانشو إلى الأرض وقبلها مرات متوالية ثم قبل يدي المنصور ورجليه... وأجلسه المنصور على كرسي مذهب خصص له وجرى بينهما حديثٌ رأساً لرأس، وقد أورد ابن الخطيب وصفا شائقا لهذه الوفادة في كتاب أعمال الأعلام.

وقد كان من تلك السفارات وُرُود بلايو ابن برمود وملك ليون سنة 387 = 997 إلى قرطبة طالباً للصلح صحبة معن بن عبد العزيز حاكم سمورة (Zamora)...

كما كان منها السفارة التي بعث بها سنة 393 = 1103 أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث لطلب الصلح وعقد المهادنة، والتي استقبلت من طرف عبد الملك المظفر بالله استقبالاً حافلاً تحدثت به الكتب... وكان من أثر هيبة عبد الملك أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو كَارسية ومننديث كونثالث زعيم جلّيقية والوصي على ملك ليون...

أما عن الطائفة الثانية فسيكون علينا أن نذكر في هذا الصدد : السفارة التي وردت على عبد الرحمن الناصر سنة 336 = 948 من قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف ببورفيروجنتوس ومعها طائفة من الهدايا النفيسة، هذه السفارة التي تُقدم لنا الرواية الأندلسية تفاصيل شائقة عنها تلقى ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية في ذلك العصر كما تعطى وصفاً عن الاستقبال الضخم الذي خصّت به البعثة البيزنطية بمن حضره من عيون العلماء والأدباء من أمثال أبي علي القالي وافد العراق وضيْف الخليفة.

بين الحكم وبين ملك جليقية

محاورة بين الحكم المستنصر بالله الأُموي وبين ملك جليقية أردون.

بلغ أردُوُن بن أذفونش ملك الجلالقة عزم الحكم على غزو بلاده، فحضر بنفسه مع عشرين شخصاً من أكابر دولته، ليثني الحكم عن عزمه وليعقد معه صلحاً. فلما دخل عليه استقبله أفضل استقبال. ثم دار بين الملكين حوار هو التالي :

قال الحكم لأردون :

ليسرك إقبالك، ويغبطك تأميلك، فلدينا من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما طلبته.

فقال أردون بعد أن قبل البساط :

أنا عبد أمير المؤمنين مولاي، المتورك على فضله، القاصد إلى مجده الحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله، وعوضني من خدمته، رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة، ونصيحة خالصة.

فقال الحكم :

أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك على أهل ملتك ما يغبطك، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا واستظلالك بظل سلطاننا.

فقال أردون :

إن شانجة ابن عمي تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم. وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته، وأنكرت سيرته، واختارتني لمكانه من غير سعي مني - علم الله ذلك - ولا دعاء إليه، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطراً مضطهداً، فتطول عليه - رحمه الله - بأن صرفه إلى ملكه، وقوى سلطانه، وأعز نصره. ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي أسديت إليه، وقصر في أداء المفروض عليه، وحقه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده. وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطاني وموضع أحكامي، محكماً له في نفسي ورجالي ومعاقلي ومن تحويه من رعيتي، فشتان ما بيننا بقوة الثقة، ومطرح الهمة.

فقال الحكم :

قد سمعنا قولك، وفهمنا مغزاك، وسوف يظهر من إقراضنا إياك على الخصوصية شأنه، ويترادف من إحساننا إليك أضعاف ما كان من أبينا - رضي الله تعالى عنه - إلى ندك، وإن كان له فضل التقدم بالجنوح إلينا والقصد إلى سلطاننا، فليس ذلك مما يؤخرك عنه، ولا ينقصك مما أنلناك وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك بذلك كتاباً يكون بيدك نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك وتقبضه عن كل ما بتصرفه من البلاد إلى يدك، وسيترادف عليك من أفضالنا فوق ما احتسبته.

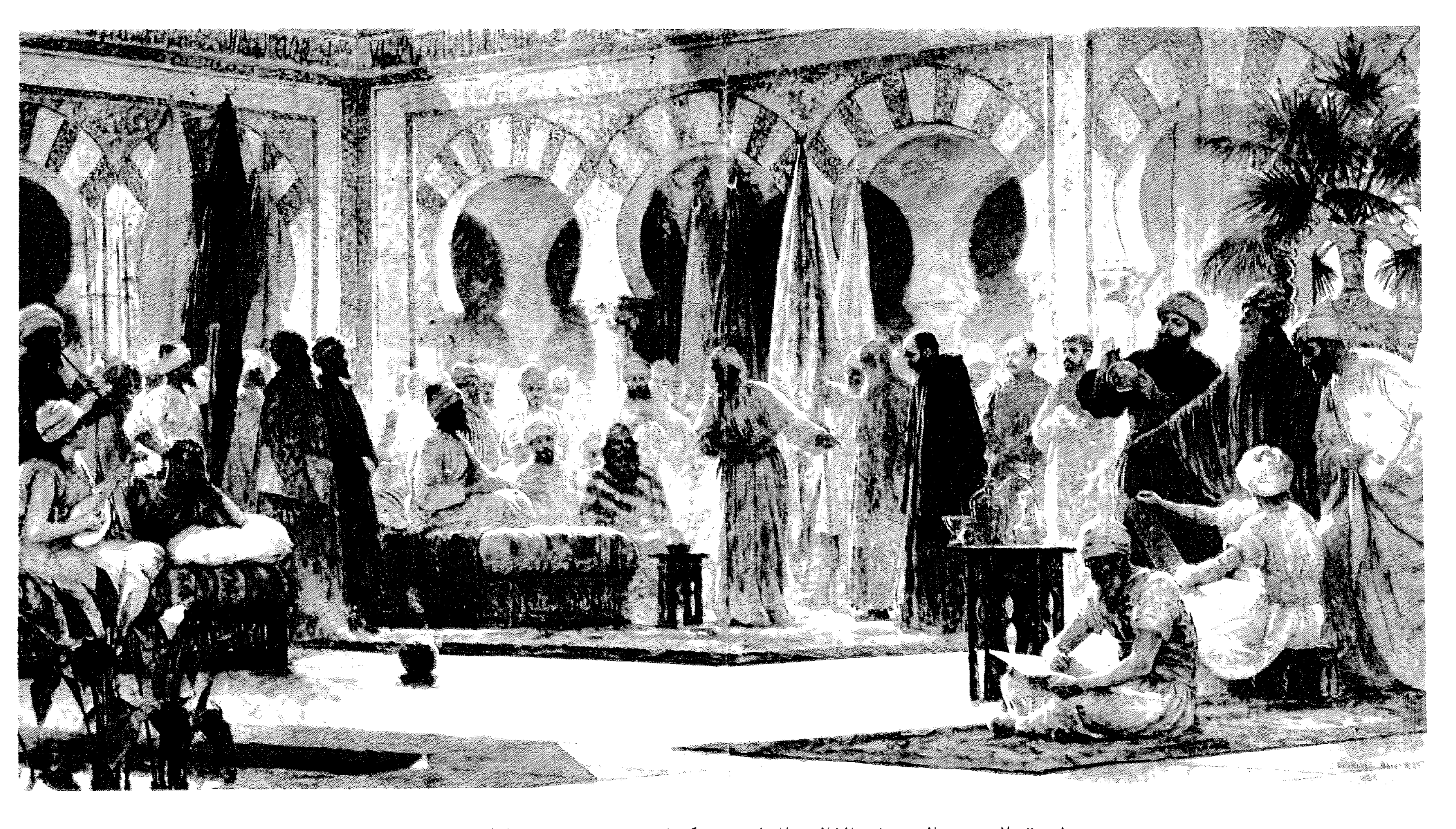
نفح الطيب للمقري ج 1، ص 384 - 394

لقد بعث الناصر رسله للقاء السفراء البيزنطيين في ثغْر بجاية، ولما وصل الركب إلى ضواحي قرطبة أرسل بعض قواته للاحتفاء بهم ثم بعث الفتى ياسراً وزميله تمَّاماً فصحبا السفارة إلى (دار الضيافة)، وفي اليوم الحادي عشر من ربيع الأوَّل من السنة المذكورة خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم. وكان يوماً مشهوداً من أيام الأَندلس... ودخل سفراء ملك الروم مقدمين الهدايا التي يحملونها، وكان من بينها نسخة من مخطوطة ذْيُسْقُوريدس (Dioscorides) باليونانية، ونسخة من تاريخ أورسيوس (Orsius) باللاّتينية، وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع باليونانية وداخله مدرجة بنفس اللغة فيها وصف للهدايا، وقد جاء في صيغة التوجيه : العظيم الاستحقاق للفخر الشريف النسب، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على الغرب بالأَندلس أطال الله بقاءه... وقد استقدم ترجمان للغة اليونانية للمساعدة على تعريب كتاب ذْيُوسْقُوريدس، أما اللاتينية فكان هناك من يجيدها في قرطبة، وقد ارتجل في هذا المجلس منذر بن سعيد البلوطي خطاباً عظيماً... وكان من شعره في ذلك الحفل المشهود قوله :

وفُودُ ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائل
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل[2]

ولما انصرف رسلُ قسطنطين بعث معهم الناصر سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة تأكيداً للمودة بين قرطبة وقسطنطينية فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء وعادت معه رسل قسطنطين، وأكبر الظن على أن موضوع السفارة توطيد للصداقة القديمة التي كانت بين قسطنطينية وعبد الرحمن الأَوسط منذ عام 225 = 840 لتكوّن شبه

2) نفح الطيب، طبعة بيروت 1، ص 364 ـ 373.



استقبال عبد الرحمان الثالث للراهب نيكولاس مبعوث امبراطور بيزنطة
عن لوحة ديونيسيو بيكسيراس

إفادة ابن عربي حول استقبال الناصر لسفراء الأفرنج

يروي أبو بكر محيي الدين بن عربي في «المسامرات والمحاضرات (2، 342) أنه : دخل على هذا الخليفة (الناصر) يوماً أرسال الإفرنج وقد ظهر لهم من عظم الملك مايرعبهم، بسط لهم الحصر من باب قرطبة إلى باب الزهراء، قدر فرسخ، وجعل الرجال عن يمين الطريق ويساره، بأيديهم السيوف الطوال العراض مجردة يجمع بين سيف الأيمن وسيف الأيسر حتى صارت كعُقَد الحنايا، وأمر بالأرسال أن يمشوا بين تلك في ظلالها كأنها ساباط فدخلهم من الرعب مالا يعلمه إلا الله تعالى، فلما وصلوا إلى باب الزهراء، فرش لهم الديباج من باب المدينة إلى مقعده على تلك الحالة من الترهيب، وأقام في مواضع مخصوصة، حُجّاباً كأنهم الملوك قعوداً على كراسي مزخرفة عليهم الديباج والحرير، فما أبصروا حاجباً إلا سجدوا له يتخيلون أنه الخليفة، فيقال لهم : إرفعوا رؤوسكم ! هذا عبد من عبيده ! إلى أن وصلوا إلى ساحة مفروشة بالرمل، والخليفة في وسطها قاعد، عليه ثياب خلق قِصار يساوي كل ما عليه أربعة دراهم وهو قاعد على الأرض مطرق وبين يديه مصحف وسيف ونار ! فقيل للرسل : هذا السلطان ! فسجدوا له فرفع رأسه إليهم قبْل أن يتكلموا وقال لهم : إن الله أمرنا يا هؤلاء أن ندعوكم إلى هذا، وأشار إلى المصحف كتاب الله فإن أبيتكم فبهذا، وأشار إلى السيف، ومصيركم إذا قتلناكم إلى هذا ! وأشار إلى النار... فملئوا رعباً، وأمَر بإخراجهم ولم يبدوا كلاماً، فصالحوه على ما أراد...

تحالف ضد الدولة العباسية، وربما كانت ترمي لتوحيد الموقف ضد الدولة العُبَيدية الفتية التي بدأت تزعج بيزنطة في البحر المتوسط كما تزعج قرطبة بالتوغل في المغرب.

كما نرى السفارة التي بعث بها لقرطبة ملك الفرنج لويس الرابع ولد شارل الثالث لعقد معاهدةٍ للسلم والصداقة مع الناصر وذلك حوالي سنة 342 = 953، تلك السفارة التي تحدث عنها ابن خلدون والمسعودي والتي انتهت إلى إبرام اتفاقية تستجيب لملتمسات ملك فرنسا.[3]

كما نذكر سفارة هامة تلقاها عبد الرحمن، هي سفارة أُوتو (Otto) الأكبر أمبراطور ألمانيا، التي وردت على قرطبة عام 345 = 956 وعام 350 برئاسة الحبر يوحنا الجورزي... (John of Gorze)) والتي كانت تهدف - علاوة على المهمة الجدلية حول الدِّين[4] El-Hajji P. 212 - إلى علاج مسألة توغل المستعمرات العربية في جنوبي فرنسا وفي سويسرا وعيثها في تلك الأنحاء والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذي تنتمي إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية، وبالتالي إبرام اتفاقية سلام وصداقة.[4]

---

3) El Hajji p : 136 – 137 – 138

4) بالرغم من الترحيب بالسفير الألماني بحفاوة لكن الناصر لم يبادر باستقباله، ولما ألح يوحنا في طلب المقابلة أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولاً أسقفاً إلى أُوتو (Otto) فاعتقله مدى ثلاثة أعوام... وأخيرا تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان سفارة أُخرى تستوثق من حسن نية أوتو، واختير لهذه السفارة القس (Recemuno) ربيع بن زيد الذي كان يعززه إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي والذي قضى سنتين في سفره، وحينئذ أذن الناصر برؤيةِ يوحنا سفير الأمبراطور واستقباله في قصر قرطبة في احتفال فخم... ويرجح الأُستاذ عنان أن يكون موضوع السفارة غزوات العرب في غاليس (جليقية). وشمالي إيطاليا وسويسرة كما يرجح أن يكون جواب عبد الرحمن أنه ليست له علاقة بتلك الحروب ولا يستطيع أن يتدخل في شأنها... وقد تحدث مفصّلا عن هذه السفارة الأُستاذ الحجي البغدادي في كتاب Andalusian Deplo. Relat p. 209-212 - النفح 1، ص 365.

خطبة القاضي منذر بن سعيد البلوطي
أمام الخليفة الناصر في حفل استقبال وفود الروم

وصلت وفود القسطنطينية إلى عبد الرحمن الناصر فاحتفل بها أيما احتفال، وندب للكلام في يوم الاجتماع أبا علي القالي ضيف الخليفة والقادم عليه من العراق. فلما تكامل الجمع قام القالي ليتكلم، فحمد الله تعالى وأثني عليه ثم صلى على نبيه محمد ﷺ، ثم أصابه البهر، فانقطع وعجز عن متابعة الكلام، فقام القاضي البلوطي دون أهبة وتابع ما انقطع من كلام أبي علي القالي فقال :

أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فاصغوا إليّ معشر الملأ بأسماعكم، وأتقنوا عني بأفئدتكم. إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت. وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه، أن يذكر قومه بأيام الله عز وجل عندهم. وفيه وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة. وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء. أنشدكم الله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؛ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها. فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افترافها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم، فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان ورفض الدعة، وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة، وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة

الفتنة عند حدتها ولم يبق لها غارب إلا جبه، ولا نجم لأهلها قرن إلا جده، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلمّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق لأخذ حبل بينه بينكم جملة وتفصيلاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده. وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم : ﴿**وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**﴾... الآية.

وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكلّ نبأ مستقر، ولكل أجلٍ كتاب. فاحمدوا الله، أيها الناس، على آلائه، واسألوه المزيد من نعمائه. فقد أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين، أيده الله بالعصمة والسداد، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسن الناس حالاً، وأنعمهم بالاً، وأعزهم قراراً، وأمنعهم داراً، وأكثفهم جمعاً وأجملهم صنعاً، لاتهاجون ولا تذادون. وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم ﷺ، فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبينُ. وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها، والتمسك بعروتها حفظ الأموال، وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء، وإن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام وبها سدّ الله الخلل وأمّن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول : ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾... الآية.

وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه، من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، الساعين في شق عصاكم وتفريق ملأكم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين، مستغفراً الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين.

ـ وهذه أبيات من الشعر ختم بها القاضي منذر بن سعيد البلوطي خطبته السالفة الذكر :

هذا المقال الذي ما عابه فند	لكن صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً ما كنت مطرحاً	لكنني منهم فاغتالني النكد
لولا الخلافة أبقي الله بهجتها	ما كنت أبقي بأرض ما بها أحد

مقتطفات من رسالة أمبراطور القسطنطينية قسطنطين

إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر

مطلع الرسالة :

من قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكي الروم.

(في سطر)

ثم :

إلى عظيم الاستحقاق والفخر الشريف، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ـ أطال الله بقأه :

(في سطر آخر).

من جملة ما كتبه إليه :

أن كتاب ديوسقريدوس لا تجتنى فائدته إلا برحيل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف تلك الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن ذلك فزت، أيها الملك، بفائدة الكتاب.

وأما كتاب هروشيوس فعندك في بلدك من اللاتينين من يقرأون باللسان اللاتيني ويستطع نقله منه إلى اللسان العربية.

الناصر لدين الله، للحايك ـ 112 حابيك سيمون

العلاقات بين سجلماسة والقسطنطينية عبْر الجلالقة !

في معرض حديث أبي عُبيد البكري عن حجارةٍ بوادي درعة تسمي بالبربرية تَامَطْغُسْت (Tamatghost) قال : انها تحك باليد فتلين إلى أن تاتي في قوام الكتان فيصنع منها الأمِرّة والقيود للدواب فلا تؤثر النار في شيء من ذلك. وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناتة بسجلماسة، وأخبرني الثقة أنه شهد تاجراً قد جلب منه منديلا إلى فردلند صاحب **الجلالقة**،[1]، وذكر أنه منديل لبعض الحواريين، وأن النار لا تؤثر فيه وأراه ذلك عياناً فعظم موقعه من فردلند وبذل له فيه غِناه، وبعث به فردلند إلى صاحب قسطنطينة (Constantın) ليوضع في كنيستهم العظمى، فعند ذلك بعث إليه صاحب قسطنطينية التاج وأمره بالتتويج...

قال البكري : وقد حدّث جماعة أنهم رأوا منه هداب منديل عند أبي الفضل البغدادي تحمي عليه النار فيزداد بياضا ويكون له النار غسلا وهو كثوب الكتان.

وفي كتاب الاستبصار :

... ويوجد بوادي درعة حجارة تسمى تامضيغت تحك باليد فتلين إلى أن تاتي في قوام الكتان... فتغزل وينسج منها مناديل لا تؤثر فيها النار مثل الصندل، وقد صنع منها لبعض ملوك زناتة كساء عنده من أعظم الذخائر. ذكر البكري أنه أخبره ثقة إنه رأى تاجراً قد جلب منه منديلا لبعض ملوك الروم، وأخبره أنه منديل كان لبعض الحواريين وجعله في النار أمام الملك فلم تؤثر فيه شيئاً، فوصله ذلك الملك بصلة كان فيها غناه إلى آخر الزمان. ويقال أن ذلك الملك بعثه إلى ملك الروم الأعظم وأخبره بخبره، ووضعوه في الكنيسة العظمى، وبعث إليه بصلة سنية وأمره أن يتوج بتاج بعثه إليه ورفعه على من سواه.

---

1) Don Fllirdinand. Roi de Léon

ونذكر سفارة البابا يوحنا الثاني عشر (John XII) التي وردت على الناصر في طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية والتي كانت لها صلة دون شك بلقاء إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي مع البابا المذكور في روما أواخر أيام عبد الرحمن الناصر 350 = 961.[5]

كما نذكر السفارة التي حملت إلى الحكم المستنصر بالله رسالة ودية من يوحنا تزيميسيس (John Tzimisces) قيصر قسطنطينية سنة 361 = 972...

والسفارة التي وردت سنة 363 = 974 تحمل رسالة أمبراطور ألمانيا أوتو الثاني الذي خلف أباه أوتو الأول، وكانت تجدد علائق المودة التي كانت بين أبيه والناصر.[6]

كما نذكر منها في الأخير السفارة التي وردت من أمبراطور الدولة البيزنطية، صاحب القسطنطينية العظمى بازيل الثاني (Bazile II) وذلك سنة 396 = 1006، وكانت تحمل كتاب الأمبراطور المنسوخ بالذهب وفيه يطلب قيصر استئناف المودة والصداقة التي كانت قائمة بين ملوك بين أمية وبين القياصرة، كما تحمل طائفة من الأسرى المسلمين الذين

---

5) ورد ذكر إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي في بعض النصوص العربية، حيث نقل عنه العبدري (تـ 478 = 1085) والبكري (487 = 1094) : روى عنه الأول أن ملك الروم بروما قال له سنة 350 : إنه يريد أن يرسل إلى أمير المؤمنين بالأندلس قوما حاذقاً، بهدية في مهمة ذكرها... كما حكى عنه الثاني أنه أي إبراهيم رأى رسل ملك البلغاريين (Bulgars) في مدينة ماكد بوغ (Magdebueg) حين وفدوا على هُوته (Otto) الملك، يلبسون ملابس ضيقة ويتمنطقون بأحزمة طوال قد ركب عليها ترامس الذهب والفضة، وملكهم عظيم القدر يضع على رأسه التاج وله الكتاب والأزمّة، وأصحاب الخطط وأمر ونهى، على نظم وترتيب كالمعهود للملوك الأكابر ولهم معرفة بالألسن ويترجمون الإنجيل باللسان الصقلبي وهم نصارى... Alhajji. p : 244-252

6) عنان 2، ص 448 ـ 278.



الخليفة عبد الرحمان الثالث يستقبل الراهب جان دي كَورز
الرسم عن لوحة رودريكَيز لوصادا

أسروا في أطراف الجزائر التابعة لقيصر، وقد سر عبد الملك لهذه المبادرة من القيصر وصرف السفير أجمل صرف...(7)

☆ ☆ ☆

وبعد استعراض علاقات الأندلس الخارجية نحاول أن نجمل في بعض السطور علاقات العُبَيديين كذلك بالخارج فتكمل بذلك نظرتنا لصلة المغرب العُبيدي والمغرب الأُموي بالممالك والدول الأُخرى في مختلف جهات العالم.

ونلاحظ بادئ ذي بدء أن نشاط العبيديين الخارجي كان أقل بكثيرٍ من نشاط منافسيهم في الأندلس...

لقد كانوا يهتمون بإرسال دعاتهم إلى البلاد الإسلامية، فكانوا متوجهين أولا إلى محاولة إخضاء العالم الإسلامي إلى مذهبهم ليُخطب لهم على المنابر، وتنقش أسماء خلفائهم على السكّة.

وقد تملكوا بفضل هؤلاء الدعاة اليمنَ والبحرين والحجاز... وقد ذكر اسمهم على منابر بغداد في وقتٍ من الأوقات.(8)

وكان أبو القاسم الشيعي وبنوه من بعده يكتفون، بالنسبة للامارات المسيحية المجاورة، بإرسال الأساطيل من المهدية ومن بني الحسن

---

7) مجلة الأندلس، مجلد 17 مدريد 1952 القسم 2.

8) كان ذلك أواسط القرن الخامس أيام معد بن علي (الفاطمي) الملقب بالمستنصر وأيام القائم بأمر الله العباسي أثناء المنافسة السياسية بين طغر لبك أمير السلاجقة، وبين أرسلان البساسيرى أحد مماليك أمير الجيوش واستعانة هذا الأخير بأمير الموصل قريش بن ابن بدران، ففي هذا التاريخ (450 هـ = 1058م) علا اسم الفاطميين على منابر بغداد.

ابن الكازروني : مختصر التاريخ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد، فهرست سالم الألوسي، 1970 بغداد.

هدنة 346 = 957 بين المعز والروم

«... وأقبل أسطول الروم فلقى أسطول أمير المؤمنين دون صقلية، وأقبل أسطول بني أمية لميعاد المشركين (يعني أن الأمويين كانوا على موعدٍ مع الروم لضرب العُبيديين) ففتح الله لوليّه على الروم فهزمهم في البحر وقتل رجالُه منهم خلقاً عظيماً وولوا هاربين بين يدي أسطوله إلى مجازريّة (أي مجاز مِسّينة) الفاصل بين صِقلية ومقاطعة قلوريّة جنوب (إيطاليا) ليحموا بلدهم... فنزل عسكر البر بأرضهم فأنكى القتل فيهم، فأحرق مدائنهم وأخرب كنائسهم وبلغ غاية الأمل فيهم من النكاية.[1]

وأرسل ملك الروم إلى أمير المؤمنين بأموال عظيمة وهدايا جليلة، ورغب في التوقف عمن بقى من الروم بأرض فلورية (بجنوب إيطاليا) على مال قطعه على نفسه يؤديه عنهم وأسرى من أهل المشرق ليطلقهم في كل عام لمدة يسيرة سال الهدنة فيها، ورأى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام صلاحاً للدين والمسلمين، بعد أن أقدره الله عز وجل وأمكنه وشفى صدره وصدور المؤمنين به.

القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ص 167.

---

1) دارت هذه الوقعة بحراً ثم براً 345 = 956، وهي غير وقعة المجاز التي دارت برا بِرَمطة (Rametta) وطيرمين (Taormina)، ثم بحراً بمضيق مِسّينا (Messina) وانتصر فيها الأسطول الفاطمي وكان ذلك سنة 353 = 964.

القائمين بدعوة العُبَيديين في صقلية، إلى جنوة وسائر الجزر المنعزلة عن السواحل...

ومع ذلك فقد حدثنا التاريخ عن سفارة بعثها معدّ بن إسماعيل الملقب بالمعز إلى ملك ألمانيا أوتو (Otto) حيث استقبل في ميرسبورغ (Merseburg) في نفس السنة التي توجه فيها لمصر عام 362 = 973، وصادف وجود السفارة العُبيدية هناك سفارة للحكم الثاني المستنصر بعضوية إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي.(9)

☆ ☆ ☆



9) Al Hajji p : 263

هنا انتهى المجلد الرابع
ويليه المجلد الخامس
ويبتدئ بموضوع : دولة المرابطين

فهرس الصُّوَر والرُّسوم

صفحة	الصور والرسوم

فهرس الموضوعات



رقم الإيداع القانوني : 1986/25

تم طبع هذا الكتاب بمطابع فضالة ـ المحمدية

HISTOIRE DIPLOMATIQUE DU MAROC

(DES ORIGINES À NOS JOURS)



Tome 4

La dynastie Idrîside

Par

ABDELHADI TAZI

MEMBRE DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

1987 = 1407